

دا صافونكن الامان

كنت طبيبة في

اليمن

نقله إلى العربية
محسن أحمد العيني

الطبيب الجليل
سنة



د. كلودي فاين

كنت طبيبة في اليمن

ترجمها إلى العربية:

محسن أحمد العين

في صيف عام ١٩٥٦ تعرفت في باريس بالدكتورة كلودي فايان التي كانت تقوم بإلقاء سلسلة من المحاضرات عن اليمن مستعينة بالفانوس السحري أحياناً، وقد لمست حبها لليمن وإعجابها باليمنيين، ولمست إخلاصها وصدقها وخلو أحاديثها من التشويه والسخرية والتهكم التي تعودناها من الغربيين حينما يكتبون عن بلادنا. وظهر كتابها “طبيبة فرنسية في اليمن” في مكتبات باريس ولقي إقبالاً ورواجاً في فرنسا وحدها بل ونقل إلى لغات عديدة منها الإنجليزية والألمانية والمجرية وغيرها، وكان المتوقع أن تهتم دور النشر العربية بهذا الكتاب فتنقله إلى اللغة العربية؛ ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث.

ورغم عدم تمكني من اللغة الفرنسية، وتهيبي، فقد أقدمت على نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية، وسهل مهمتي صلتني بالطبيبة الفرنسية، ومعرفتي للوقائع منها، وفهمي للوضع الداخلي في اليمن، وسير الأحداث، كما شجعتني على السير في التجربة حتى النهاية شعوري بأن الكتاب جدير بأن يقرأه العرب ولاسيما اليمنيون.

وانتهيت من ترجمة الكتاب في بداية ١٩٥٨م، ولكن ظروفًا كثيرة حالت دون ظهورها. وخلال هذا العام مرت اليمن بأحداث وتطورات هامة لم يحس بها أحد في الخارج بسبب النطاق المضروب حولها فقد انتقل الإمام ومعظم أفراد أسرته وحاشيته إلى إيطاليا، وترامت إلى أسماع الشعب أنباء وأخبار تركم الأنوف، وصرف الإمام وصحبه في بذخ يحسده عليه أمراء السعودية وشيوخ قطر.

وتوقفت مرتبات موظفي الدولة ثلاثة أشهر وكان الإمام يردد في وقاحة “ما معناش فلوس .. أصبروا علينا!” لقد سحبوا أموال الشعب إلى الخارج، صرفوا منها على ملذاتهم وشهواتهم وإصلاح ما أفسده الدهر والشذوذ من أجسادهم، وأودعوا ما تبقى في البنوك استعداداً لما تأتي به الأيام.

وفي طريق عودته مرت باخرته بقناة السويس، وخرج الرئيس جمال عبدالناصر لاستقباله، وخفت الزوارق والسفن تحيط بباحرته وهي تدخل مياه الجمهورية العربية المتحدة، ورغم كل هذا رفض النزول إلى أرض الجمهورية، بل ولم يخرج حتى إلى ظهر الباخرة لاستقبال الرئيس عبدالناصر بدعوى المرض وتدهور الصحة.

وفي اليوم التالي وصل الحديدة، وأقبلت جماهير الشعب تتفرج عليه وترقب مقدمه وتنتظر أن ينزل من الباخرة متهاكاً ضعيفاً محمولاً على الأكتاف، إلا أنه فاجأ الناس ممتلئاً حيوية ونشاطاً، فقد نزل شاهراً سيفه وسار على قدميه، ووقف أمام جماهير الشعب التي كانت تنتظر أن تكون رحلته قد غيرت أفكاره وأقنعت بضرورة الخروج من ظلام القرون الوسطى وفتح النوافذ والأبواب لنور القرن العشرين.. وقف أمام هذه الجماهير والسيف في يده وراح يتوعد الشعب ويتهدده ويردد في صوت فظ غليظ ولهجة وحشية بشعة عبارته المشهورة:

“أنا أحمد ياجنّاه” من يفكر في معارضتي والتمرد علي، والله لأقطعن الأيدي والأرجل من خلاف ولأقتلن كل من تحدّثه نفسه بالخروج علي، ومن لم يقتنع فليجرب، وهذا الفرّس.. وهذا الميدان!..

وحش مفترس، جزار غليظ، يواجه شعبه الذي خرج لاستقباله بمثل هذه العبارات الشرسة.

وبدأ فعلاً في تنفيذ أفكاره السوداء، فأخرج ضابطاً شاباً إلى الميدان ليقطع يده ورجله، وقطعت يده فعلاً، وسلمت رجله بفضل غلطة مباركة موفقة.

لم يتقدم أحد لمبارزة الإمام في الميدان، فبدأ هو التحدي.

استدعى كبير القبائل، شيخ قبيلة حاشد، للمثول بين يديه مبطناً له الشر والأذى، ولقبيلته الإذلال والهوان، فرفض الحضور هو وابنه الشاب.. أرسل الجيش فوقفت حاشد وقفة باسلة، وانتظر الشعب أن يصفى الحساب مع هذا الوحش وتنتهي المأساة، ولكن آل الأحمر، مشايخ حاشد أخطأوا التدبير ففضلوا حقن الدماء، وسلّموا أنفسهم وثوقاً بكلمة الشرف لطاغية يشرب الدماء ولا يقيم وزناً لعهد أو لشرف.

فدبح الابن الشاب وألحقه بأبيه الشيخ الكبير الطاعن في السن.. وأودع سجونه الأرامل والأطفال من آل الأحمر.. ولا يدري أحد ما الذي تنتظره قبيلة حاشد!

واستدعى الطاغية بعد ذلك كبار المشايخ، ولكنهم رفضوا، ووقفت قبيلة خولان ترد على نداءاته قائلة في برقية شهيرة:

“لن نسلّمك مشائخنا، فقد قتلت غيلة وغدراً مشايخ حاشد الكبار، ولن نرهن أبناءنا ضماناً لولائنا، ولن ينزل جيشك في بيوتنا وأراضينا، إننا ندفع الزكاة، ونؤمن الطرق، ليس لك علينا أكثر من هذا.. فإن أردت غير هذا.. فنحن نفضل أن نقاتل ونموت على عتبات بيوتنا، والشعب حكم بيننا وبينك”.

وأرسل جنوده غير النظاميين، واستمر القتال أكثر من ثلاثين يوماً اضطر بعدها إلى عقد صلح مع القبيلة الشجاعة. ولم يستتب له بعد ذلك أمن ولا استقرار.

فالمنشورات تعم مدن اليمن وقراها، والمتفجرات تنسف بيوت أذنابه وحواشيه، والبلاد كلها تنتظر أن تسمع مصرع حكمه الظالم المقيت.

وفكر.. وفكر له الأذنان والمرترقة، وسمع الشعب راديو صنعاء يذيع أمراً إمامياً عجيباً سخيفاً..

لقد أصدر الإمام أمره بتكوين لجنة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. وتناقل الناس الخبر على الوجه التالي.. كَوّن الإمام جمعية للأمر بالمنكر والنهي عن المعروف.. ولا أدري إذا كان المذيع قد قال الخبر على هذا النحو أم أن الناس قد فهموه هكذا حتى يكون منطقياً ومنسجماً ومتفقاً مع الرغبات الملكية الشريفة!!

وبدأت اللجنة عملها بهمة ونشاط، فاقتحمت بيوت الأمنيين وانتهكت حرمة المساكن وروّعت النساء والأطفال بحثاً عن زجاجة فارغة أو رائحة معينة تقتنع اللجنة بأن رب

البيت ممن يعاقرون الخمرة.. ولابد أن يكون أعضاء اللجنة على خبرة عظيمة حتى يتأكدوا ويصدروا حكمهم ضد هذه الفريسة الضعيفة.

وتشهد صنعاء هذه الأيام أبشع مشاهد شهدتها الإنسانية قبل ستمائة أو سبعمائة سنة. وكما يسمع الناس وصفاً لمباراة كرة القدم أو لاحتفالات شعبية بعيد قومي، أو لسهرات أم كلثوم، يذيع راديو صنعاء مآسي التعزير والجلد بصورة تتنافى مع أبسط حق من حقوق الإنسان وكرامته.

وتتوج هذه الاحتفالات بحضور العلماء وسيوف الإسلام وكبار رجال الدولة.. ولا شك أن الهدف واضح معروف.. وهو صرف أنظار الشعب عن معركته مع جلاديه، وإلهائه عن تتبع التحركات الثورية في هذه القبيلة أو تلك، وعن سماع الانتصارات التي يحققها الشعب العربي هنا وهناك.

إن على شعبنا العربي في اليمن أن يضرب ضربته الحاسمة، وأن يصفّي حسابه مع هذا الطاغية الجlad، وأن يمحو العار، فقد تحررت من حوله شعوب وشعوب.

واليوم نحن نصدر هذا الكتاب الذي كتبه فرنسية دخلت قصور سيوف الإسلام وعرفت حياتهم وشهدت ألواناً من عبثهم ولهوهم، صدره ليعرف الشعب أن آخر من يجور له أن يغار على الإسلام هو أمير المؤمنين ورجال الدين المنافقون وسيوف الإسلام الميامين!

بيروت ، آب ١٩٦٠

مذكرات الطيبية الفرنسية كلودي فايان تنشر في «كتاب في الجمهورية» كاملة ووفق تعريبها من الفرنسية من قبل الاستاذ محسن العيني والتي تضمنها كتاب « كنت طبيبة في اليمن».

كما تنشر الصور الوثائقية بالتعاون مع المركز الفرنسي للآثار والعلوم الإجتماعية بصنعاء.

المشرف

زوج و عدة أطفال ووظيفة ثابتة لطبيبة في العقد الرابع من العمر : هذا مايجعل في العادة، أية مغامرة بعيدة في عداد المستحيلات. تلك كانت حالتي.. ولكني رغم ذلك تعذر علي أن أنسى أحلام صباي في الأسفار.

إن مقاومتي للحياة المألوفة تفسر، ربما، بطفولة غريبة انقضت في فندق قديم بشارع « شيرش ميدي» في باريس. كان جدي يزدري الأطباء بقدر ما كان يخشى الجراثيم. وكان يمنعني من الذهاب إلى المدرسة حتى يقيني من مرض الحصبة، وكان يقول لي بأن جداراً قديماً مغطى بالطحلب يعلمنا ما نتعلمه في الكون كله، إذا ما عرفنا أن نبصر. إلا أن هذه الحكمة كانت أرفع من أن أفهمها وأنا في سن العاشرة. وفي حديقة تملؤها أشجار لم تشذب أبداً، بالظلال والطيور، كان الشيء الوحيد الذي يصل إلي هو دوي جرس الكنيسة المجاورة. وكانت تأتيني مدرسة تعلمني قراءة هومير بصوت مرتفع. وقد أسكرتني الانطلاقات الخيالية التي أوحتها إلي أقاصيص السفر الممتزجة بمغامرات الآلهة.

وقد عثرت، فيما بعد، على كتب حول جغرافية القرن الماضي، في المكتبة. وكم كانت سعادتي حين وجدت ضمن هذه المجلدات العلمية الضخمة أقاصيص المكتشفين الأوائل التي كانت شيقة جداً في بعض الأحيان.

وكانت الدنيا التي وصفوها غير واقعية، تماماً كالصور المنقوشة التي رسمها جوستاف دوري Gustave Dore وكانت تلك الرسوم المنقوشة أكبر إثارة وإغراء من الصور الفوتوغرافية، ولحسن الحظ وضعت الصدف بين يدي مجلة «علوم ورحلات» المصورة، وقد وجدت فيها عرضاً واضحاً وأميناً لظروف البلدان البعيدة أفضل ما في حضارتنا، قررت أن أصبح فيما بعد طبيبة. وكانت رحلتي الأولى، ولعلها أصعبها، هي الذهاب إلى المدرسة المجاورة.

وقدمت الأطروحة للحصول على الدرجة العلمية في سنة ١٩٤٠ ولم تنتهياً لي إمكانيات الهجرة. كما أنني كنت قد تزوجت، وأنجبت أطفالاً صغاراً، وإذا كانت فرص السفر تتضاءل شيئاً فشيئاً أمامي، فإن أسفي لم يزدد إلا اضطراباً واشتعالاً. وكانت الأمور المثبطة التي تعمل على تلاشي ما في خيالي كثيرة حولي. ولكنها كانت أضعف من أن تؤثر. لقد كنت أحب أن يخلو قلبي وألا يسترسل إلى مالا نهاية في حلم زائف.

ولم تغير الحرب شيئاً في الموضوع. بل على النقيض من ذلك فإن ذكريات قرى اللوار في يونيو ١٩٤٠ وأدغال اليون Yonne أضافت إلى تحسراتي كل أثقالها، لأنني كنت قد اكتشفت فجأة في نفسي خلال هذه الظروف الشاذة غنى لا عهد لي به في الحياة العادية. اعتقل الألمان زوجي وقرروا إعدامه رمياً بالرصاص. واستطعت أن أنفذ سلسلة من الحوادث أطلقته وأنقذته من أيديهم في الوقت المناسب. ولكن رحلتي كانت أكثر من مكافأة، إنها فضلاً عن ذلك دليل على الوفاق الحقيقي. فبعد سنوات كثيرة كنت في أمس الحاجة إلى هذه الجرعة من الجمال والفائدة والعناء التي تعطي للحياة معناها

الكامل. وإذا كان رفيق حياتي مدركاً لأسبابي العميقة فقد سمح لي بالغياب عاماً كاملاً. عام من الحرية، وأنا في سن ما أزال اتمتع فيها بالشباب فأقدر، وكبيرة فأدرك.. يالها من ثروة! ولم أكن مثقلة مع ذلك، بأي هم عائلي أو مالي. فأبنائي الأربعة في حالة مرضية ينتقلون من فصل إلى آخر دون عقبات تذكر. وستقوم قريبة حبيبة من الأهل بشؤون البيت في أثناء غيابي، ولكني قبل سفري لا بد أن استعد استعداداً جدياً لهذا السفر.

وبناء على هذا فقد تابعت دروس الدبلوم في أصول السلالات البشرية ومميزاتها في «متحف الإنسان» سنة ١٩٥٠م، وقد كنت أعرف جميع المتاحف الأوروبية من هذا النوع، أنها في الغالب غنية جداً ولكن واجهاتها تبدو مليئة بأشياء حية، أما في قصر شايفو فالأمر يختلف، إن الاختيار دقيق، والعرض ممتاز ويحتفظ بكل القيم البشرية لهذه الشواهد عن حياة غريبة عنا، وأعترف مع هذا أن هذه الدراسات لم تكن بالنسبة لي في أول الأمر إلا مبرراً، فعلم أصول السلالات البشرية ومميزاتها هو الحجة الحديثة للمغامرين، إذ في أيامنا هذه، من هو الذي يخرج في رحلة طويلة دون أن يقوم بتحقيق صغير يصف فيه الشعوب المختلفة، ومظاهرها المادية ونشاطها؟ إن هذا يشغل حيزاً في حقبة الرحالة الحقيقي، وعندما كانوا يلومونني لهجر أسرتي سنة كاملة كنت أستطيع الاحتجاج بالفائدة العظمى التي نجنيتها من معرفتنا لحياة الحريم، ولم يجروا أحد على الاعتراض خوفاً من أن يتهم بأنه ضد العلم، وقد استسلمت الإدارة التي أعمل فيها أمام هذا الباعث المحترم، ومنحتني إجازة سنة كاملة بدون مرتب، ولكني سرعان ما تعلقت بهذه الدراسة.

وفي دراستنا لما قبل التاريخ، ولعلم وظائف الأعضاء ولل فنون عموماً، ولفن المقابلة بين اللغات، كان أساتذتنا لا ينسون دائماً هدفهم، وهو أن يمكننا من فهم الإنسان الحديث بصورة أفضل، ومن إدراك التطور الذي جعله على ما هو عليه الآن، لقد عرفوا كيف يعلموننا أن نفكر، وأن نفكر بطريقة أفضل، ولم يكن هناك ما هو انفع لي ولا ما يهيئني للدخول في عالم يختلف اختلافاً كبيراً عن عالمي من مثل هذه الدروس.. وإني لسعيدة أن أسجل جميلهم واعترافي بفضلهم في كتابي هذا.

في هذا الوقت، كنت أبحث عن وظيفة طبية في الخارج أو عن بعثة، وقد فاتتني فرص عديدة، فقد كانت الإجراءات تسير في البداية على ما يرام ثم ما تلبث أن تقف، وسبب لي هذا الفشل قلقاً واضطراباً مؤلماً.. لقد كانت السبل تغلق أمامي الواحدة بعد الأخرى حتى سمعت أخيراً عن اليمن.

واعترف أنني كنت أجهل كل شيء عن اليمن حتى موقعها، لقد تخيلتها بلداً ساحراً جذاباً جديراً بالذكر في كتاب «جغرافية آسيا» التي اختارها مسيو لانيير سنة ١٨٨٤م والتي ما تزال تسحرني حتى اليوم كالأوديسا لهوميروس..

ولكن اليمن هذه ستبقى حلماً من الأحلام لي ولغيري.. وقد علمت بعدئذ أسفة أنني

بإزاء بلد جبلي في جنوب الجزيرة العربية مقفل الحدود يحكمه ملك.. واعترف أن هذا لم يثر عندي أية رغبة في الذهاب، ولكنني أدركت هذه المرة أنني قد اقتربت من تحقيق ما أصبو إليه.. إن الناس لا يذكرون اليمن إلا قليلاً.. وهذا يرجع إلى أنهم لا يعرفون عنها شيئاً كثيراً..

ومع ذلك، فقد كانوا يطلقون عليها اسماً جميلاً هو «العربية السعيدة» لجبالها الشاهقة التي تصطدم بها سحب المحيط الهندي، وتسقط أمطاراً غزيرة منتظمة تضمن لها الخصوبة والرخاء، وقد ازدهرت فيها قبل ثلاثة آلاف سنة حضارة ومدنيات بمعابدها ومدنها ولغتها وكتابتها، إنها موطن بلقيس، ملكة سبأ صديقة الملك سليمان.

ولا تزال العمارات في صنعاء إلى يومنا هذا مشيدة على الطراز البابلي القديم. وتوجد الآثار في مناطق شهيرة، كانت قديماً تفيض بالترف والحياة، وستوضح دراستها حلقات من التاريخ ما زالت غامضة مجهولة، ولكن الحفريات غير ممكنة في الوقت الحاضر وسيبقى كل هذا لا يمس كما كانت بلاد الأشوريين قبل ديو لافوي.

إن اليمن الحديثة من البلدان التي يجد الإنسان مشقة وعناء في معرفتها واليمنيون في الغالب من أتباع المذهب الزيدي وتاريخهم ليس إلا صراعاً طويلاً بين الأئمة المتتابعين على الحكم الذاتي الذي ضاع في أوقات كثيرة، والذي نالته نهائياً في سنة ١٩١٧م بعد الانفصال عن تركيا، ومنذ ذلك الوقت احتفظت المملكة اليمنية دائماً بعزلتها الشديدة، وقد انضمت بكل تأكيد إلى هيئة الأمم المتحدة وإلى الجامعة العربية، ولكنها حتى سنة ١٩٥٠م لم تقدم على التمثيل الدبلوماسي الخارجي، مع أية دولة، ولم ترسل ممثلاً إلا إلى القاهرة.

ويقول الجيولوجيون الذين يعرفون اليمن: أن فيها ثروات معدنية هامة، وأن من المحتمل وجود البترول في الأقاليم التي تحيط بالصحراء الكبرى، في وسط جنوب الجزيرة العربية، ويبدو أن الإمام الحالي لم يفتنه الثراء الفاحش المفاجئ في المملكة العربية السعودية، فهو لا يسمح بالبحث عن المعادن.

ويرتاب في بعثات البحث عن الآثار الأجنبية، ويظن أن ما يشغل بالها هو شيء أكثر حداثة من معرفة الإمبراطوريات المطمورة في الرمال، فهل يخشى أن يفقد بجانب الفقر، استقلال وطنه وصفاء عقيدته، أو هل يؤمل أنه يوماً ما يستثمر بمفرده هذه الثروات؟

مهما يكن من أمر فإن اليمن التي تساوي ثلث مساحة فرنسا، ويسكنها نحو خمسة ملايين نفس، ما زالت تعيش في ظلام القرون الوسطى، وهي من وجهة النظر السياسية مملكة إقطاعية، اقتصادها قائم على الزراعة والحرف.

واحتياجاتها، لهذه الأسباب، قليلة ولا يدخلها إلا القليل من المهندسين والأطباء الأجانب، وهي لهذا ميدان مفيد جداً للباحثين في أصول السلالات البشرية ومميزاتها، إذ لم يعكرها أي شيء غربي على الإطلاق.

إن الفنيين هم غالباً من الإيطاليين بالرغم من أن نفوذ هؤلاء قد تقلص بعد اعتدائهم على أثيوبيا، وحصل أن طبية فرنسية هي الدكتورة سيران استدعيت في سنة ١٩٤٦م للكشف على إحدى الأميرات.. ورضي الإمام بهذا الاتصال الأول، فطلب جراحاً من فرنسا، وكان تعيين الكولونيل الطبيب ريبوليه، وبعد سلسلة من الأعمال الناجحة السارة، جلب بدوره ستة أطباء جدد من فرنسا.

ولكن الحياة في اليمن، ليست سهلة على غريب، فليس هناك أثر للراحة ولا للحرية، والوسائل المهنية ضئيلة، والعلاقات مع السلطات المحلية سريعة التأثير وضعيفة إذ تمثل هذه السلطات أحياناً إلى معاملة الأطباء كما كانوا في أوروبا يعاملون الحلاقين في القرن الخامس عشر، وقد مات أحد أعضاء البعثة الطبية الفرنسية، وعاد الآخرون إلى فرنسا ساخطين بعد حوادث مزعجة خطيرة، وبعد سنتين وجد الدكتور ريبوليه نفسه وحيداً في بلد لا يشاركه في العمل فيه سوى أربعة أطباء من الإيطاليين وقد طلب أطباء آخرين.

حسب أقوال الذين سبقوني يكون السفر إلى اليمن بحثاً عن المتاعب، ولكن واحدة فقط من زميلاتي القديمات هي الدكتورة لا نسوي كانت تحتفظ لليمن بذكريات طيبة، فهي ترى أن صنعاء مدينة جميلة، وأن اليمنيين قوم طيبون، وأن الصعوبات يمكن تذليلها لا سيما والمهمة عظيمة وتبرر الإقدام على هذه المخاطر.

لقد بدا لي هذا البلد محققاً تماماً لكل ما أهفو إليه، فقدمت ترشيحي إلى وزارة الخارجية في يناير سنة ١٩٥٠م.

إن اليمن ليست غنية، على الأقل في الوقت الحاضر، ولهذا فلا يقدم صاحب الجلالة للخبراء الفنيين إلا نحو مائة جنيه مصري شهرياً ولا قيمة لما يمكن كسبه من العملاء الخصوصيين، فهؤلاء لا يقدمون شيئاً.. مائة جنيه، أي طبيب في وقتنا هذا، يقطع بهذا القدر؟ لا بد وأن يكون للإنسان بجانب هذا معاش عسكري، أو زوج يتحمل تكاليف العائلة، أو أن يكون الإنسان مجنوناً أو على الأقل باحثاً في السلالات البشرية!.

كنت الوحيدة، وقد أخذوا ترشيحي هذه المرة مأخذ الجد، وحولوا طلبي إلى الجهات المختصة وبعد ستة أشهر تلقى الدكتور ريبوليه الذي كان يقضي إجازته في فرنسا الرد برقياً:

«صاحب الجلالة الإمام أحمد ملك اليمن يوافق ويأذن للدكتورة المحترمة فايان بالوصول».

كان الأمر إذن قد تقرر، ولكن العقد لا بد أن يوقع تحاشياً للمآسي التي واجهتها البعثة السابقة، وقد نجم عن هذا انتظار جديد، وقيل لي أن هذا تدريب ممتاز على الأصول الشرقية في التباطؤ والتواني، وقد قضيت الشهور الأخيرة لسنة ١٩٥٠م وأنا أكمل استعدادي: فعنيت بالاختبارات المتعلقة بعلم النفس، في مصلحة الصحة العقلية بمستشفى أمراض الأطفال، وبالحصول على دبلوم في طب المناطق الاستوائية، وفي

دراسة اللغة العربية، وركوب الخيل إذ أني كنت أعلم أنني سأستعمل الحصان في تنقلاتي، وفي شهر ديسمبر كان كل شيء مهياً، ولكن العقد حتى الآن لم يصل، ودون أن أطيل الانتظار سافرت في يناير سنة ١٩٥١.

كيف كانت رحلتي.. هذا ما سأحدث عنه فيما بعد، وعلى كل حال فقد كانت على غير ما توقعت بسبب تراكم العمل عليّ ونقص الأدوية، وقد بقيت وحيدة بعد موت الدكتور ريبوليه، وقدم الإمام الأماكن الشاغرة للإيطاليين فاحتلوها.

انتهت إجازتي بعد سنة ونصف فعدت إلى بلادي، وذات يوم كنت في المترو أصبح بأحلامي في اليمن، فقد تلقيت في الصباح رسالة من صنعاء من الطبيب الإيطالي الذي خلفني في عملي، قال فيها: «إن الأمر يزداد سوءاً منذ سفرك، إن وباء التيفوئيد منتشر، ولا وجود للأدوية.. لا شيء.. لا شيء.. لا شيء...!!» لقد رأيته في الخيال خلال زيارته للمستشفى وهو يمر كما كنت أفعل أنا، في هدوء أمام سرر المرضى دون أن يستطيع عمل شيء.. هل أرسل له علاجات، أن الانتيبيوتيك غالي الثمن ونحن لسنا مع ذلك في الزمن الذي كانوا يجمعون فيه الصدقات «لإنقاذ الصينيين الصغار».

وللمرة الثانية، يضع القدر في طريقي مجلة صباي، لقد تعرفت عليها في واجهة بائع الصحف واشتريتها معترفة بجميلها، ألم تسقني إلى اليمن من أغوار حديقتي القديمة؟ أجل.. إلى اليمن - بل وإلى مأرب، عاصمة ملكة سبأ المحرمة الممنوعة على الأجانب على مر الأيام.. على الصفحة الأخيرة قرأت إعلاناً عن مسابقة موضوعها تحقيق صحفي جائزته خمسون جنيهاً.

ومن أجل مرضاي القدامى، ومن أجل اليمن التي منحتني الكثير، كتبت زيارتي لمأرب، وكان ذلك هو الخطوة الأولى في هذا الكتاب، ومرت أسابيع ونلت الجائزة، وظهر بعيري الذي يجر طاحونة الزيت على غلاف مجلة «علوم ورحلات» بدوره، وكلما مررت بأكشاك الصحف بحثت عنه عيناى.. إن الأمر لم يكن مجرد حلم.

وعادت حياتي الرتيبة إلى اضطرابها، ولكن الأخرى قد كانت أيضاً حقيقة. القاهرة، جدة، أسمرة.. ثم «كمران» نزلت بنا الطائرة بعد الظهر في هذه الجزيرة الصغيرة، الواقعة في البحر الأحمر بمحاذاة السواحل اليمنية.

إنها مساحة جرداء قاحلة فيها مطار لتموين الطائرات، وأمام حظائر الطائرات ترتفع مسلة لتحية عشرات الألوف من المسافرين الذين يمرون من هنا كل سنة، ترى ماهي الذكريات التي تعلق بأذهانهم عن هذا المكان؟

أما أنا فإني لن أنسى الخوذة الاستعمارية التي كانت موضوعاً على المائدة في غرفة الانتظار وهي المرة الأولى التي أرى فيها هذه الخوذة في غير المحلات التجارية التي تباع حاجيات المكتشفين، كما إنني لم أر مثيلاً لها فيما بعد، فالموظفون الإنكليز في عدن رياضيون ولا يضعون شيئاً على رؤوسهم.

تركنا هنا السيدة المسلمة التي ركبت معنا من القاهرة، لقد كانت عبارة عن شكل

مخروطي غامض من القماش الأبيض، تبدو عيناها من ثنايا فتحة ضيقة، ولم يكن صوتها إلا وشوشة، ومن طيات رداها كانت تبرز، ثم اصبعان تقدمان إلى موظفي الجمارك الأوراق اللازمة، وما إن انتهت عملية مراقبة الأوراق حتى اختفت السيدة، ولكن ثلاثة من المسافرين كانوا ينتظروننا في كمران، لينتقلوا معنا إلى عدن، كانوا مضطربين عصبين ومهلهلي الثياب.

ويبدو أنهم قد خرجوا من مغامرة مريرة، تعارفنا في الحال، لأنهم عائدون من اليمن، وكانت فرصة نادرة أتاحت لي أن أسمع أحدث أخبار اليمن قبل وصولي.

من النادر الدخول إلى اليمن أو الخروج منها عن غير طريق عدن، فليس من خط جوي منتظم يمر فوق الأراضي اليمنية، ورغم أن مدن اليمن الرئيسية الثلاث: صنعاء والحديدة وتعز، مطارات صالحة لنزول الطائرات فلا تستعملها إلا طائرات الإمام لأنها محرومة من المؤسسات اللاسلكية التي تفرضها اللوائح الدولية، وصاحب الجلالة لا يرى أية فائدة في إعداد هذه الطائرات بلوازمها، أما في البحر فإن الحديدة تستقبل كل شهرين باخرة مصرية تعمل بين موانئ البحر الأحمر وسفينتين يمنيتين هما « صنعاء » و« مأرب » تصلان الحديدة بعدن، ولكن هذا الاتصال غير منتظم، والطريق المعتادة هي تلك التي تصل عدن بتعز وتقطع في يوم كامل، أما في تعز فإن وسيلة المواصلات اللازمة لمواصلة الرحلة تتوقف على أوامر صاحب الجلالة.

هؤلاء المسافرون الجدد تجار إنكليز في عدن، حصلوا بعد مراجعات كثيرة على تصريح بالقيام ببعض الأعمال في اليمن، وبناء على هذا ذهبوا إلى تعز قبل ثلاثة أسابيع، وما إن وصلوها حتى فوجئوا بخبر مزعج هو أن الإمام قد أجريت له عملية جراحية كانت كافية لشل كل نشاط وكل حركة في البلاد..!

وعجزوا عن الحصول على أي اتفاق أو جواب على مقترحاتهم.

فالإمام إذا توعك فإن أحداً لا يستطيع أن يعمل شيئاً، ضاقوا وسئموا الانتظار وأرادوا أن يعودوا إلى عدن، ولكن حتى هذا لم يعد في استطاعتهم إذ لا يوجد من يصدر لهم الأوامر بالسفر، وأخيراً عثروا على ثلاثة مقاعد في عربة نقل مسافرة إلى الحديدة وقد قضوا ثلاثة أيام حتى وصلوها ومن هناك استأجروا قارباً نقلهم إلى كمران حيث انتظرونا منذ أمس.

إن انتقالهم بالطائرة إلى عدن يعيدهم إلى الحضارة، لقد تركت فيهم هذه المغامرة الطائشة انطباعات كئيبة ومثبطة.. فوضى وإهمال وخداع: كل هذا كان متداولاً ودارجاً. ذكروا أمثلة من ذلك: فمثلاً الطيارون السويديون الذين يقودون طائرات الإمام احتلوا طائرتهم، ومكثوا فيها مضربين حتى يتسلموا مرتبهم للشهر الأخير، وأمام نجاح هذا الإضراب حاول موظف يماني تأخر مرتبه كثيراً أن يتوقف عن العمل، لكنه بقي في بيته حبيساً ومعه أسرته أياماً عديدة دون أن يهتم به أحد!!

وأنا كيف يكون موقفي في بلد كهذا؟ وسأبقى فيه سنة كاملة؟ لم أجد جواباً على

تساؤلي إلا نظرات الإشفاق الصامته، وبكل يقين لابد أن تكون لدي أسباب شخصية تقهرني وتخضعني لكل هذا.

كنت أعرف أن الإمام قد أجريت له عملية جراحية قام بها الدكتور ريبوليه قبل عدة سنوات، ولكنه هذه المرة استدعى جراحاً إيطالياً من أسمره.

وكنت أعلم بالتنافس الشديد بين الأطباء الفرنسيين والإيطاليين ويؤسفني أن الرضا الملكي قد وقع على المعسكر الآخر.. كان هذا الخبر من الأخبار المثبطة التي رواها المسافرون الإنكليز، ولكنني توقفت عن التفكير في هذا عندما تركت الطائرة البحر الأحمر وحلقت فوق الأراضي اليمنية.

منطقة تهامة السهل الساحلي المطل على البحر الأحمر، على طول الجزيرة العربية.. بدت تحتنا سهلاً، أجرد، أصفر اللون، ولكنه في الجنوب أرحم منه في الشمال عند السواحل السعودية، وكثيراً ما يرى الإنسان مناطق زراعية، وهي حقول تختلف عن حقولنا بحدودها غير المستقيمة الخطوط، أما الأشجار والطرق فلا أثر لها وتظهر بعض البيوت المعزولة، بل إن مدينة تبدو من الجو وقد تجمعت بيوتها داخل أسوارها وبانت شوارعها الضيقة المتعرجة، وليست تهامة واسعة، فعرضها من ثلاثين إلى خمسين كيلو متراً تقريباً، ولهذا فقد ألفينا أنفسنا بسرعة فوق جبال اليمن الوسطى.

لم نجد اختلافاً كبيراً، بين هذه الجبال ومرتفعات أسمره وضواحيها في الحبشة على الجانب الآخر للبحر الأحمر، فهي مرتفعات داكنة فيها أشجار فاتحة الألوان، وتقطعها وديان يتبين الإنسان فيها ممرات رملية صفراء حفرتها السيول تسير بين الحقول الزراعية المنتشرة ثم تصبح هذه المرتفعات أكثر وضوحاً، وأمام هذا المنظر الرائع الفتان نسيت كل همومي.

كانت الساعة تتعدى الخامسة، وفي جو هادئ كانت الشمس في غروبها تضيء على المنظر نوراً ذهبياً صافياً، وكانت طائرتنا تسير فوق وديان تحيط بها الجبال وعلى المنحدرات تبدو المدرجات الزراعية الخاصة بجبال جنوب الجزيرة العربية، ففي قمم الجبال مساحات ضيقة أفقية الانحدار، وتحتها مدرجات أكثر اتساعاً، وقد استطعت أن أحصي أكثر من خمسة عشر مدرجاً بعضها فوق بعض تمتد أفقياً في مساحات واسعة، وكانت الألوان متنوعة فهي سمرراء أو خضراء تبعاً لما إذا كانت قد انشئت حديثاً أم قد مضى عليها وقت طويل، وتبعاً لنوع الزراعة وعمرها، إذ إن ذلك كله ليس من عمل الطبيعة بل إنه نتيجة جهود قديمة، وبهذه الطريقة حافظ اليمنيون الجبليون على أراضيهم فوق مرتفعات تهطل عليها أمطار عنيفة، وعرفوا كيف يسقونها بانتظام من الخزانات والقنوات، وإذا تنقل الإنسان في أراضي اليمن في أعماق الوديان فإنه يشهد على الخصوص الحواجز الصخرية لهذه المدرجات ويبدو له المنظر قاحلاً مجدباً.. ولكنني من الجو تمكنت من تقدير المساحة المزروعة، وأدركت سبب إطلاق اسم «اليمن الخضراء» على هذه البلاد.

إن المدرجات الزراعية الخضراء تلتف حول قمم الجبال وذراها كخطوط تحيط بخارطة ضخمة، وتتعلق البيوت هنا وهناك في الجبال منفردة ومجمعة، مكونة قرى صغيرة في أوضاع بهلوانية ويكشف ضوء الغروب المتكسر أدق التفاصيل، ويحدد هذه المعالم العجيبة.. لم أكن أحلم بأعظم وأجمل استقبال من أن أشهد هذا المنظر الرائع للعربية السعيدة، وسأظل أذكر هذا طويلاً.

كانت عدن معروفة عندي لوفرة ما قرأت عنها، وبفضل بطاقة الوظيفة، وعلى نفقة الحكومة اليمنية نزلت في أفخم فنادق المدينة، وقد جاءت لي سيارة من تعز ولكن اقتصاداً أو توفيراً لأبد من الانتظار حتى يأتي مسافر آخر، ولهذا فقد بقيت أكثر من عشرة أيام في هذا القصر الفاخر الذي يكثر فيه الخدم الصامتون، وكان علي أن أقوم ببعض الأعمال وأولها تحية السيد بس « ملك البحر الأحمر ».

إن انطونين بس الذي مات في السنة التالية تاجر فرنسي أقام منذ خمسين عاماً في عدن، وبهيمته وذكائه وحظه ظفر بامبراطورية اقتصادية حقيقية في البحر الأحمر وعلى المحيط الهندي. وأساطير بس يتناقلها الناس في عدن ولا يفرغون منها، وهذه واحدة منها :

في أثناء حرب اندونيسيا قبل سنوات قليلة عرضت في سومطرة فجأة ثمانية آلاف طن سكر للبيع بثمن منخفض جداً.. ولكن تسليم الشحنة يتم في سومطرة، ولم تقبل البواخر نقلها لأن شركات التأمين رفضت قبول تأمين النقل.

ومن هونغ كونغ تلقى بس برقية تعرض عليه مركباً صينياً مشكوكاً فيه ويشترط تسليم الأجر مقدماً. وظل ثلاثة أشهر لا يدرى عن الموضوع شيئاً.

وكان يظن أن السكر قد أخذه اليابانيون أو استحوذت عليه الشياطين، وذات يوم جميل رأوا مركباً قديماً غريباً يدخل الميناء بدون أوراق وبدون دهان، وبحارته مجموعة من القراصنة، مركباً لا يرى الناس له مثيلاً في وقتنا الحاضر.. لقد كان هو المركب الصيني وعليه السكر ! وأفرغت شحنته في المساء ولم ينقض الليل حتى كان قد اختفى.. وحقق بس في هذه الصفقة أرباحاً خيالية.

ويمتد نفوذ مسيو بس إلى اليمن نفسها، فميناء الحديدة غير صالح لاستقبال السفن الكبيرة أو المتوسطة وتجارة اليمن لهذا تأتي عن طريق عدن، ويحتكر بس شراء الجلود والبن وبيع البنزين والحاجيات المصنوعة. ولعل حماية رجل كهذا يكون لها أهميتها إذا حدثت لي مشاكل في اليمن، ويذكر أعضاء البعثة الطبية الفرنسية الأولى مساعدة بس بالتقدير، فقد أنقذهم من وضعهم السيء، ويبدو أن أمور الرجل لا تسير على مايرام في السنوات الأخيرة، فقد قررت اليمن، بتفكيرها في تحسين ميناء الحديدة، أن تلوح برقابة لم يسبق التفكير فيها حتى ذلك الوقت.

وقد قدم بس منذ وقت قصير مائة ألف جنيه منحة لإحدى جامعات إنجلترا، وفي ثلاثة أشهر كان كسبه كما يقول الناس هنا نصف مليون جنيه.. وهو مريض وشديد الصلابة

ويعيش في عزلة تامة ومتعته الوحيدة هي الخروج كل مساء إلى ماوراء المدينة ولعب الكرة في طريق منزو مع صديقه الطبيب العسكري الفرنسي. إنه يقيم في كريتر، المدينة القديمة التي تشويها الشمس، والواقعة في تجويف بركان منطفيء، في بيت كبير، في أسفله المكاتب، أما مقصورته الخاصة ففي الدور العلوي. وعندما دخلت عليه، وجدته مستلقياً في حجرته، وقد بدأ طاعناً في السن تحيط بوجهه المورد لحية قصيرة بيضاء.

وبحنو الأب دعاني للجلوس على حافة سريريه، وسألني أين أنزل، ولما قلت له في أوتيل كريسنت ابتسم وقال : « إنه فندقي ».

عرضت عليه ما أنا مقدمة عليه، وأخبرته أنني قد أحتاج إلى عونيه ومساعدته لكنه كان متشائماً جداً، فقال لي : « لو كنت ابنتي لمنعتك من السفر ولو كنت صديقتي، لتوسلت إليك أن تعدلي عنه، ولكنك لست ابنتي ولا صديقتي، ولهذا فأكتفي بهذه النصيحة البسيطة: لا تسافري . ستندمين إذا فعلت ». لم أكن أصدق أذني، هذه العبارة الصغيرة الموزونة، إني أعرفها جيداً. لقد قرأت مثل هذا الكلام في الكتاب المخطوط للدكتور « ب » أحد أطباء البعثة الفرنسية الأولى التي جاءت قبل ثلاث سنوات لزيارة بس قبل سفرها.

يالها من ذاكرة، إنه يردد لي نفس الكلمات التي قالها للبعثة الأولى : ان اليمينيين ليسوا في نظره إلا مجموعة من اللصوص وقطاع الطرق، واني سألقي بنفسي بين فكي الذئب، ولكنه مع هذا سيهب لنجدتي ولن يدعني وحيدة.. شكرته ولكني لم ازدد إلا تصميماً على الذهاب لرؤية هؤلاء « اللصوص » الذين تجاسروا ورفضوا أن يقدموا محصولهم من البن لمسيو بس !!

استقبلت في عدن استقبالاً حافلاً في بيوت الأوروبيين الجميلة وعلى موائدهم السخية ومآدبهم الدسمة. ولكن اليمن هنا تبدو أقل جاذبية وخيالاً.

أما في باريس فإن صحيفة مسائية كبرى كانت قد نشرت يوم سفري مقالاً جاء فيه : « اكتشافات فرنسي هارب من سجون اليمن، الأجنبي الذي حاول اكتشاف أسرار العصور الأولى في بلاد سبأ يتعرض للموت، عظام رجل طوله متران وثمانون سنتيمتراً، حيوانات منحوتة من الذهب، أسوار مأرب الشامخة وبرج بابل الذي سمي باب المندب باسمه !... ».

كل هذا قد كلف المؤلف كما يبدو مائة طعنة خنجر. ويجب الاعتراف أن الإنسان إذا سافر إلى بلد كهذا أو عاد منه فإنه يصبح شخصاً ما.. أما في عدن فإن اليمن ليست إلا بلداً لا يفسح مجالاً للكسب فهي لهذا غير مهمة.. وهنا في عدن كان «الحزب اليمني التقدمي» الذي قضى أعضاؤه على الإمام يحيى في سنة ١٩٤٨ لأنه شديد المحافظة. لكنهم فشلوا عندما استعاد ابنه أحمد العرش بمعاونة القبائل.. وقد أعدم إمام الثورة، أما رئيس الحركة في عدن فقد قتل بالسم.. ويتمتع الأمير أحمد هنا بنفوذ كبير منذ

زيارته التي قام بها قبل عدة سنوات للحاكم الإنجليزي. ولا ينسى العرب أن عدن كانت خاضعة لحاكم يمني قبل الغزو البريطاني في سنة ١٨٣٩. وقد استقبل الشعب الأمير أحمد كإمام له وكان الناس يتوافدون إلى مقره يطلبون حكمه في خصوماتهم وكان يقضي بينهم ويأمر بجلد المذنبين الذين يقبلون ذلك مختارين. وكان من الطبيعي ألا تطول الزيارة ولكن الاحتمال كان ضعيفاً في أن هذا الإمام الجديد سيفتح مملكته يوماً ما للمؤسسات الصناعية والتجارية الخاصة بمساعدة البلدان المتخلفة. وتلاحظ الأهمية المتزايدة لمكتب اليمن في عدن الذي يديره رجل يحوز ثقة الإمام هو الجبلي .. الذي كان علي أن أقوم بزيارته.. والجبلي شخصية نافعة للأوروبيين في اليمن. فالعملة المحلية هي ريال ماريا تريزا، وهو قطعة ضخمة من الفضة تضرب الآن في دار سك نقود نمساوية تعود إلى القرن الثامن عشر، وتحمل صورة جانبية لوجه الأمبراطورة عاريا العنق. وليس في داخل اليمن أي بنك، وكان بنك الهند الصينية الفرنسي قد حصل على تصريح من صاحب الجلالة بفتح فرع له في الحديدة.

وكان ذلك فشلاً ذريعاً للبنك الأهلي الهندي الذي يتمتع بنفوذ كبير في عدن، ولكن هذا الفرع راح ضحية المكائد والدسائس المعقدة فقفّل أبوابه سريعاً.. والريال لا يصرف إلا في عدن وسعره يتراوح بين ٢٥٠ و ٣٥٠ فرنكاً طبقاً لحجم ومجرى التجارة. وتزن الألف ريال ثمانية وعشرين كيلو جراماً.. وعندما يأتي الجبلي إلى عدن ومعه سيارة محملة بالدراهم للقيام بشراء حاجيات الحكومة اليمنية تنخفض أسعار الفضة في الثلاثة أشهر التالية. والذين يعملون في اليمن يرسلون مايدخرونه من مرتباتهم إلى عدن، وهناك يقوم الجبلي بصرفها في أنسب فرصة، ويضعها في أنسب فرصة، في البنك الهندي .. وبناء على رأي الناس فيما عدا بس، وثقت بالجبلي ثقة مطلقة فهو أمين وتاجر ماهر.

إن مكتبه في كريتر بالقرب من بيت بس .. وعند زيارتي له تذكرت لقائي مع أول يمني .. وكان وزير اليمن في مصر الذي رأيته أثناء مروري بالقاهرة. لقد كان رجلاً مهذباً ذكياً .. استقبلني بشيء من التحفظ .. وكان يرتدي حلة يبدو فيها الثراء والبساطة في آن واحد. فهي من الجوخ الأسود المشبوك يزينها صف من الأزرار الذهبية الأنيقة ولا يشبك أعلاها، وأكمامها عريضة تحتها قميص أبيض يخفي اليدين، أما الحزام فتزينه الآيات القرآنية.

ويثبت فيه خنجر معقوف في غمد من الفضة، وعلى رأسه عمامة بيضاء تلتف حول طاقيه جزؤها الأعلى الظاهر مزخرف كالحزام، وعلى كتفيه شال أزرق اللون زينت أطرافه بخيوط الذهب. وكان الوزير يتكلم بصوت خفيض بسيط هادئ وأصابعه تتلاعب بحبات السبحة .. وكان اسم الله يتردد على لسانه بصورة طبيعية جداً في كل عبارة يقولها، نبل هادئ، ثراء، عقيدة، لو توافر كل هذا لأحد عندنا فإنه سيكون بلا شك واحداً من رجال الكنيسة، أما هنا فلا شيء من ذلك .. إن هذه الشخصية المسلمة

الكبيرة باقية رغم ذلك مع البشر حاضرة على الأرض .. إنه شيء جديد تماماً عندي .
أما مع الجبلي فالمفارقة كبيرة... لقد استقبلني في حجرة مظلمة ضيقة يصل إليها
الإنسان عن طريق ردهة مزدحمة بخزانات الأوراق والمكاتب والآلات الكاتبة .. ويفاجأ
الإنسان بنارجيلة كبيرة في إحدى الزوايا .. كان الجبلي يرتدي جلباباً واسعاً وتغطي
رأسه الحليق طاقة خفيفة بيضاء، أما عندما يرتدي البدلة الأوروبية فإن شيئاً لا يميزه
عن رجل الأعمال الغربي، وكانت نظراته قوية ومدققة.

إنه يعرف كيف يقيم صلات مع الآخرين ويتخذ القرارات بسرعة، وقد تفحصني بدون
رفق. لكنني قد عرفت هذه النظرات، نظرات الرجال الذين يعرفون جيداً أعمالهم والذين
يشكون من حيث المبدأ في أن المرأة قد تستطيع أن تقوم بعمل هام .. والشكوك هنا
أكثر عمقاً إذ أنني الآن أمام رجل مسلم. وقد لاحظ رد فعل كلامه الذي نقله لي المترجم
فأردف قائلاً: «أما في اليمن فإنك ستكونين مطمئنة كل الاطمئنان، لن يلتفت أحد إليك
وعندما تمرين في الشوارع سيدير الرجال أنظارهم إلى الجانب الآخر، أه، ليس الأمر
كما في باريس».

واستمر الحديث بينه وبين المترجم، وكان حاداً ، ولم أكن في حاجة إلى الترجمة حتى
أدرك ما يقولان، إن للباريسيات هنا كما في كل مكان شهرة ذائعة. وقد حذروني أن
اليمن تتطلب استقامة وصرامة في السلوك، لم يبق أمامي إلا أن أحافظ على وقاري
ومقامي .. وأن أقسم وأعاهد نفسي على أن أحصل يوماً ما على نظرة تقدير صادقة
من هذا الرجل وقد حزتها فعلاً.

ولكنني حتى الآن لم أحصل على العقد، لقد انتظرت طويلاً في باريس وتوقعت أن نبرمه
في القاهرة، أو في عدن ولكن الجبلي يتهرب ويرفض أن يتعهد بشيء بحجة أنه لم
يتلق أمراً بذلك.

لو لم ألتق بغير الجبلي من اليمنيين فلعلني كنت أتردد أن ألقى بنفسني في المجهول دون
أي ضمان.. ويفد من الجبال كثير من اليمنيين إلى عدن للعمل والكسب، وسواء أكانوا
أصحاب دكاكين أو خدماً أو عمالاً فإنهم معروفون بالذكاء والنشاط، وبالسذاجة لا سيما
عند وصولهم. ويقدر منهم رجال الأعمال هذه «الروح الطيبة» وهم لا يفكرون إلا في
إرسال ما يكسبونه إلى عائلاتهم، وإذا تقدمت بهم السن عادوا إلى بيوتهم.. كان جميع
الخدم في أوتيل كريستنت من اليمنيين، وذات يوم تبغني عامل المصعد المؤدب،
وأوصلني إلى غرفتي. انفرجت أساريره عندما عرف أنني ذاهبة إلى صنعاء حيث تعيش
زوجته وابنته الصغيرة التي عالجتها الدكتورة لانسوي قبل سنوات قليلة، واستطعت أن
أفهم من عباراته المبهمة امتنانه واعترافه بالجميل. كما أدركت أنه يوصيني بطفلته
أثناء إقامتي في صنعاء.

في اليوم التالي أعطيت عنوان مكتب الجبلي لسائق سيارة الأجرة... تحول عدم اكتراثه
فجأة إلى اهتمام شديد وكانت حماسته أشد عندما قلت له إنني طيبية ذاهبة للعمل في

اليمن... لم يكن قد نسي الدكتور ريبوليه الذي عالجه في الماضي.. وعندما خرجت وجدته في انتظاري خارج بيت الجبلي.. وقد قدم لي خدمة قيمة دون أن يقبل مني بقشيشاً.. كنت كثيراً ما أتناول طعامي في بيت الطبيب صديق بس، وكان طباخه اليمني يرهبه بالاستفسارات عني وعن مهمتي في اليمن. وكان هذا الطباخ يحيطني على المائدة باهتمامه وعنايته. ولا يرفع عني نظراته الودية الصريحة التي لا لوم فيها ولا ذل، وكنت أقرأ فيها «اعمل لي لبلادي كل ما في وسعك».

عامل المصعد، السائق، الطباخ..... إن نظراتهم البسيطة لاتخدع أبداً... لقد كانت حديثاً عاطفياً ولكنه طيب كريم دون شك. وقد جاء في الوقت المناسب مؤيداً للكلمات المشجعة التي سمعتها من الدكتور ريبوليه ومن الدكتورة لانسوي..

إن هؤلاء جميعاً هم الذين أكدوا قراري وتصميمي، ولم أندم مطلقاً ان وضعت ثقتي فيهم.

٢

كان زميلي في السفر قلقاً وهو ينظر إلى سيارة الجيب القديمة التي ستقلنا إلى تعز. ولكن السائق ومساعدته واثقان من سيارتهما، وقد زخرفا غطاءها ووضعها في مقدمتها ريشة النعام الحمراء. ولم يبق أمامنا إلا أن نسير وسوف نصل إلى تعز ليلاً إذا نحن خرجنا من عدن مبكرين.

وكان رفيقي في هذه الرحلة فلسطينياً مسلماً لجأ إلى اليمن أيام حرب فلسطين هو السيد طلعت يعقوب حسين، والسيد طلعت حسين شاب في الثلاثين من عمره، يدير مصلحة الصحافة والاستعلامات لحكومة اليمن .. إنه عائد الآن من رحلة طويلة إلى لندن وباريس ونيويورك مع وفد اليمن في الأمم المتحدة، أما عمله المعتاد في تعز فهو تقديم تقارير عن الصحافة العالمية إلى الإمام، وتحرير الصحيفة اليمنية الأسبوعية «النصر». كان يتكلم الفرنسية وكان حديثه ممتعاً ولكنه حزين كئيب لأنه ترك خطيبته الشابة في القاهرة ولن يتزوجا إلا بعد شهور.. وكان الحديث بيننا زائراً بالأمل والاستسلام.. كل هذا ونحن يقظان ساهران على علبة صغيرة ثمينة كان ينبغي أن تبقى في الظل ففيها مصل بوجومولتر الحقيقي، هدية شخصية من ستالين إلى ملك اليمن عن طريق السفارة الروسية بالقاهرة .. وقد طلب مني زبائني في ما بعد وخاصة الأغنياء منهم، نفس المصل المصنوع في روسيا السوفيتية. كان الناس يبحثون عنه رغم ارتفاع ثمنه الذي وصل إلى ثلاثين جنيهاً للخمس عشرة زجاجة.

وهذه وسيلة غير متوقعة لتغلغل النفوذ السوفيتي في بلاد المسلمين .. إن لها أهميتها لا سيما إذا راعينا حرص المسلمين الذين يصلون إلى سن متقدمة وصحتهم طيبة -

على التمتع لمدة طويلة بشيخوخة قوية بقدر الإمكان.
بعد مغادرة عدن، وقبل الوصول إلى الجبال، تخترق الطريق أرض سهلية صخرية قاحلة.. ان «الشيخ عثمان» وهي حي مجاور لعدن، ليست له أهمية تذكر، غير أن الأوروبيين العزاب الذين يعملون في عدن يعرفونه جيداً.
إن الحياة ليست ممتعة بالنسبة لهم .. فكانوا إذا أحسوا حاجة إلى النساء فإن انكلترا المحتشمة لا تتيح لهم في عدن ما يطلبونه.
لكن الشخص يجد في «الشيخ عثمان» ما يريد في بيوت مجهزة. والمسألة كلها بضعة كيلومترات.

بعد «الشيخ عثمان» تخترق بنا الطريق أرض سلطنة لحج وقد كان لسلطان لحج نفوذ كبير، وكانت عدن خاضعة له حتى ١٨٣٩، وهو الآن تحت حماية الإنجليز الذين تربطه بهم مصالح اقتصادية، إن الرسوم الجمركية على البضائع المنقولة بين اليمن وعدن هي المصدر الرئيسي لدخل السلطان، ولهذا فإن تحسين ميناء الحديدة سيغير طريق التجارة ويقلل دخل السلطان. وتوقفنا في الجمرک لإتمام الإجراءات الضرورية وقد تولّاها زميلي لحسن الحظ، وخلف مكتب موظف الجمرک لصقوا إعلاناً عن الدراجات ومختلف أجزائها ولكنه لم يلاق نجاحاً كما يبدو فلا زالت شوارع المدينة خالية منها.
وتمر الطريق بجوار قصر السلطان الذي تبرز قبابه البيضاء بين أشجار النخيل، لم يكن لدينا الوقت لزيارته، وعلى كل حال كان الدخول عسيراً لأن حياة العائلة مضطربة والسلطان يعتقل في القصر ابن عمه بتهمة محاولة إزاحته عن العرش، وابن العم يتهم السلطان بالجنون ويشاطره في هذا الرأي جمع من مواطنيه، وقد اشتدت المعركة بينهما في العام التالي في شهر ابريل سنة ١٩٥٢م.
ففي إحدى الليالي زادت وساوس السلطان ومخاوفه فاستدعى ابن عمه للمثول أمامه وأمر الحرس بإعدامه ولكن الحراس رفضوا فصوب السلطان الرشاش إليهم وقتلهم جميعاً.

وبعثت بريطانيا في الحال لجنة تحقيق من عشرين شخصاً مسلحين ولكن السلطان لم يكن مجنوناً جنوناً كاملاً فقد انسحب فوراً إلى اليمن وسحب معه جثث قتلاه فلم يصل التحقيق إلى نتيجة لأن موضوع الجريمة لم يكن متوافراً وعادت الأمور إلى مجراها الطبيعي.

ومن لحج لم يكن الطريق مباشراً إلى اليمن إذ كان علينا أن ندور إلى الشرق حول مرتفعات جبلية، وهكذا أصبح المنظر أكثر خشونة والطريق أشد صعوبة، وكانت سيارة الجيب ترفعنا إلى السقف وتهبط بنا، فهل ستحتل السيارة إلى النهاية؟ عند الظهر وصلنا حدود المملكة اليمنية فوقفت بنا السيارة في ساحة الجمرک وتناولنا الغداء.
كان الجمرک ساحة مربعة محاطة بطابق واحد مبني بالصخور الرمادية كلون الجبال المجاورة، وفي جانب منه عربة نقل مصبوغة باللون الأخضر والأصفر والأحمر على

طريقة هذه البلاد، وفي جانب آخر يقوم ميزان الجمرك. إنه مكون من جذعي شجرة، ارتفاع كل منهما متران، ومشقوقان من أعلى ومثبت إليهما عود أفقي يتدلى في وسطه ذراع الميزان، وقد علقت في كل طرف سلسلة تنتهي بكفة تتسع لعجل صغير، كم كنت أتمنى أن أرى هذه الآلة البسيطة القوية وهي تؤدي وظيفتها، ولكنهم قد انتهوا من وزن ما تحمله السيارة.

كان ضابط الجمرك الذي استقبلنا مزهواً بحلته الكاكي وغطاء الرأس المصنوع من فرو استراخان، وكان الجمهور الذي تجمع حولنا خليطاً من الرجال والأطفال في ألوان متعددة، ورغم أن اليمنيين قصار القامة فإنهم وسيمون في الغالب، وهم من الجنس العربي البحت فيما عدا إقليم الحديدة.

إن ملامحهم منتظمة وجميلة ولحاهم قصيرة تكسو الوجه دون أن تغطيه، ومما يلفت إليهم الأنظار أن عيونهم دائماً مخضبة بالكحل وفي طرف كل جفن خط أزرق خفيف يطيل زاوية العين وقد يمتد إلى الخد أو إلى تجويف العين أحياناً، أما عيونهم فسوداء قوية ومسرحية، ولكن هذا ليس مجرد حب الزينة بل المعتقد أن الكحل يقي العيون من الرمذ، ويتعود الإنسان أخيراً أن يرى أكثر الناس وقاراً وهدوءاً في هذا المكياج البربري الغامض.

أما عن ملابسهم فمن الصعب إعطاء فكرة عن تعدد غطاء الرأس في اليمن، فلا صلة له بالخمير السعودي البسيط الذي يعاب عليه أنه يقصر الوجه، ولا بالعمة الهندية، المكورة البيضاء السائدة في عدن، إن العمامة هنا يمكن أن تكون حمراء أو خضراء، زرقاء أو صفراء، بسيطة أو مطبوعة أو مطرزة، مائلة على العين أو على العنق أو على الجانب، يتدلى هدهبها على الكتف أو يثبت بالريش أو الأوراق أو الزهور. ولكنها دائماً ملائمة لحاملها متمشية في ذوق مع اللون والقماش حتى عند الفقراء والمعدمين، وصل إلى الجمرك رجل عجوز هزيل، لم يكن على جسمه غير شال رمادي هزيل لفه حول خصره وآخر حول كتفيه وبحركة بسيطة رفع الشال وغطى به مؤخر رأسه فبدا جميلاً أنيقاً.

والشيء الثابت في الثياب اليمنية والطابع المميز هو «الجنبية» أو الخنجر المعقوف الذي يثبت في حزام من الجلد، ويمكن القول في اليمن بأن الخنجر يعني الرجل، ويكفي أن تلقي نظرة على خصر محدثك لتعرف إذا كان من آل البيت أو كان غنياً وأين ولد. فالسيد الذي يظن أنه من نسل الرسول محمد يضع الخنجر في الجهة اليمنى، أما خناجر الأغنياء فأعمادها من الفضة ومقابضها من قرون الزرافة الشفافة، وتتميز خناجر سكان الجبال عن خناجر أبناء تهامة وسكان الأقاليم الصحراوية الوسطى بالقرباب الخشبي الذي تلتف حوله خيوط جميلة خضراء من جلد الخراف، وتتميز أيضاً بالمقبض المصنوع من قرن البقر المرصع بالنقود النحاسية البيزنطية القديمة، ويضعون إلى جوار الجنبية كل ما قد يخطر على البال.. فكل شيء ممكن.

أما الجنود فإنهم يحتزمون بالمحزق وهو حزام عريض ترص فيه ظروف الطلقات النارية، وهو مرصع بثقوب أو عيون شبيهة بتلك التي في الأحذية، ولكنها ذات ألوان متعددة وأحياناً لا يكون تحت الحزام إلا فوطة تستر الجسم إلى الركبة، وأحياناً قميص بأكمام طويلة تعقد وراء الكتفين.

ويضع الأطفال الصغار على رؤوسهم طاقية أسطوانية الشكل سميكة محشوة تنزل إلى الجبهة، وهي شبيهة إلى حد ما بقبعات الأطفال في ريفنا القديم، ويلبس الأطفال أيضاً جلباباً قصيراً أو سترة أوروبية تقريباً ولكنها بألوان زاهية، مخططة ومرقشة بألوان كثيرة غير متجانسة، ونظراتهم نهمة إلى كل شيء ومحبة للاستطلاع ولكنه أبداً ليست عدائية أو نافرة، على كل حال لم يكن باستطاعتي في هذه الدقائق أن أتفحصهم جيداً. أعدوا لنا حجرة صغيرة تطل نوافذها الضيقة على الجبل، وتناولنا وجبة خفيفة وشربنا ماء عذباً معطراً بالبخور بطريقة عجيبة، واسترحنا على أريكة مغطاة بجلد الخراف، والذباب يحوم حولنا، وبعد هذا كان علينا أن نواصل السفر، وقد عرفت للمرة الأولى «بيت الماء» الذي لا يخلو منه بيت يماني.

وهو دورة مياه ومكان للطهارة فيها حوض للمياه النظيفة ومغرفة.. ذلك لأن الإسلام يفرض الطهارة التامة، وبهذا ينعم المسافر بهذه الراحة التي لا تزال نادرة في ريفنا. وبعد الحدود تصبح المنطقة أكثر وعورة شيئاً فشيئاً، وعلى جوانب الطريق نمر من وقت لآخر ببعض المراكز الصغيرة التي تحرسها الجنود وهي ملاجئ بدائية من أحجار متراكمة بعضها فوق بعض دون أسمنت، ولها فتحة منخفضة جداً، وبجانب المدخل قاعدة هي عبارة عن نصف كنية ونصف مقعد، يتمدد عليها العساكر الذين ينهكهم الوقوف، وكان منظر البنادق المشتتة والنارجيلات العديدة والجنود النائمون والواقفون عجباً مدهشاً، وفوق أحد الأبواب كانت لوحة من خشب تحمل كتابة ترجمها لي رفيقي مبتسماً: إنها ببساطة إعلان عن ساعات الخدمة.

وتوغلنا في بقاع يزداد جمالها شيئاً فشيئاً، ولكن المدرجات الزراعية لا وجود لها في هذا الجزء من البلاد، فهي في الأقاليم المرتفعة الشرقية، وكنا نصعد في واد تحيط به المنحدرات الصخرية العالية والخضرة نادرة إلا في قاع الوادي، ذلك لأننا في موسم الحرث، إن للصخور ألواناً أخاذة، فتحت السماء الزرقاء كانت تبدو كتلاً مدببة مسننة، ذات خضرة باهتة وقد خططت بعروق بنفسجية في لون أخضر، وتحتها أشجار صغيره خضراء ورمال السيول الصفراء الفاتحة.

جمال وتنوع في مناظر الصخور، لقد بدأت أدرك ذلك.

بدأت أفهم إنسان «كلوديل» الذي سئم العلف والخضرة وكان سعيداً أن يرحل إلى عالم مجذب مقفر قاحل، وفي هذه المسافة لم نر إلا قليلاً من السكان، وكنا نلمح على بعد بضعة كيلومترات من طريقنا قرى معلقة في قمم الآكام الصخرية، وبيوتها العالية المتلاصقة التي يسند بعضها بعضاً.

وبعد هذا عرفت أن هذا الوضع لا تدعو إليه الضرورات الدفاعية فقط، بل إن الجبليين يقيمون قراهم على مرتفعات صخرية ناتئة لأنه من التبذير والإسراف تشييد القرى في الأراضي المستوية الخصبة التي يجب توفيرها للزراعة، كما أن صحة سكان المناطق العالية أفضل بكثير من صحة سكان الوديان والسهول.

لم نكن نلقي إلا عدداً قليلاً من الناس، ومرة شاهدنا شيخاً طاعناً في السن كأنه خارج من أحد الأسفار القديمة المقدسة، إنه يقود قطعاً من الماعز والأغنام السوداء، العصا في وضع أفقي على كتفيه وقد تدلت منها ذراعاه في تراخ، إنه وضع عادي في اليمن، فالجنود يحملون بنادقهم على هذه الطريقة. هذا الشيخ لم يشرفنا بأقل نظرة أو التفاتة.

والتقينا براعي بقر صغير كأنه القديس يوحنا المعمدان، كان يسوق أبقاره إلى الوادي ليسقيها، وكانت أبقاراً جميلة جداً رمادية ومرقطة ولها سنم.

وكان هذا القديس يوحنا يمسك في يده زهرة خضراء غريبة كالسنبله تفوح منها رائحة زكية، وعندما ناداه صاحبي تقدم مني وقدم لي زهرته وهو يبتسم، وقد ظلت تفوح عطراً أياماً كثيرة، بعد هذا التقينا بقافلة مؤلفة من نحو خمسين بعيراً محملة بالأكياس والركائب، أن الجمال هي وسيلة المواصلات المضمونة، وهي أنسب من السيارات بكل تأكيد في هذه الطرق، كان يسوقها شاب لا يضع على كتفيه العاريتين إلا صديرية أوربية ولكنه مر من أمامنا ورمقنا بأقصى وأغرب نظرة التقيت بها في حياتي. كنا نلمح أمامنا وسط الوادي بناء صغيراً ناصع البياض مشيداً فوق رابية، قال رفيقي إنه ضريح قديم أقامه الجبليون تكريماً لولي مبجل جلب لقبيلته الثراء مما كان يسلبه من المسافرين بهذا الوادي، فقد كان هذا الولي الراقد في هذا الضريح شجاعاً نشيطاً حكيماً إلى درجة جعلته يتمتع إلى الآن بإخلاص مواطنيه وولائهم.

توجهنا إلى الضريح نستريح قليلاً في ظلاله. ولكن هذه الأضرحة العربية التي تبدو من بعد مزخرفة يجدها من يقترب منها بسيطة جداً بل وغير متقنة البناء.

ومع ذلك لن أنسى هذه الوقفة ما حييت إذ شعرت للمرة الأولى إنني بعدت عن كل شيء، قد يجد الإنسان بقاعاً متوحشة مهجورة في جبالنا كهذه البقاع، لكن شيئاً مثيراً هنا هو السكون.

السكون الذي يبدو مختلفاً والذي ينعكس منه كل ما يمكن أن يغيب عن البال. ففي أوربا حيث الطرق المعبدة الصقيلة اللامعة موجودة في كل مكان: يعرف المرء ذلك ويشعر به، وإذا لم تكن شبكة الخطوط التي تكتم أنفاس البعض، وتسكن روع الآخرين تحت عجلات عربتك فإنها على أية حال ليست بعيدة عنك.

لكن بعد هذا اليوم القلق، وبعد هذه الهزات العنيفة، فأنا على يقين بأنني قد خلفت كل شيء ورائي.

هل هي السماء تنتقم من خصب الأرض؟
إننا لم نكد نمضي دقائق قليلة في طريقنا حتى وقعت سيارتنا على إحدى عجلاتها الخلفية محدثةً أنيناً محزناً.

وأخذ السائق ومساعدته في إصلاح العطب بهمة ونشاط .. وماهي إلا برهة حتى وصلت السيارة « الدودج » الجميلة ذات الألوان المتعددة وتخطتنا ثم وقفت، فمن فيها لا يريدون أن يفوتهم التفرج على منظرنا الذي لا يتكرر كثيراً في طرق اليمن ، وجاء الليل وتعدّر على السيارة « الدودج » مواصلة السفر في الظلام فمصاييحها معطلة.. وقد نزل منها خمسة عشر رجلاً لإعداد الشاي وأماكنهم التي سيقضون فيها الليل، ولم يدم الغروب كثيراً في هذه المنطقة الاستوائية.

فحل الظلام وقال لنا السائقون إنهم قد عجزوا عن إصلاح العطب.
كم كنت أتوق إلى قضاء الليل في الخلاء، إذا لم يكن ذلك لأعرض على رفاقي فراشي الذي ينتفخ بالهواء، فعلى الأقل حتى أكمل المرحلة الأخيرة عند شروق الشمس، فلم يعد بيننا وبين تعز سوى اثني عشر كيلو متراً.. ولكنني رفيقي أصم أذنيه وكانت صفته الرسمية كافية لأن تقوم بنا سيارة النقل رغم أن مصاييحها معطلة، ورغم أن في هذا مخالفة لأوامر الحكومة.

لم نكن نرى الطريق إلا بمشقة وعسر، وقد كانت تزداد ضيقاً ووعورة وتعرضاً للخطر، فالانحدار أصبح شديداً، إن تعز على ارتفاع ١٢٠٠ متر وحتى الآن لم نكن قد صعدنا شيئاً تقريباً، لقد كانت الطريق كثيرة المنحنيات وكانت الهاوية في جانب والجبل في جانب آخر، وكانت سيارتنا تقوم بمناورات عديدة حتى تسير في هذا الطريق الضيق الملتوي بدون مصاييح وبدون «صدام» وقد أدركت مهمة معاون السائق.. ففي كل مرة تتوقف فيها السيارة يقفز منها ستة أو سبعة رجال إلى الأرض حالاً ويأخذون أحجاراً يسندون بها عجلات السيارة حتى يمكن أن تدور، وما أن نجتاز هذه العقبة الكؤود حتى يتعلقوا بها.. ويظلون هكذا على استعداد للقفز عند أول إشارة.

كان السائق اليمني يقود سيارته بهدوء وحكمة ومهارة مرموقة، وكان خده الأيسر مشوهاً بمضغة كبيرة من أوراق القات، هذه الأوراق الفلسفية التي سنتحدث عنها فيما بعد.

كان يدعو الله القدير ولكن بلهجة تختلف اختلافاً تاماً عن لهجة السائق الباريسي الذي يقع في ظروف مشابهة، ومع ذلك، ورغم العناية الإلهية فقد تعطلت بنا السيارة مرة أخرى وكان العطب هذه المرة في الكربوراتور « جهاز خلط الهواء والبنزين » وكان وضعنا مزعجاً. فقد نقضي الليل مخيمين في طريق ضيقة في جوف واد تهب عليه الرياح الباردة، ولكن لحسن الحظ أنقذ الموقف مصباحي الكهربائي فقد استفدنا به في إصلاح الخلل ومواصلة السفر بعد ساعة.

قضينا خمس ساعات في قطع هذه الكيلومترات الأخيرة.

ووصلنا إلى ضواحي تعز ووقفنا أولاً عند نقطة الحرس التي تتحكم في طريق « صالة » والقصر الملكي المنعزل في الجبل بعيداً عن المدينة، ثم وقفنا للمرة الثانية بالقرب من المدينة، وكانت تنتظرنا هذه المرة مفاجأة مزعجة، فقد كان المرور في هذه النقطة ممنوعاً في أثناء الليل. لقد كان المرور ممكناً لو كنا في سيارتنا الصغيرة أما ونحن في عربة نقل البضائع فلا يمكن دخول المدينة قبل الفراغ من إجراءات الضرائب ودفعها، ولكن أحداً لا يوجد في الليل للتحصيل، فلا بد إذن من الانتظار حتى الصباح. كان هذا كثيراً على رفيقي هذه المرة فلم يحتمل.

ولابد أن الصبر اليمني قد ضاع منه بعد رحلته الطويلة في الخارج. فكان يطالب المسؤولين بالحاح أن يرسلوا لنا سيارة صغيرة تنقلنا إلى دار الضيافة التي تبعد عن المدينة مسافة كيلومترين.

وبعد انتظار ساعتين كاملتين قالوا إنهم لم يجدوا سيارة جاهزة وإنهم استثناء يسمحون لسيارة النقل أن توصلنا إلى دار الضيافة.

أمضيت هاتين الساعتين في مركز الجمر كالبارد المظلم القذر.. كانت بجوار الجدران مصطبة مرتفعة وضعوا عليها الفرش والغطاءات والوسائد وهي التي ينام عليها عساكر الحراسة في الليل. كانوا قد دعونا للجلوس بينما التف خمسة عشر جندياً حول موقد يتدفأون ويتفرسون فينا.

أما أنا فقد كنت أنظر إلى باقة من الزهور في إناء قديم موضوع على الطاولة حين نهض واحد من الجنود فجأة.

كان اسمر، وكان اللون الأزرق يغطي جفونه وجزءاً من وجهه، وكان صدره مغطى بطلقات الرصاص، والخناجر تتدلى من حزامه.

نهض ووضع ثلاثة أعواد بخور وقربها من أنفي دون أن ينبس بكلمة.

جندي مخيف، وأعواد بخور، لقد كان هذا كافياً لينسيني تعب السفر.

وكنت ما أزال أفكر في هذا بصورة غامضة وأنا مستلقية على سريرى بعد ساعتين حين سمعت أغنية ذات جمال غريب اختلطت بأول إغفاءة.. إن دار الضيافة تقع بجوار مقر الحكومة وفي هذا القصر نحو عشرين عسكرياً ينشدون الزامل، النشيد الحربي الخاص بالعائلة الملكية، وهو أصوات عجيبة تخرج من الحلق عالية جداً شبيهة بأصوات الأطفال ويتقنها الجنود بطول المران. إن كلمات هذا الغناء الرتيب غير واضحة، ولكن المعنى بصفة عامة كما شرحوه فيما بعد : « نحن عساكر الحكومة أقوى من كل الفلاحين وأشد منهم بأساً ».

وهذا بلا شك مجرد ترجمة ساذجة من جندي بسيط. والزامل قديم وأصله غير معروف وهو كما يبدو شبيهه بأناشيد الحرب المغولية. ولم يفسر أحد سر هذا التشابه العجيب.

بهذا الزامل كان العساكر في تعز يبدون إخلاصهم للملك بعد الصلاة التي تسبق شروق الشمس فيعطو هذا النشيد في المدينة الصغيرة النائمة ويكون كنيباً مرعباً في الظلام.

كنت أشعر بالأسف والندم إذا لم أصح لسماعه في الصباح، فلكي يفهم المرء بلداً لا بد من التوغل في الوسط وجمع التفاصيل التي يستخلص منها الملامح العامة. وكثيراً ما يشعر الإنسان أنه لا يزال في السطح، ولكنه في لحظات نادرة، يجد نفسه فجأة وقد توصل إلى الأعماق، وقد اتضح له كل شيء.

وكان الزامل الليلي للحرس الملكي واحداً من هذه الأشياء.

صباح اليمن مشرق على الدوام.. وفي عام ونصف لم يكن لي أن أشهد إلا صباحاً رمادياً واحداً.. ولكن السماء الزرقاء مرقطة دائماً بسحب بيضاء تنفذ منها أضواء متنوعة.. وتعز فتنة ونعيم بعد جحيم عدن. يرى الأجنبي أجمل مناظرها من دار الضيافة، فالبيوت منتشرة فوق بعض في سفح جبل صبر ومنحدراته، ويبرز المسجد الرئيسي وقبته ومناراته من بينها كتلة بيضاء. والطقس هنا على ارتفاع ١٢٠٠ متر بارد خفيف رغم وهج الشمس، ولا يسمع المرء في هذا السكون الخالي من كل حركة ميكانيكية إلا شدة العصفير وغناء الطيور.

دخل عليّ لطف بعمته وعينيهِ السوداءين الواسعتين وخنجره، وقد وضع عقب السيجارة في جانب فمه. ظل واقفاً إلى طرف السرير مصراً على أن يعلمني أن أتلفظ: «صباح الخير»، ولم يتركني إلا وقد نطقت حرف الخاء بطريقة مرضية.. كان لطف هو الذي يقدم لي فطوري.

وذهبت في الساعة التاسعة أقدم نفسي إلى كبير الأطباء- قلت الساعة التاسعة وكان ينبغي أن أقول الثالثة.. فالتوقيت في اليمن غيره عندنا.

فساعات النهار الاثنتي عشرة تبدأ في الشروق أي حوالي السادسة صباحاً. وساعات الليل تبدأ عند غروب الشمس.. ليس التوقيت وحده هكذا بل والتقويم كذلك. فالزمن في اليمن له جنسيات ثلاث: التوقيت الغربي وهو الذي أورخ به رسائلي إلى فرنسا.. والتقويم العربي وهو الذي يبدأ بالهجرة.. وأخيراً شهور تركية وهي أثر للاحتلال العثماني.. ورغم أن تركيا نفسها قد تخلت عنها منذ زمن طويل فإن اليمنيين مازالوا يستعملونها دون أن يستطيع أحد هنا أن يعطي تفسيراً واضحاً لهذا. ولكن الحكومة هي وحدها التي تستعملها. وتقول السنة السوء أن الحكومة تحقق توفيراً خفياً في مرتبات موظفيها من هذا اللبس والغموض الذي تحيط به تقويمها.

كم كانت دهشتي عندما وجدت الدكتور ريبوليه في تعز. لقد انتهت إجازته وعاد من فرنسا منذ أربعة أشهر، وكنت أعتقد أنه قد وصل مقر عمله في صنعاء. انه طويل مرح هادئ خفيف الحركات ويبدو أصغر بكثير من سنه الستين. وكانت مساعدته الأنسة هرمان مثلة طيبة ومطمئنة وقد وصلت حقائبهما إلا أن صاحب الجلالة استبقاهما في تعز لاحتياجه إليهما.. ولما شفي مرضي القصر الملكي سمح للدكتور ريبوليه بالسفر إلى صنعاء، ولكنه ماكاد يصل المطار حتى أخطروه أن مزارعاً قد وصل المستشفى وبه جروح خطيرة، ورغم رغبته الشديدة في الانتقال إلى مقر عمله

في صنعاء حيث الطقس الصحي الذي يفضلُه والبيت المريح الذي ينتظره فقد بقي الدكتور ريبوليه فلم يسمح له بعد ذلك بالسفر إلى صنعاء. وقد سرت إليه عدوى مرض راح ضحيته بعد ثلاثة شهور.. أخبرني الدكتور ريبوليه أنني سأستقل الطائرة القادمة إلى صنعاء.. ولكنه لن يكون معي.. وكان هذا الخبر مذهلاً مزعجاً، فلم أكن أتصور أنني أستطيع الإقامة في بلد كهذا دون نصائحه المستمرة إلا أنني لم أكن أملك أي عذر مقبول أو ذريعة معقولة للتخلص من هذا التكليف.

وكان على القادم إلى اليمن فيما مضى ألا يتجول في المدينة إلا بعد أن يستقبله الإمام.. ولكن الاحتمال ضعيف في أن يتفضل جلالته ويستقبل امرأة بسيطة مثلي.. على كل حال فقد بقي من هذه العادات أن الواصل يستقبل زواره من الأعيان في دار الضيافة بدلاً من السعي إليهم في بيوتهم، وهكذا كان علي أن أمضي أيامي الأولى في المحادثات، وكثر المخبرون مثل كل مرة يصل فيها قادم جديد، وقد قدم إلي طلعت حسين زميليه الشابين: سامي عزالدين مدير الشؤون الخارجية، ونعمت الحاج مدير البريد، وفيهما لطف وذكاء ويجيدان اللغة الفرنسية.

نصحوني أن أكتب رسالة إلى صاحب الجلالة أقدم له فيها احتراماتي بمناسبة الوصول.. وطلبت زيادة على هذا، التصريح لي، بالمواطبة في المستشفى أثناء انتظار السفر. وكم كان ممتعاً أن أخطب ملكاً بأسلوب القرون الوسطى.. ويجب ألا أنسى أن الملك يؤشر بنفسه بالقرار الذي يتخذه في كل عريضة، ولما كان من غير المتصور أن تكون كتابته الرفيعة تحت كتابة رعاياه فلا بد أن يبدأ المرء الكتابة من منتصف الصفحة تاركاً أعلاها لجواب صاحب الجلالة.

وفي أيام الانتظار هذه تعرفت بدار الضيافة، ففي الدور الأرضي حجرة للحراس، ومكتب للمدير وبعض الموظفين، وفي الدور الأول مقصورة فيها ثماني غرف مخصصة للأجانب وفي الجانب الآخر حجرات مؤتة على الطريقة العربية وهي مخصصة لليمنيين، ولم يكن من المناسب جعل قاعة الحمام الوحيدة في هذا الجانب فقد كانت العيون الزائغة تحف بالطريق إليه.. إذ كان في دار الضيافة قرابة ثلاثين يميناً ضيوفاً على الإمام، وهم من أعيان الأقاليم والموظفين المنقولين والتجار الأغنياء. بل إن بعض المعتقلين السياسيين يمضون هنا فترة بعد خروجهم من السجن.. فالسلبية والجمود وعدم الحركة.. كل هذا يجعلهم أهلاً للثقة.. ولا يقوم أحد هنا بأي عمل طوال النهار.. فإذا استطاع من أطلق سراحهم أن يمضوا هنا هذه الفترة دون أن يبثوا مافي صدورهم من مرارة وأسى للجواسيس الكثيرين فإنه يسمح لهم بالتجول ولاخطر منهم بعد ذلك.

أما الأجانب فقد كانوا عشرة فنيين: ثلاثة من إيطاليا للكهرباء والأشغال العامة وأجهزة التليفون الخمسين الموجود في تعز والتي لم يوزع منها إلا خمسة عشر جهازاً، وبجانبهم مدرسون من سوريا، ومهندس معماري من لبنان، وأخيراً البوليس السري

أو«الخروف» كما يسميه البوليس الفرنسي. وكان الخروف هنا يميناً يتكلم عدة لغات ويظهر عند وصول أي أجنبي. ويشاطر الأجنبي غرفته التي ينزل بها، ويمضي الوقت يتضح تصنيفه في اللائحة الحيوانية لكل ذي عيين. وقد كان رغم كل شيء لطيفاً جداً وغير مؤذ البتة.

كانت وجبات الطعام طيبة والغرف مريحة ونظيفة.. كل هذا مجاناً وبدون مقابل. فلم تكن الحياة في دار الضيافة تخلو من المغريات ولكن الإنسان مع ذلك يشكو من الملل، والحق إنني لم أر أحداً يعمل سوى الدكتور ريبوليه الذي كان يعمل في الصباح وبعد الظهر، ولم يبد عليه أن يشكو الحرمان من وسائل التسلية..وفي خارج دار الضيافة استقبلني زميلي الإيطالي الدكتور مروشي بمنتهى اللطف، وكان يسكن مع الدكتور توفكون، الذي كان غائباً حينئذ، في منزل كبير خصص الدور الأرضي منه للمرضى الفقراء، وفي منزله تعرفت باثنين من الطيارين السويديين الذين يقودون طائرات الإمام والذين يثق فيهم ويطمئن إليهم. والطيارون السويديون لايهتمون إلا بتسجيل ساعات طيرانهم في عدن حتى يصلوا إلى الرقم المطلوب ليصبحوا طيارين في الخطوط الجوية المنتظمة.

التقيت أيضاً بمحام ألماني قديم ونازي عنيد، تغطي وجهه آثار الجدري وقد جاء يقدم للإمام مشروعاً عاماً لإصلاح المالية في المملكة. أقام هنا بضعة أشهر على نفقة الحكومة ثم سافر إلى عدن على حساب الإمام بعد نفحه بهدية صغيرة. وعلى هذا النحو تشهد اليمن من وقت لآخر مرور كثير من الأجانب ذوي الاختصاصات العجيبة.

أما دنسكر كبير مهندسي الحكومة اليمنية منذ ثلاثين عاماً فإنه في وضع ثابت وهو يحمل دبلوم إحدى جامعات البلطيق الكبرى والأقاصيص التي تروى عنه تكاد لاتحصى.. ويحبه الإمام لأن الله قد باركه، فعندما انفجر المدفع الذي أطلقه لم يقتل سوى ثلاثة من الجنود، وعندما تحطمت رافعته لم يصب أحد بأذى، ولكن شهرته قد ذاعت لأنه الرجل الوحيد الذي يملك طائرة كاملة في حديقته..فقد حدث عندما تدهور وضع ألمانيا في مصر أثناء الحرب الثانية أن هربت إحدى الطائرات إلى اليمن ونزلت في صنعاء. وكان الطيارون يأملون أن يبيعوا طائرتهم إلى الإمام، ولكن الإمام كان هو الذي يريد أن يبيعهم البنزين حتى يغادروا بلاده. ولما لم يصلوا إلى اتفاق اقترضوا من دنسكر المال اللازم للسفر وتركوا طائرتهم رهناً.

ولاداعي للقول بأنهم لم يعودوا للبحث عنها. وقد وضعها دنسكر في حديقته، وعندما يبدي أحد دهشته من اقتنائه لطائرة لايعرف قيادتها.. يجيب أنهم قد تركوا له«طريقة تشغيلها» ولكنه لحسن الحظ قد اكتفى بإقامة بار في حجرتها يستقبل فيه مدعويه، وهو باعها قطعة قطعة..تري ماذا يمكن أن يكون موضوع الحديث في هذا المجتمع الصغير؟ ان الإنسان في اليمن لايكاد يشعر بوجود العالم الخارجي. وهذا البلد يعتبر شاطئ الأمان الذي تستطيع أن تتخذه ملجأ عند نشوب الحرب العالمية القادمة. ولكن

أراضي اليمن العالية الغنية التي تحرسها الحواجز الطبيعية، والتي يحتمل وجود البترول بجوارها وهي تقع على أبعاد متساوية من أوروبا وآسيا وإفريقيا.. مثل هذه الأرض لا يشك أحد في أهميتها، لهذا فالأسباب كلها متوافرة ويالأسف لأن تفقد هذا الهدوء يوماً ما./ ويتساءل الناس هنا أولاً عن صحة الإمام وعن مزاجه في آخر جلساته، وهل الوقت مناسب لمراجعته في أمر من الأمور، ولماذا لا يريد الذهاب إلى صنعاء، وهل يعود إليها يوماً من الأيام، وهل لا يزال الجبلي مقرباً إليه يتمتع بالرضا، ثم من يخلف الإمام إذا مات: فاهتمام الناس إذن مركز على شخص الإمام، والإمام أحمد الآن في الستين من عمره، وهو متوسط القامة، ضخم الجثة، لحيته رمادية اللون يصبغها باللون الأسود وله عينان تؤثران في كل من يقابله. وكان في عهد والده مكلفاً بالدفاع العسكري عن المملكة وحكم لواء تعز، وله خبرة وحكمة بالإدارة إلى جانب كونه جندياً متحمساً.

وقد جعلت منه شجاعته وعلومه الدينية خليفة لأبيه دون منازعة أحد من أخوته.. والناس يطلقون عليه اسم «أحمد ياجناه» ويؤمنون بأن له مواهب خارقة. فقد كان في خدمتي طبّاح قضى أيام طفولته في قصر الإمام، أكد لي هذا الطبّاح أنه رأى الإمام يلقي على الأرض بحزمة حطب فتحوّلت أمام عينيه إلى ثعابين وتفرقت، وراه مرة ثانية يختلي ليلاً في غرفة ويطفئ الأنوار ويجمع الجن ويصدر إليها أوامره، وكانت الأصوات تتعالى من حوله.. ويقال أنه بهذه الطريقة علم بوجود كنز تحرسه قوة شيطانية في بئر، فنزل وهزم «الشيطان» بعد صراع رهيب أبيضت له لحيته كلها وسحب النقود وهو اليوم يصرفها في إصلاح ميناء الحديدة!!

وهذه كلها أساطير، إلا أن مساعديه مع ذلك يكونون له الإعجاب الخالص، ولا شك أنه ينفذ أحياناً إلى أعماق الذين يحيطون به. فقد كان المفروض أن يقتل في نفس الوقت الذي اغتيل فيه والده. ولكنه ما إن رأى الرجل المكلف بقتله حتى رمقه بنظرة قوية وقال له: «انني أعرف ماذا جئت تعمل» فانهار الرجل وتهاوى على قدميه يطلب العفو: وقد كان هذا هو سر فشل الانقلاب.. وأحاديث الإمام التي لا تخلو من الاستشهاد محببة إلى الأدباء وهو يهتم أيضاً بتقديم العلم الحديث، ويستدعي أطباءه أحياناً ويقضي معهم جلسات يناقش فيها وظائف الأعضاء، كما أن المهندسين يشرحون له القوانين الطبيعية، ويستطيع هذا الرجل الذي يجهل أبسط القواعد العلمية الأولية أن يتابع الشرح ببساطة. والإمام Cyclothimique في نظر أطبائه، ونحن نعني بهذا تحكم النوبات الصوفية الغامضة الدورية التي يفارق فيها هذا العالم ويظل غارقاً في الصيام والصلاة، وخلال هذه الفترات التي قد تطول أسبوعاً وأسبوعين لا يرجى منه أي شيء.. مهما حدث: فقد غاب ولا يستطيع أحد أن يصل إليه.. ويقيم الإمام في ضاحية صالة، في قصر حصين شيده على بعد كيلومترات من تعز، في واد مناظره خلابة رائعة. بنى هذا القصر شخص يدعى «الروضي» وهو ممرض قديم عرف بالذكاء فأرسل إلى جيبوتي

لاستكمال تعليمه ولكن الروضي أخذ بالعمارة وفنها فعاد من جيبوتي مهندساً معمارياً، ولايخلو هذا البناء الضخم من العظمة.

يقضي الإمام في هذا القصر حياته العائلية البسيطة مع اثنتين من زوجاته الأربع. أما الثالثة فإنها في صنعاء وقد أصبحت صديقتي فيما بعد، وسأحدث عنها في مناسبات قادمة، والزوجة الرابعة والأخيرة أمة أنجبت له طفلين وهي مقيمة في تعز في قصر مستقل قريب من مقر الحكومة. وإحدى زوجتيه السابقتين من أم إنكليزية والأخرى بدوية من أسرة كبيرة، وهي في العقد الرابع ولكنه مازالت جميلة جداً رشيقة وناعمة وتفيض جاذبية وسحراً، والمعروف أنها أحب الزوجات إلى الإمام منذ أكثر من عشرين عاماً. والعادة أن الإمام لا يطلق، ولكن الإمام أحمد قد طلق عدة مرات قبل اعتلائه العرش واحدى مطلقاته هي أم ابنه الأكبر، وتقيم في القصر في حجرات مستقلة.

وللإمام أبناء أربعة منهم فتاة في سن العشرين وولد في الخامسة والعشرين هو سيف الإمام البدر ولي العهد الذي يفضل الإقامة في الحديدة لأن الحياة في القصر ليست مريحة، والفنون لاوجود لها، والآلات الموسيقية محرمة «كالنجاسات المغلظة» وصوت الإنسان وحده هو الذي يمكن الاستماع إليه، وللإمام مطرب في سن العاشرة وهبته الطبيعة صوتاً جميلاً، وقد حصلت له على تسجيل قدمته لمتحف الإنسان في باريس.

كان للإمام أيضاً مهرج يعرف كيف يضحك ويدخل السرور على قلبه، وذات يوم والحاشية حول الإمام خطرت لهم فكرة وهي أن ينقعوا هذا المهرج الظريف في بئر.. فكانوا يغطسونه ويرفعونه وهو يتصنع الذعر والخوف..

وكان ممثلاً بارعاً فلا يدرك المرء متى تكون استغاثاته غير مصطنعة.. وظلوا به هكذا يدخلونه في الماء ويرفعونه حتى ارتفع الحبل وليس في طرفه إلا قطعة صغيرة لاحتراك لها ولاصراخ.. لقد انتهت إلى الأبد!.. لم يعد في مقدورها أن تضحك أحداً حتى ولو كان الإمام.. ويسلي الإمام أحمد نفسه الآن باللعب بالقطار الكهربائي الصغير.. وإذا استدعي المهندس إلى تعز فما ذلك إلا لتنظيم مواصلات قطار صاحب الجلالة الكهربائي الصغير.. وهذا المهندس قد أصبح صديقي فيما بعد.

وحياة الإمام الرسمية لاتنفصل عن حياته الخاصة، فهو لا يذهب إلى مقر الحكومة في تعز إلا لاستقبال رسمي، أما مقابلاته العادية فإنها تتم في قصر صالة، ويظل الملك جالساً على الطريقة التركية حتى يستطيع القادم أن يقبل باطن قدميه إن كان من طبقة متواضعة، وتعدّد الجلسات هنا كل يوم تقريباً وهي في الغالب في المساء، فهناك قول عربي مأثور بأن «الليل نهار الأريب».

والمجالس جافة، فهم لا يدخلون تنباكاً ولا يعضغون قاتاً، ولا يتكلم أحد إلا إذا وجه إليه الإمام الحديث، أما أطفال القصر فإنهم يتمتعون بكامل الحرية، فلهم أن يدخلوا حجرة الملك الذي يحبهم لدرجة العبادة والذي يتركهم يعملون ما يحلو لهم، وقد رأى أحد الخدم يوماً ابنه وهو جالس في أحضان الملك يوشك أن يشد له لحيته.. ولكن أحداً

لايجرو في حضور الملك على أن ينبس ببنت شفة حتى ولاعلى تعنيف طفل صغير..يتألف المجلس من نحو خمسة عشر شخصاً يجلسون القرفصاء ويجلس إلى جوار الملك كبير وزرائه الذي يفتح الرسائل ويقدمها له، ومن مبتكرات هذه الحكومة إرسال الشكاوى والعرائض تلغرافياً إلى الإمام.. فمن أراد أن يتفادى تواني الموظفين فعليه أن يعرض حالته على الملك فيرسل برقية تكلفه بضعة ريالات ويدفع زيادة على تكاليف البرقية تكاليف جواب الإمام أيضاً الوسيلة يتأكد أن الإمام سيعرف موضوعه.. وإذا كان الجواب بالموافقة فإن الإمام يؤشر عليها ويلقيها موقعة بخاتمه الأحمر إلى المسؤول عن تنفيذها.. أما إن كان الجواب سلباً فإنه يرميها إلى الأرض باستخفاف.. وإذا كان المرسل أهلاً للتقدير فإنهم يردون عليه بأن الإمام لايزال«ينظر فيما يحسن» ويتم كل هذا مع الاستشهاد بآيات القرآن المناسبة.. ويستطيع الإمام أن يفحص مائتي رسالة برقية في جلسة واحدة.. وهذه الرسائل البرقية مورد هام من موارد الخزانة.. ماهي الموضوعات التي تعرض على هذا النحو على الإمام..كلها.. كلها على الإطلاق.. من أهم المسائل وأخطرها إلى أقلها شأنًا وأتفهمها ويقضي فيها الإمام نهائياً دون استئناف.. إن الإمام شخصياً هو يقرر إذا كان معلم في أحد الأقاليم النائية البعيدة بحاجة إلى عشر محابر.. وقد ذكرت هذا المثال بالذات لأنه قيل لي من أحد مستشاري الإمام وهو خارج من المجلس.. إن الإنسان يصاب بالذهول حين يعلم أن رئيس دولة يتدخل في هذه التوافه!.

فكيف يقبل رجل ذكي أن يحشر نفسه في كل شيء.. هكذا؟ هل يريد أن يتفادى الإسراف؟ على أي حال.. إنه أمر مفزع.. وقد سألت كثيرين عن الأمر وأحسن جواب سمعته هو هذا.. كان أجداد هذا الإمام يحكمون هكذا.. فإذا لم يحكم مثلهم وعلى طريقته فإنه يشعر أنه سيكون أقل منهم شأنًا ومقاماً!!

ولماذا لا يريد الإمام أن يقيم في صنعاء؟ وهذا سؤال يشغل بال اليمنيين فصنعاء هي العاصمة الطبيعية لليمن.. فهي مدينة أهم عشر مرات من مدينة تعز، وهي تقع في قلب المرتفعات الوسطى للبلاد، وكان يقيم فيها الإمام العجوز ولا يزال أخوة الإمام يعيشون فيها وهم جمعياً وزراء ويلقب كل منهم بلقب سيف الإسلام وهم: الحسن رئيس الوزراء، ونائب الإمام في صنعاء، القاسم وزير المواصلات، إسماعيل وزير الصحة، علي وزير المعارف، عبد الله وزير الخارجية، والعباس وهو المختص بشؤون القبائل.. وهم فيما عدا الحسن لا يتمتعون بأي سلطة فعالة.

ويستفيد الإمام من هذا.. فعندما يصل سفير أجنبي ويتقدم بطلبات لا يرضاها الإمام فإنه لا يرفض هذه الطلبات بل يحولها إلى الأمراء في صنعاء.. ويتعب السفير من طول الانتظار ويسافر راضياً مؤملاً أن الجواب سيلحق به.. ولا يصله بعد هذا شيء على الإطلاق، رغم أن أصول المجاملات الشرقية قد روعيت. ولعل لعدم انتقال الإمام إلى صنعاء اسباباً أخرى.

فقد خضعت صنعاء للإمام الذي تولى الحكم بعد مقتل أبيه الإمام يحيى وهو لهذا يضرر لها حقداً وكراهية وحفيظة.. وهناك سبب سياسي وهو أن تعز ثغر من ثغور اليمن الهامة وأقربها إلى المدينة.. والإمام يعرف كل هذا وهو يقول للزائر الأجنبي وصوته لا يكاد يخلو من الكآبة والحزن (إنك لم تر اليمن بعد.. اذهب إلى صنعاء وستعرف هناك بلادي) لعله يقدر مسؤوليته الثقيلة كبواب كبير.. يعرف متى يستطيع أن يفتح ومتى يجب أن يغلق.

وعندما يتناول الإنسان صلات اليمن بالعالم الخارجي لا بد أن يبرز اسم الجبلي.. فاققتصاد اليمن فعلاً بين يديه.. والأمثلة كثيرة لحالات يرتفع فيها أفراد ولكنهم يهوون بقدر ما ارتفعوا، أما الجبلي فقد عرف الإمام كيف يختاره.. وكان الجبلي ذكياً عندما جعل منشأته كلها شركات مساهمة، للإمام أحمد فيها نصيب الأسد، وما دام الإمام نفسه هو المستفيد الأول فلا يمكن أن يتعرض العمل لأي مخاطر.

وقد وصلت سمعة الجبلي إلى الحد الذي جعلني أنا في اليمن أسمع من يهمس باسمه خليفة للإمام ولكن هذا مستحيل.. لأنه ليس من آل البيت.

امتلاً ذهني بهذه المعلومات القيمة وأصبحت متلهفة للاتصال بالبلد والذهاب إلى المستشفى، وزيارة المدينة وضواحيها وذات مساء وصلتني تهنئة الإمام بسلامة الوصول فقررت في اليوم التالي أن أبدأ حريتي الجديدة بنزهة طويلة في الجبال، في الصباح الباكر.

وقد استهدفت مسجداً أبيض صغيراً يقع في منحدر جبل صبر، خرجت من دار الضيافة

وحيدة، ومعى قلم ودفتر المذكرات الصغير وبعض الحلويات الملبسة، إنها الأسلحة المعتادة لا صطياد من يجري عليهم بعض الاختبارات.. لقد كانت كلمات أستاذي البروفسور ليفي شتراوس ترن في أذني: (إلى أولئك الذين يخرجون إلى الميدان أنصح) أجل إنني هذه المرة في الميدان وهأنذا مستعدة.

كان محمد باري أول صديق لي في اليمن، التقيت به وهو في طريقه إلى المدرسة إنه صبي في سن السادسة، حسن الهندام والتهذيب، وكان على رأسه طاقيّة منتصبة، ويرتدي سترة قصيرة من الأطلس الأصفر ذي الخطوط الحمراء، وقميصاً يصل إلى القدمين، ونعلًا من الكاوتشوك وعلى ظهره كيس من القماش الأسود يضع فيه لوحاً وقلمًا من الحجر الصلب، والجزء الأول من القرآن الذي يتعلم منه وهذا يكفي للبدء بالحياة .. كما يجب .. إن صديقي من أسرة طيبة، وكان يرد على حديثي بلباقة لا تخلو من اعتزاز بالنفس، وانضم إلينا بعض الصبية، وكانوا أقل أناقة ولكنهم يتمتعون بنفس الحيوية والنشاط.

دخلوا مدرستهم في الحال وتركوني مع فتاتين في سن الثامنة والعاشرة، فالبنات في اليمن لا يتعلمن القراءة ولكن عبده لحق بنا، ولعله رأى أن هذه الظروف الاستثنائية تستحق إجازة إضافية.

وفي ذلك الصباح تلقيت من هؤلاء الأطفال أجمل وأحسن ما في اليمن، فقد سعدوا بي في طرقات ضيقة لا تمر فيها إلا الماعز وتسير هذه الطرق في أحد الوديان الكثيرة المنتشرة من أعلى الجبل إلا أسفلها كنا نسير بين نباتات البحر الأبيض المتوسط: الصنوبر والصبير وأعواد الند والأشجار الشوكية والمثمرة. كانت تنطلق في هذا السكون، وضوء الشمس اغنيتان من أغاني الرعاة يرسلهما صوتان رخيمان في بطء وصفاء وفوقنا مسجد قديم قد أضحى أطلالاً وأنقاضاً فقد غطيت ساحته بنبات العليق والعوسج وأضحت أحواضه مستنقعات للمياه الراكدة الآسنة، وكنا قد ابتعدنا عن تعز والأطفال سعداء بالقيام بدور الدليل كانوا يريدون أن يقولوا لي كل شيء وأن يطلعوني على كل شيء وكانت المفاجأة السارة التي احتفظوا بها لي هي أنهم قادوني إلى أرض مسطحة صغيرة لا ترى من تحت وكان ثمة رجل عجوز قد شرع في حرثها.

كان العجوز حافي القدمين، عاري الرأس، طويل اللحية، يرتدي قميصاً أبيض فقط ويحتزم بحبل ويتكىء ببديه وقدمه على محراث خشبي يشق به الأرض في صعوبة وعسر ويجره ثوران من الأبقار الممتازة الرمادية اللون الجميلة نظر إلينا هذا الشيخ وابتسم بهدوء وواصل عمله وقد أحسست إنني لا أشغل في هذا العالم الريفي إلا حيزاً صغيراً.. وكان الرجل يقف في آخر التلم يطعم الثورين لفافة من العلف، وهي قبضة من التبن محاطة بقليل من البرسيم الأخضر إن الأبقار تحب أن تتناول طعامها من اليد، وكان الرجل الشيخ يغني بصوت متهدج حنون وهو يطعم ثوريه ثم وهو يشق الأرض بمحراثه وبحثت مريم عن يدي ووضعت يدها الصغيرة فيها وحاولت أن تعلمني

الأغنية.

بعد أن امضينا ساعتين معاً، بدا لي أن الصداقة قد توطدت بيننا وإني أستطيع أن أخرج الورق والأقلام، وكان النجاح عظيماً أن هؤلاء الأطفال لم يسبق لهم أن رأوا واحداً يرسم رجلاً، وقد اسعدهم هذا وأفرحهم، ولم يجدوا أجمل من أن أتيح لهم الفرصة كي يجربوا.

وقد بدأت بالفتى، فالرجل أولاً دائماً ثم أردت أن أمر بالورق على البنات يا لها من فضيحة لقد شعر الصبي بالإهانة فرمقني بنظرة قاسية وسحب الورق من يدي الفتاة بإزدراء، وهو يقول (إنها بنت.. لا تعرف شيئاً..) واستسلمت الصغيرة في انكسار وتركت الورق.. ولكني رتبت الأمر على الطريقة الغربية وأعطيت الفتيات دورهن.. وتهللت أسارير مريم واستبشرت بالانتصارات القادمة للمرأة ورسمت أصابع عشرًا للذراعين اللذين رسم خطوطهما الصبي.

كان من الطبيعي أن تسير بنا مريم إلى أمها.. ولم يكن بيتها واحداً من تلك البيوت المتشامخة الحصينة العالية، بل كان بيتاً صغيراً، في عزبة فقيرة، وهو حجرة واحدة لا نافذة لها.. وليس فيها من الأدوات المنزلية سوى موقد وبعض أوان فخارية قليلة.. كان البيت خالياً من الرجال وما إن أحست النسوة بوصولي حتى لُذُن بالفرار ولكنهن رجعن بعد قليل.. لم أكن قد رأيت امرأة يمنية انهن مخلوقات حزينة مخبولة عجزت عن استخلاص أي شيء منهن.. كان لباسهن قميصاً قصيراً من القماش الأسود مرفوعاً إلى الخصر ليسمح لهن بحرية الحركة في أثناء العمل وبنطلوناً ضيقاً مكفوفاً من أسفل، أما العنق والشعر فتغطيها خرق ترفع إلى ما فوق الأنف عند الإحساس باقتراب أحد بحيث لا يترك إلا ما يسمح للعين بالنظر.. وحول هذه النسوة يحبو الأطفال عراة هزيلون أردافهم ملطخة بالأوساخ، وعيونهم محاطة بالذباب كانت أخت مريم وهي في الثانية عشرة تساعد أمها فتحمل طفلاً صغيراً على ظهرها.. وللأطفال الفقراء فترة سعيدة في حياتهم تلك هي التي تنقضي من حين يتعلمون المشي إلى حين يجب عليهم العمل، فالحرية في هذه السن تمنحهم رونقاً يفقدونه في سن الرشد، والبنات يفقدون حريتهن هذه قبل الأولاد.

بقيت مريم في البيت واستعاد عبده دوره القيادي وساقني إلى المدرسة حيث كان الدرس قد انتهى، ولا بد أن يكون محمد باري قد تحدث عني إذ يبدو أن الناس كانوا ينتظرونني وقد دعاني الأستاذ إلى دخول الفصل وهو قاعة واسعة ليس بها سوى طاولة للمدرس، أما الأطفال فيجلسون على الأرض أمامه: ابتسامات لطف، مجاملة وبقدر ما كنت سعيدة كنت دهشة أن أرى الستار المعروف للريبة وعدم الثقة عند المسلمين يخترق بهذه السهولة والبساطة.

نزلت، هذه المرة، إلى تعز، وسط هذه الحراسة الكبيرة، وكان عبده يعلن أننا نعرف كيف نرسم إنساناً ويدعو الناس للمشاهدة، وكنت جالسة على صخرة وحولي خمسة أو

سنة أطفال يتهياون للرسم تقدم إلينا لفيف من الرجال بينهم رجل كبير المقام كما يبدو من مشيته وملابسه الفاخرة وقد سأل الأطفال ونظر إلى الكراريس، وتأملي أخيراً باستغراب فيه كثير من العطف والمودة، وقد أراد أن يكتب اسمه وهو قاض معروف ثم تركنا بعد أن تحدث إلينا بلطف أدركت في هذا الوقت المساعدة القيمة التي يقدمها إلي هؤلاء الأطفال، فليس من العسير تسليتهم وإفراحهم واليمنون كالمسلمين جميعاً يحبون من يحب الأطفال.

وبعد الظهر وفي الأيام التالية قمت بزيارة المدينة وضواحيها، وتعز تحيط بها أسوار قوية من الطين، وفيها نحو خمسة آلاف نفس، ولكن القرى المجاورة تضاعف هذا الرقم، وفي خارج المدينة بنايات حديثة هي دار الضيافة والبريد ومقر الحكومة والمدرسة والمستشفى ويعلو المدينة القديمة تل عليه قصر حصين تسجن فيه الرهائن والرهائن أطفال بين الثامنة والخامسة عشرة وهم أبناء رؤساء القبائل المشكوك في ولائهم، وكان عددهم ثلاثين طفلاً كما يبدو هل هذا أمر بشع؟ يمكن أنه شبيه بمدرسة داخلية كنيبة وقد رأيت سجيناً منهم في سن العاشرة جاء برفقة حارسه ليعرض نفسه على الدكتور مروشي ولم يكن يثير الشفقة.

إن بيوت تعز ليست شاهقة ولا جميلة، فهي مبنية من الطوب أو الأحجار التي لم يحسنوا تقطيعها والنوافذ قليلة والطقس حار رغم أننا على ارتفاع ١٢٠٠ متر، والمساجد شيدت في عهد الأتراك وأجملها المسجد الرئيسي الذي لم أتمكن من دخوله، والآبار قليلة والمياه تأتي بها السيول والينابيع التي تتفجر في الجبل إلا أنها ما زالت ملوثة.. ومولدات الكهرباء تمون بعض البيوت الكبيرة بالنور ليلاً.. ولا تستطيع أن تطلب كل ما تشاء من أسواق تعز باستثناء الترامس المصنوعة في اليابان والأقمشة الهندية والسورية والصفائح والصيني والتشيكي والأدوية الإيطالية وفي الميدان الكبير الذي تتصدره صورة الملك المحاطة بأنوار النيون يلتقي الإنسان أحياناً بسيارة الأمير البدر ولي العهد محاطة بأكليل من الورود الورقية، وحولها شريط متعدد الألوان يلف غطاءها.. ويرى الإنسان في ميدان آخر أسطوانة ضخمة سوداء ارتفاعها متران كانت طافية في مياه عدن إشارة للسفن، ولكن تاجراً محتالاً باعها من الإمام ليجعل منها خزاناً للمياه وبعد تسلمها مباشرة لم تعد تظهر لها أية فائدة.. وعند باب المدينة نرى المحدادة أو مكان السمكرة.. عفواً إنه من مركز البوليس الذي يسوقون إليه من يشاؤون ليكبلوه بالسلاسل الحديدية.. فيكفي في اليمن أن يكون لإنسان أي نفوذ طبيعي أو قانوني وأن يكون غير راض عن شخص ليأمر بأن يكبل بالحديد.. أي أنه ليس ثمة أمر عادي أكثر من أن ترى يميناً يجر الأصفاد في قدميه ويسير في الشوارع.. والقيود حلقات حديدية مفتوحة قليلاً توضع في الساقين وتقفل بالمطرقة، ويصل بينها سلاسل حديدية.. وتظل هكذا أياماً وأسابيع، وقد يكتفي بقيد واحد ولكن لا مانع من قيدين أو ثلاثة أو حتى خمسة.. إن هذا أصبح أمراً مألوفاً إلى حد أنه لم يعد يحدث أي أثر أو

انفعال ولا يخجل من يجر القيود بل أنه يتفكه ويهزل ويواصل أعماله العادية.. وقد كان موظف المالية الكبير الذي اتهم بأخطاء في حساباته يذهب بهذه الصورة إلى مقر عمله.. أنا هنا لا اختلق شيئاً.. رأيت في شوارع تعز امرأة مكبلة بالحديد، لقد خانت زوجها.. ولكن العشيق أغضبه أن يرى الجميلة في السلاسل فرجم الزوج بالحجارة وهرب إلى الجبل وكان الزوج إلى جوار زوجته كئيباً حزيناً وصدره مضمد بالأربطة أما هي فقد مدت ساقها وجلست تقشر الفاصوليا بكل هدوء.. وقد يرى الإنسان أشياء أقل غرابة.. لقد رأيت مسجونين يجمع كل اثنين منهما قيد واحد في قدميهما يتنزّهون آخر النهار في الميدان الكبير ويأتي الناس يلقون إليهما بالصدقات وما إن يقترب أحد منهم حتى يمتطوه بوابل من التضرع والتوسل.

وذات يوم، رافقت الدكتور ريبوليه إلى المستشفى أما الدكتور مروشي فقد رفض الذهاب إليه، وأقام في بيته عيادة صغيرة تعلمت فيها أشياء كثيرة، وعندما سألته عن السبب في هذا أجاب ببساطة: (سترين).. والمستشفى يضم عدة بنايات تتألف كل منها من طابق أرضي وحيد، تحيط به ساحة ويعني الدكتور بنحو ثلاثين سريراً، وعندما وصلنا إلى المستشفى أخرج من حقيبته علبة بها بقايا فطوره، وانحنى على الموقد يسخنها لمريض صغير.. إنه يسهر على كل شيء بنفسه وأكثر المواقف تواضعاً هنا لا تشين من يقوم بها إذا كانت في سبيل الخير والبر، وقد أطعم الطفل وقرأت في وجوه الحاضرين العاطفة المعترفة بالجميل، وكان الدكتور ريبوليه يقدم لمرضاه العلاجات الضرورية من عنده فلم يكن في صيدلية المستشفى غير رفين يزودان بالأدوية كل خمسة عشر يوماً، أما قاعة الجراحة فقد كانت خالية من كل شيء، وعندما أردت رؤية جرات العلاج رفض الدكتور أن يسير معي فمررت عليها بمفردي يتبعني على غير رغبة مني أحد الممرضين.

وقد مررت بها واحداً واحداً، فوجدت نفس المنظر المذهل المفزع: رائحة كريهة، السرير عبارة عن قوائم شدت عليها الحبال، وليس عليها أغطية.. أجسام هزيلة شبه عارية.. شعروا بوجودي فتحركوا قليلاً، وحاولوا الوقوف مدوا أيديهم نحوي، ارتفعت أصواتهم تتوسل وتتضرع بحرقة وألم، لقد كنت شيئاً جديداً عندهم، لقد كنت شعاعاً من الأمل رأوه قبل موت لامفر منه كثيرون منهم مشرفون على الموت.. نظر إلي الممرض وقال: تيفوس.. ولكن كل هؤلاء المرضى جميعاً ليس لهم أدوية.. عشر جرات للرجال على هذا المنوال.. لقد كنت أشعر أنني تحت كابوس لعين، ولم يداني أحد على مقصورة النساء، ولكنني وجدتها.. جرات منخفضة لانوافذ لها.. زرائب بكل معنى الكلمة تمددت فيها النساء الواحدة بجوار الأخرى على أرض قدرة، ومع الكثير منهم أطفالهن.. قد يخيل للإنسان أنه يستطيع أن يتصور فضاة وشناعة كهذه، ولكن مشاهدة هؤلاء النسوة في هذه الزرائب أكثر سوءاً من كل ما قد يخطر على البال.. لقد قرأت كما قرأ الناس أوصاف معسكرات الإبادة والإفناء، ولكني هنا رأيت بأم عيني امرأة تحتضر

وهي راقدة فوق برازها، رأيتها تنهض وتستند على كوعها وتناولني طفلها المبلل وهي في النفس الأخير تتضرع وتتوسل.

التفت الدكتور ريبوليه إلي وقال: (والآن ها أنت قد رأيت كل شيء) إنه قبيح أن يعمل الانسان كل يوم في مثل هذه الظروف ولكن ماذا يعمل والأدوية لاجود لها؟ والإمام لايقدم ريالاً واحداً للمستشفى القديم، ولكنه أمر ببناء مستشفى آخر، ذهبت إليه مع الدكتور ريبوليه الذي وضع رسومه بنفسه.. لقد فرغوا من الأساس، وتكدست أكياس ومهمات البناء الحديثة هنا وهناك وكلها فرنسية، وقد اعتمد لها الإمام خمسين ألف جنيه.. إن الدكتور ريبوليه هنا سعيد، ومتفائل، وقد أدركت الأمل الذي كان يلهمه الشجاعة وكان المولد الكهربائي قد وصل، لكنهم لم ينزلوا الصندوق الكبير كلية من سطح سيارة النقل، فظل جزء منه فوق السيارة، والآخر على الأرض تسنده صفائح قديمة وقد استمر الدكتور ريبوليه يتنقل من مكان إلى مكان يطلب العون والمساعدة، ولم يغادر المستشفى إلا في وقت متأخر، حين نجحت العملية وأصبح الصندوق بعيداً عن الخطر.

رأيت المستشفى مرة ثانية وقد انتهى في مايو سنة ١٩٥٢ قبل عودتي إلى فرنسا كنت وحيدة، ولكن ذكرى الدكتور ريبوليه تنتظرني عند الباب، وقد قمنا بالزيارة معاً كالمرّة الأولى ولكنني الآن أمام طلاء حديث.. سرر بيضاء، صناديق مفتوحة، معدات تخرج من أوراقها الحريرية، ويقوم زملائي الايطاليون الذين وصلوا أخيراً بوضع كل شيء في مكانه.

أما المهمات الكبيرة فقد كانت رسوماً تصميمها وتركيبها موجودة بين أوراق الدكتور ريبوليه، وعند موته أرسلت إلى باريس، ومن باريس نقلت إلى جدة مقر المفوضية الفرنسية.

قد قدمها السفير إلى الإمام في حفلة أثناء زيارة رسمية بعد مضي عشرة أشهر ولكن في هذا الوقت كان كل شيء قد وضع في غير موضعه تماماً فالجهاز الضخم لتطهير وتعقيم عدد الجراحة والضمادات، هذا الجبل المطلي بالنيكل الذي كان ينبغي أن يتصدر مكان الشرف في نهاية القاعة الكبيرة.. وضعوه خطأ وبصورة مزرية مضحكة في حجرة صغيرة وبشكل مائل.

هل كان الدكتور ريبوليه يفكر في مستشفاه وهو يحتضر حين قال: (ليس الآن) لقد تلقى من الله الجزاء الذي هو جدير به بكل تأكيد، ولكن جهاز التعقيم الضخم الذي أساءوا وضعه يعكر عليه بدون شك رقدته في الفردوس. للسفر في اليمن طبيعته الخاصة: انتظار لا نهاية له يعقبه اندفاع جامح.. لقد كنت أعتقد أنهم قرروا إبقائي في تعز، ولكنني ذات صباح جميل فوجئت بوصول سيارة جيب، جاءت تأخذني إلى المطار لأسافر إلى صنعاء بعد ساعة، ولم يكن أحد قد أخطرني بهذا فكانت حقائبي مفتوحة وأدواتي مبعثرة في الغرفة صحيح أن حاجياتي لم تكن كثيرة ولكنني قد أحضرت معرضاً

صغيراً للتسلية لي ولأصدقائي الجدد، بينما الاسطوانات، والفوتغراف، والكتب المصورة من دروس للتاريخ الطبيعي الضخم إلى سيكولوجية الفن لمارلو، ولعب الأطفال، ولعب البيت، ومهمات المخيم.. فكيف أستطيع في نصف ساعة أن أضم هذا الموجز لحضارتنا في خمس حقائب؟

قفلت على نفسي الباب بالمفتاح، وجاء السائق وظل يقرع الباب بعنف، وكان ردي عليه (لا.. لا) والشيء العجيب هنا هو أنه أعقب نداءاته الحادة المتكررة بانحناءة شرقية محكمة، وفي الوقت الذي تزداد القرعات شدة وعنفاً عندنا في فرنسا، يميلون هنا إلى الهدوء بمرور الوقت فعندما خرجت من غرفتي وقد حزمت الحقائب وجدت السائق هادئاً يمزح مع العساكر، وأعجب من هذا أنه لم يتحرك إلا بعد أن انتهى من تدخين سيجارته.

وقد كنت منقبضة النفس وأنا أقطع المسافة بين المدينة والمطار، إذ من المحزن أن يكون الباحث في أصول السلالات البشرية ومميزاتها في اليمن مجبراً أن يحلق في أجوائها على ارتفاع ألف متر، كما أسفت إذ أغانر تعز في الليلة السابقة لعيد النصر الذي يشير إلى الذكرى السنوية لاستعادة الإمام أحمد العرش بعد مصرع أبيه وهم يحتفلون بهذا العيد في جميع أنحاء المملكة، ولكن الاحتفال في تعز بحضور الملك سيتم بصورة أفضل.

ورغم الجلبة والضوضاء في المطار كان واضحاً حتى ذلك الوقت أن السفر لم يحن وقته بعد فالناس ينتظرون الأمير الحسن، نائب الملك في صنعاء كان قد قرر أن يصلها قبل العيد، أما حاشيته فقد وصلت وكانت مؤلفة من نحو خمسة عشر رجلاً يلبسون ثياباً جميلة بيضاء، وكانت حقائبهم قليلة، فهل هذه عادة بدوية قديمة؟ إن اليمني لا يكاد يأخذ معه شيئاً في السفر، فهو يضع قطعة الصابون في جيبه، ويغرس السواك (فرشة الأسنان) في عمامته أو بجوار خنجره وإذا كان بعيد النظر ارتدى عدة جلابيب، إنهم هنا لايهمون جيداً لماذا تكثر الحقائب التي يأخذها الغربيون معهم في أسفارهم.

إلا أنهم من جهة أخرى يأخذون كثيراً من السلع، لأن الطائرة توفر لهم في ساعة ما يحتاج نقله إلى ثمانية أيام بالسيارة أو خمسة عشر يوماً على ظهر البعير. وعند وصولي كان الطيار منهماك في وزن الحمولة وبهمة وحماسة اليانس استحضرت ماتبقى في ذهني من الكلمات الانكليزية التي يرجع عهدها إلى أيام المدرسة قلت له إنني أفضل أن أسافر براً، ولكنه لم يفهمني كما يبدو.

وعند الظهيرة وصل الأمير الحسن، وفي هذه الساعة التي تشتد فيها الحرارة في المناطق الاستوائية يصبح الجو أقل احتمالاً لتخليق الطائرة في مثل هذا الارتفاع وقد حييت الأمير من بعد بانحناءة مبهمة ولكنه لم يرني ولن يراني، حتى عندما كنت في مأرب في السنة التالية على بعد متر واحد منه، فهو متعصب جداً للتقاليد الإسلامية ومع ذلك فقد كانوا يتحدثون عني، فالطيار يحدث الأمير ويشير إلى حقائبي التي لم يكن

قد وزنها بعد، وقد جاءوا يقولون لي إن الطائرة لاتستطيع أن تحمل حقائبي فقد زاد فيها الوزن.

وشعرت أن الفرصة قد سنحت.. ولكن هل أرفض السفر بالطائرة؟ كانت وساوسي كثيرة، فقد قمت برحلة طويلة وممتعة.. قطار من باريس إلى فينيسيا.. درجة أولى في الباخرة إلى الاسكندرية.. مروراً بالقاهرة.. طائرة إلى عدن.. إقامة في أوتيل كرسنت الفخم، هذا بجانب المرتبات، لقد كلفت الحكومة اليمنية أكثر من ثلاثمائة جنيه، كل هذا قبل أن أرى مريضاً يمينياً واحداً.. هل هناك بلدان كثيرة قادرة على مثل هذا السخاء؟ لهذا فقد كنت مترددة في تأخير قياي بواجبي من أجل الفسحة والتجول إلا أن المترجم أردف قائلاً:

إن السيارة ستنتقل حقائبي فوراً ولن تتأخر، وكان هذا كل ما أتمناه، فطلبت أن يسمحوا لي أن أكون معها، متعلقة بأنه لاجدوى من انفصالي عنها فلن أستطيع أن أبدأ العمل بدونها.

وكانت لحظات عسيرة، فقد كنت مغروسة بين حقائبي والمترجم ينتقل في تيه بيني وبين الأمر، وعندما أسمع فعل(الأمر) كنت أفضل ألا أفهم ما يقوله إلا أنه كان لابد من الخروج من هذا الوضع وفي الأخير جاءني المترجم باسمياً يحمل لي موافقة الأمير، لقد نجحت ونقلتني سيارة الجيب إلى تعز والطائرة ترتفع في الجو.

إذن فأمامي رحلة مثيرة للاهتمام، ولكني أيضاً قد نلت ما هو أكثر من هذا لقد حصلت على تقدير الناس، فقد وجدت رجالاً بعد مضي عام يقولون لي: (لقد كنا هناك.. ولاننسى يوم المطار.. أما صلاح، سائق السيارة، فقد غمرته البهجة والسرور، وكان يسوق بيد واحدة ويغمز بعينه وهو يقلد صوت الأمير وإجاباتي.. وبالاختصار كان ساخطاً ومندداً، وكنت أشك في هذه الروح.. وقد أقسم صلاح أن أحداً لن يسوق سيارتي إلى صنعاء سواه، وهذا ماحدث فقد أصبحنا أصدقاء، وله أدين بنجاتي من إقامة تشبه الأسر في ذمار.

وفي تعز كتبت رسالة شرح وتوضيح لصاحب الجلالة وقد تكرم وأذن لي بالبقاء في تعز أثناء العيد، وكان المواطنون قد توافدوا على تعز من مختلف الأقاليم، بينهم فلاحون أغنياء بملابسهم الجميلة ونسائهم المزينة بعقود الكهرمان الكبيرة، والفضة المنقوشة المفرغة، وبينهم فلاحون فقراء جاءوا يلتمسون من الملك الصدقات التي توزع في الأعياد الكبيرة.

عند المساء بدأ العيد(بالتنصير) وهو إشعال النيران في سطوح المنازل أعد في كل بيت كميات من الرمل في أطراف السطوح سقيت بالبترول في اللحظة الأخيرة، وأشعلت كلها عندما حل الظلام، توجت البيوت المنثورة على سفح الجبل بلهب خفيف راقص، وكان هذا اللهب أكثر حيوية من أنوار النيون الجامدة عندما كان الليل يعج بزغردة النساء الحادة، وتفجير الصواريخ الصغيرة، وأصوات الأطفال المرحّة.

أما الخدم في دار الضيافة فقد أخذوا يرقصون على أنغام المزامير ودقات الطبول، رقصات كنت أجدّها دائماً ممتعة جميلة، وكان الراقصون أربعة أو ثلاثة أو اثنين يتقدمون ويرجعون الواحد بجوار الآخر، يضعون أقدامهم بخفة ومهارة ويمسكون بخناجرهم ويلوحون بها، وتزداد السرعة شيئاً فشيئاً حتى تصل أقصاها.

رغم كل هذا فقد ظل المهندس المعماري اللبناني بجواري مملوءاً بالمرارة والغضب.. لقد كلفه الإمام بتشديد العمارة الأولى في تعز بالأسمنت المسلح، فنشب نزاع بينه وبين البناء اليمني الذي يرى أن يكون الأساس من الرمل على الطريقة المحلية المتبعة، وألا يبدأ الأسمنت المسلح إلا فوق الأرض حيث يمكن أن يراه الناس، وأحيل موضوع النزاع طبعاً، إلى الإمام الذي وقف ضد المهندس وبعد العيد بوقت قصير غادر اليمن بانساً، وبحمد الله لم يكن للأسمنت المسلح وجود في تعز.

أنهينا سهرتنا، كالعادة، في منزل الدكتور مروشي الرحب، ولكننا في تلك الأمسية فوجئنا بزيارة خارقة للعادة، فقد جاءتنا امرأة يمنية متكررة في زي رجل أوروبي، إنها زوجة عامل إيطالي لم يقو على احتمال العزوبة فأسلم ليعيش مع امرأة مسلمة، وكان هذا هو الحل الوحيد وقد مارس التنكر هذا صيدلي سراً على مجالس الحريم، لكنه مرة تضحك بعطر فرنسي فواح الرائحة لاوجود له في تعز فعرفه رجل في الشارع وهو تحت الملايه والبرقع ووقعت الكارثة.. قيده بالسلاسل وطرده.. أما زوجة الايطالي هذه الشابة فقد كانت ترغب أن تراني، وقد توسلت إلى زوجها أن يسمح لها بالحضور معه وهي في زي الرجل الأوروبي ولكن الدكتور مروشي، وهو في حالة من القلق وعدم الرضا، طردها في الحال.

وفي اليوم التالي بدأت الاحتفالات الرسمية في الميدان الكبير المجاور لمقام الحكومة وقد أعدت المقاعد على جانبي المنصة الملكية، وتوافدت الجماهير من الصباح الباكر كانوا كلهم من الرجال في ثيابهم الصارخة الألوان، أما عساكر الحرس الملكي فقد ارتدوا بدلتهم الجديدة، وهي سترة وفوطة وغطاء رأس من القماش الوردي اللون أو الأزرق الباهت، مزخرفة بنقوش بارزة، وكانت وجوههم برونزية جميلة وشعرهم مجعداً وكل هذا يدل على فهم سليم للألوان ثم وصل كرسي الملك محمولاً على أكتاف العساكر، وجاءت بعض السيارات الرسمية والأطفال يتعلقون عليها، وكانت هناك مجموعة عجيبة من العساكر كلهم طاعنون في السن، تتدلى لحاهم البيضاء إلى فوق خناجرهم، وأخيراً وصل ولي العهد سيف الاسلام البدر، وتصدر الاحتفال نائباً عن أبيه المريض.

وقد استمعنا إلى كلمات كثيرة، ثم شاهدنا مباراة في كرة القدم على الطريقة العربية المثيرة، والعرض العسكري ومادام اليمنيون يغارون كثيراً على أسرارهم الدفاعية ويمنعون التصوير فإني لن أقول شيئاً في هذا الموضوع!

وفي صباح اليوم التالي استمعنا إلى أناشيد الطلاب، وإلى الفرقة النحاسية التي تعزف

الألحان الأوروبية على الطريقة الشرقية، ولن أقول عنها أكثر من هذا، ثم قدمت تمثيليات هزلية أمام المنصة الرئيسية وكانت زاخرة بالوقائع الاستطراذية كأسلوب موليير وأخيراً شاهدنا مباراة في كرة القدم قدمها شباب يسرون على أرجل خشبية طويلة، وكانت ممتعة، وأثناء الاستراحة كانت الأنظار تتجه إلي، فقد كانت معي طفلة سويدية صغيرة في سن الثالثة كان أبوانيتا يقود الطائرة إلى صنعاء وكانت أمها تعاني أزمة عنيفة من مرض الملاريا والديسنتاريا وكانت لاتعتمد علي أحد في أمر طفلتها.. بل تتركها في العادة حبيسة في حديقة صغيرة.. كنت أريد فعلاً أن أعني بأنيتا ولكن دون أن يضيع العيد.. وقد اكتشفت انيتا مدينة تعز وتعرفت تعز بانيتا، كان الناس يتأملون الطفلة الشقراء الوردية كشيء انقشعت عنه السماء.. أما أنيتا فقد كانت تفضل الجمال قبل كل شيء إذ كان كل جمل شبيهاً بالزرافة، فقد رسموا على جسمه هذه المناسبة دوائر صغيرة بالحناء.

أما في اليوم الثالث فقد خرج الملك، ونزل من سيارته على بعد أمتار من المنصة وسار إلى كرسية تحميه مظلته التقليدية وكان يرتدي قميصاً أحمر اللون وعمة بيضاء تتدلى منها عذبتان هما إشارة الإمامة كان الرجل مختلفاً جداً عما تظهره الصور الرسمية فجفناه مخضبان باللون الأزرق، ولحيته مصبوغة باللون الأسود، وكان يبتسم ابتسامة مفزعة تبدي أسنانه الذهبية، وهو بهذه العيون العجيبة وهذه الابتسامة و تلك اللحية، لايشبه أحداً مما حوله، إنه هو الإمام فعلاً، ومن يراه للمرة الأولى يدرك في الحال كيف كان صاحب الجلالة في عصور التاريخ القديمة، ولاينقصه إلا صفوف من عقصات الشعر ليعيد إلى الأذهان الملوك الآلهة لبلاد الأشوريين.

ألقيت أمامه كلمات كثيرة تختلف عن الكلمات السابقة ولا بد أن يكون التغيير مقصوداً ولم يكن هنا متحدثون رسميون، إلا أن فلاحاً طاعناً في السن نبوي الوجه يلبس القميص الأبيض وسترة من جلد الخراف، جاء مع رجال قبيلته من إقليم ناء وقد اختاروه للكلام، ونقلوا إليّ كلامه وهو عادي، ولكن الذي لايمكن ترجمته هو الصوت واللهجة والاشارات والنبيل والثقة لرجل لم ير مع ذلك شيئاً سوى قرى مؤلفة من عدد قليل من البيوت.

وجاء دور الأطفال الذين يحبهم الملك، ولم يكونوا يقرأون من الورق، بل كانوا يفصلون عباراتهم، ويثبتون أنظارهم في الإمام في شجاعة ورباطة جأش كم هو الفرق بينهم وبين أطفالنا المملوئين خجلاً وحياء ووجلاً وقد ترجم لي خطاب مدهش ألقاه طفل صغير، ملابسه رثة بالية، وقد صرخ هذا الطفل في خطابه: (أنتم جميعاً أيها المجتمعون، انكم متخمون، انكم مغتبطون، أنكم تتباهون بالملابس الجميلة، أما أنا فإن بطني خاوية إني جائع وأهلي عاجزون عن توفير طعامي) وقد حياه الحاضرون بعاصفة من الضحك ولا أدري إذا كانوا قد منحوه شيئاً آخر، ولكن على يقين إنه كان يعني ما يقول ولم يكن يمزح أو يتفكه.

وانتهى الاحتفال بموكب عام للخيول والجمال على دقات الطبول، وقد تقدمت الخيل، وكان المشهد مطابقاً لمهرجانات تلعب الخيل في شمال أفريقيا، ثم جاءت الجمال، ويركبها اليمينيون بطريقة خاصة، فتوضع القدم اليسرى على الرقبة وتتدلى الساق الأخرى عمودياً، بينما يثبت الراكب قدمه اليمنى خلف قدم البعير الأمامية، والذراع اليسرى الممدودة إلى الأمام تمسك بالزمام وترفع به أنف البعير الذي يقوس رقبتة بهذا الوضع يندفعون في العدو بسرعة جنونية والابل بهذه الرشاقة والسرعة لا تترك للخيول أي تفوق عليها بل إنها تمتاز أيضاً بالقوة والضخامة، ولهذا فليس غريباً أن يفضلها كثير من الناس.

و غادر الإمام مكان الاحتفال محاطاً بعساكره وهم ينشدون الزامل وكان هذا النشيد نارياً قوياً يختلف دويه عن نشيد الليل العميق الذي يسمعه الإنسان وكأنه آتٍ من بعيد.. لقد تأثرت بالأغاني الشرقية بسرعة فانغمست وسط الجماهير متجاهلة كل اعتبارات الوقار، وسرت خلف الجنود وجدت نفسي وسط الزحام الشديد ومن بجواري ينظرون إليّ باسمين، ويبدو أنهم كانوا سعداء ومستغربين في نفس الوقت وقد رأوا أجنبية تتجاوب مع أغانيهم الوطنية الجميلة.

جرت العادة أن يوزع الإمام في آخر أيام العيد الهدايا على الفلاحين فيمنح كل واحد ريالاً وفوطه، ولكنه كان متعباً فكلف أحد موظفيه بالقيام بهذا العمل، وقد فقدت الحفلة بهذا كثيراً من طابعها المعتاد.. أما في المساء فقد عرضوا فيلماً سينمائياً، وقد كان هذا هو الحدث الأول من نوعه في اليمن.

وكان أحد رجال الأعمال قد تقدم قبل عدة سنوات يطلب من الإمام الشيخ أن يأذن له بتشيد دار للسينما في صنعاء فقال له الإمام:

- (إني أقبل، ولكن بشروط ثلاثة)

- ماهي هذه الشروط؟

- أولاً: ألا يعرض شيء ضد أسلوب الحكم أو ضد الدين.

فقال الرجل:

- هذا أمر مفروغ منه.

قال الإمام:

- ثانياً: ألا تظهر النساء في الأفلام.

فأجاب الرجل مرتبكاً:

- إن هذا عسير جداً، ولكننا سنحاول..

- والشرط الأخير أن يدخل الناس جميعاً مجاناً..

ويبدو من هذا أن الإمام الشيخ كان خفيف الدم ولكن صنعاء ظلت دائماً محرومة من السينما.

في تلك الليلة كانوا للأسف قد حددوا لي وقت العرض خطأ، وكان العرض في الهواء

الطلق في الميدان الذي قامت فيه الاحتفالات، ولكني لم أصل إلا في النهاية وقد أخذ الناس في الانصراف، لكنهم عرفوني في الظلام، ونادوني بعبارة فهمت منها كلمة باريس.. وبالفعل فقد عرض السينمائي الواصل من عدن فيلماً إخبارياً عن باريس بجانب فيلم أعياد النصر للسنة السابقة.

انتهت الاحتفالات، وحان وقت السفر، وأردت أن أقبض مرتبي للشهر الأول، فقد كنت أريد أن أتوقف في الطريق كلما أمكن ذلك وكان السائق صلاح ينتظر تعليماتي أمام دار الضيافة وبفضل كلمة فلوس التي جاوزت حدود الجزيرة العربية منذ زمان طويل، فهم ما أريد بسرعة، وأدرك الإجراءات الضرورية وساقني إلى المقام.

إن واجهة المقام مزينة بفونغراف محطم معروض للعبرة منذ ثلاث سنوات، فقد عكر بعض الأشخاص المتهورين ساعة الصلاة بهذه الأصوات النجسة، فهشمت هذه الآلات المجرمة وأصبح بيع الفونغرافات ممنوعاً في جميع أنحاء مملكة الإمام.

دخلت مكتباً وقعت فيه الوصل، وكانت الجدران مشكوة بالمسامير التي ثبتت فيها الأوراق، وهذا هو الأرشييف، والخشب هنا نادر، ولهذا كان الأثاث قليلاً وبالتالي كانت الأدراج نادرة الوجود! وكانت الوثائق العليا بيضاء جديدة والتي في الوسط قد أصفر لونها، أما المجاورة للحائط فإنها قد بدأت تتفتت، فهي أقدم المحفوظات وهكذا ينفادون التراكم وهم لا يفقدون شيئاً له أهمية منها.

وبعد هذا دخلت إلى المالية، وكانت الريالات منثورة في كل شبر فيها، في كل كيس ألف ريال وفيها خزانة مليئة بالنقود الأجنبية، وصفائح بنزين، وعلب محفوظة، وقطع غيار السيارات وأجهزة لترشيح المياه وقد أخذ أحد الجنود كيساً وفتحه بالخنجر، وجلس يعد لي أربعمائة ريال، وكان حولنا نحو مائة جندي يتزاحمون وقد جثا صلاح يراقب العملية عن قرب.. أما أنا فقد كنت أضع الريالات في حقيبة أنيقة وعلى مقربة منا كان الأسد العجوز يزمجر بعنف في قفصه، وكان الإمام قبل عدة سنوات، يصطحبه معه في الاستعراضات وفي رقبتة طوق وسلاسل يشدها العبيد من كل جانب ولكنه الآن تقدمت به السن، وهم يربون أشبالاً أخرى في قصر الملك، ولو أنها لاتزال صغيرة وغير هادئة، أما الأسد العجوز فيقضي بقية أيامه بجوار مالية الحكومة.

هل هذا كله شبيه بما جاء في الأقاصيص الشرقية لجوبينو؟ نعم بلا شك بل وأكثر من ذلك.. إنه خيال قاس وشاعري في نفس الوقت.. إنه خليط مفرط من الجنون الواضح والحكمة العميقة.. إنه جمال ممزوج بالفكاهة.

يتذوق الإنسان الفراق الحقيقي حين يرى نفسه يبتعد عن آخر مدينة وصلها في أثناء سفره، وذلك قبل طواف طويل في بلاد غير معروفة كثيراً.. لم أحس بمثل هذا الشعور وأنا أغادر فرنسا فقد شغلني عنه الوداع المؤلم، ولكني أحسست بهذا الشعور العميق وأنا أشهد تعز تختفي من ورائي، ففي تلك اللحظات وقد تمت كل الخطوات وتذلت جميع العقبات وجدت نفسي حيث أردت أن أكون منذ زمان طويل، في سيارة جيب لا

تحمل سوى خمس حقائب، وفي وضع لا يهمني فيه غير مهنة جميلة في بلد جميل.
لم تكد تدور بنا السيارة حول أسوار تعز، حتى وقفت بجانب رجل على جانب الطريق،
وكنت أتوقع هذا، فقد أخبرني الأطباء أن السائقين الذين يقودون سيارات الحكومة،
يسمحون لمثل هذا المسافر بمزاحمة الركاب الرسميين وإقلاق راحتهم مقابل ما يدفعه
لهم، ولكننا كنا ثلاثة في مقدمة السيارة، السائق ومساعدته وأنا وكنت أريد أن أكون
مستقلة، فرددت (لا) التي نفعتني في المطار وفي الغرفة بدار الضيافة، ولما كان
صلاح يعرف إصراري هذا، فقد استأنف السير بعد إبداء بعض التذمر.
يمكن اجتياز المسافة بين تعز والحديدة في يومين.

إن الطريق تخترق الوديان في أقاليم جبلية، وكلما ارتفعنا امتدت أمامنا المدرجات
الزراعية الجميلة وحتى في هذه المرتفعات تنتشر الحقول والقرى في كل مكان وتزال
الأحجار في أصغر المساحات الموجودة بين الصخور ، وتمهد للزراعة وكثيراً ما كنا
نتوقف في بعض المراكز ليقدم صلاح تصريح المرور فيجتمع حولنا الأطفال
والفلاحون، والنساء هنا سافرات وأكثر مرحاً وجمالاً من تلك الأشباح البائسة التي
يلتقي بها الإنسان في أحياء تعز، إن نساء الريف الغنيات في الواقع أسعد نساء اليمن
وقد رأينا واحدة منهن وشعرها عار ومصفف في جدائل سميقة تنثني حول أذنيها
ووجهها آسيوي وخدودها بارزة وجميلة وناعمة جداً، وعلى عنقها قلاند ثقيلة ، لكنها
لا تستسلم لعدسة التصوير أبداً رغم التشجيع الضاحك ممن حولها.

عند الظهيرة، وبعد أن هبطت بنا السيارة كثيراً أصبح المنظر من حولنا أكثر انبساطاً
واخضراراً ففي جوف الوديان لا تزال المياه متوافرة والطقس دافئاً، ولهذا تظل الحقول
مزروعة في مختلف الفصول وبلا انقطاع وكنا في شهر فبراير (شباط) وقد نبتت الذرة
وارتفعت سنابلها أما في ضواحي (حيس) فقد كانت على جوانب الطريق أشجار النخيل
الاستوائية المفرطة في النمو، ولكن الطريق في المناطق المستوية ليست دائماً أفضل
من الطرق الجبلية إذ كان علينا أن نقطع قنوات الري التي تنقل المياه بين الحقول
وكان هذا عسيراً على السيارة الجيب، لم نلتق خلال اليومين بأية سيارة في طريقنا
ويبدو أن أهمية المواصلات تأتي بعد ضرورات الري.

وصلنا زبيد في نحو الساعة الثانية بعد الظهر، وكان المفروض أن نواصل السفر،
لكنني من أول نظرة أحسست بحب عنيف لا يقاوم نحو هذه المدينة، فأردت أن أقضي
فيها بقية النهار، إن زبيد مدينة من مدن القرون الوسطى بكل ما فيها، أسوارها
العالية، قلاعها، منصات المراقبين والحراس، أبوابها الحصينة المنيعة، وأعجب من
هذا كله، أن الحياة تجري في كل شيء فيها، فلم تصبح أطلالاً كما رأينا في تعز، ولا
يشعر الإنسان بالإعداد وإعادة الترتيب كما يحدث في أوروبا بل يمتلك الإنسان حقيقة
الشعور بأنه تراجع خمسة قرون إلى الوراء... لقد كانت زبيد مقراً لجامعة قالوا بأن
الجبر نشأ فيها أما اليوم فهي مدينة زراعية صغيرة يقطنها نحو ستة آلاف

نسمة، وهي أهم المناطق الزراعية في تهامة.

وقفت بنا سيارة الجيب أمام دار الضيافة وهو بيت أبيض نوافذه ضيقة، وكانوا قد أعدوا لنا وجبة خالية من كل ما يحتاج إليه الأوروبي عند تناول طعامه، فلا شوكة ولا سكين، لكنها كانت وجبة طيبة غنية بالأصناف اليمنية.

وبعد الطعام خرجنا لزيارة المدينة وقد رضيت هذه المرة للعساكر بإبعاد الناس من حولي حتى أستطيع تأمل المنازل الجميلة، فهي أجمل من منازل تعز، وهي كلها مبنية من قوالب الطوب، بعضها يتألف من أدوار ثلاثة أو أربعة، تتسع في أسفلها وتظل السطوح اسقف تحملها أعمدة أربعة ضخمة، أما بعضها الآخر فمنخفضة مكعبة الشكل ونوافذها الجانبية قليلة.

وليس في الواجهة سوى الباب الشبيه بالمصطبة المصرية، وحوله أشكال هندسية متعددة النماذج ويطل لسوء الحظ على ساحة صغيرة مقفلة، فلا يراه الإنسان إلا من بعد أو من فوق الجدران.

وعند الغروب، تأخذ هذه الواجهات المنحوتة رونقاً ولوناً رائعاً، لقد جلست على سطح دار الضيافة أشهد حلول الظلام وكل من يعرف اليمن لابد أن يكون شاعراً حين يتحدث عن مغرب الشمس، فالغروب هنا أكثر روعة وجمالاً منه في أي مكان آخر، فالسماء، بعد الغروب بعشرين دقيقة، ولأسباب جوية لا أعرفها، تكتسي بلون وردي صارخ يخيل للإنسان أنه ضوء اصطناعي.

انضم إليّ في غرفة دار الضيافة عمدة زبيد وهو شاب ذكي، يفيض حيوية، كان العطارون في باريس قد زودوني بمجموعة من أكثر عطورهم نشوة وتخديراً، فلما قدمت له زجاجة منها سر كثيراً، فالعطور أحب الهدايا واعزها عند اليمني، وعرفاناً منه بالجميل، عرض عليّ الزواج، وحجته أن له زوجتين ولكنهما لم تتجبا له أطفالاً، وقد اختارني للقيام بهذه المهمة، ولكنني عارضت وقلت: إن صاحب الجلالة قد كلفني بالعناية بالمرضى في صنعاء، وتخلّى عن طلبه بسهولة.

أما غرفة النوم فقد كانت كما وصفها (نيبور) قبل مائتي سنة في مؤلفه عن رحلته في الجزيرة العربية.. قاعة كبيرة بنافتين، وعلى جوانب الجدران نحو عشر مصاطب مرتفعة عليها أغطية ووسائد وتتسع لعدة أشخاص ينامون جنباً إلى جنب ولم يكن هناك احد من المسافرين ولهذا أعدوا لي المصطبة الرئيسية، وعندما أخذ ثلاثة رجال في رفع الناموسية وتثبيتها أدركت أنني ألقى منهم تكريماً خاصاً، ورغم أنها كانت كثيرة الثقوب فقد كان منظرها جميلاً وكنا جميعاً سعداء، زيادة على هذا أراق مضيقي زجاجة العطر التي قدمتها له في غرفة النوم فقضيت فيها أمتع ليالي الشرق، وكان يدور في خلدي هذان المثلان: (إن العمل الصالح لا يضيع أبداً) و(إن الإساءة تترد دائماً إلى من وجهها).

غادرت زبيد آسفة في اليوم التالي، ولعل طرق الجبال أصلح للسيارة من رمال تهامة،

فقد توقفت بنا بعد ساعة بجوار احدى القرى، وبينما كان صلاح ومساعدته يقومان بإصلاحها تركتهما ورحت أتجول في المنطقة المجاورة وقد حرك وصولي كل شيء في القرية.

التفت حولي أطفال عراة منتفخو الكروش ورجال سمر يضعون على رؤوسهم قبعات من الخوص مخروطية الشكل ومدببة أما النساء فقد تجنبن الزحام.

وكان معي من الحلويات والسجائر ما يفي ليستقبلوني استقبالا طيباً، ولم يكن من العسير زيارة القرية كلها التي رغم أنها بدائية فإن بها مع ذلك بعض الأشياء الضرورية، ففيها مسجد ومدرسة هي عبارة عن ساحة دائرية لا باب لها ولا سقف وفيها شاب يرتدي ملابس بيضاء قال إنه يعلم القراءة لأطفال القرية، وفي السوق رأيت رجلاً عجوزاً يجلس على الأرض بين الأكياس المليئة بالحبوب، وأخيراً وصلت إلى الحداد أو السمكري وكان الرجل ذا لحية كبيرة ويلبس فوطة، وقد تركني اجتاز عتبة الباب وحماني من الزحام الشديد، ظلت اتفحص كل شيء، بعد أن تركني وقتاً مناسباً ثم بكل هدوء أشار لي إلى الباب، فالزيارة في رأيه انتهت لقد كان يتحلى بشخصية قوية متحفظة نبيلة، تركته وفي نفسي صراع لا يحتمل لقد كنت أقل منه تمدناً وتحضراً فقد دخلت محله وتفحصته أمام عينيه وبدون استئذان.

في مساء اليوم الثاني وصلنا الحديدة، وكان جوها خانقاً حاراً، دار الضيافة قدرة كنيية، ميزتها الوحيدة أنها على الشاطئ.

إن البواخر لا تستطيع الوصول إلى هذا الشاطئ بسبب الصخور المنتشرة على طول الشاطئ ولكنها تفرغ حمولتها في قوارب صغيرة تقترب بها إلى بعد ثلاثين متراً من الشاطئ.

وهنا يتقدم الحمالون وينقلون البضائع على اكتافهم ويسيرون بها بأقدامهم بين الماء رغم هذا فالميناء خال من الحياة والمدينة لا جمال فيها ولا سحر وإذا مر الإنسان في الشوارع فإنه يرى المشربيات أو البلكونات التي تحيط بها ألواح خشبية جميلة لا بد أنها كانت أنيقة فيما مضى، أما الآن فليست سوى أطلال بالية، خالية من النقوش الجميلة ولا يعني بها أحد، وهي معلقة على صفائح محزنة تستحق الرثاء ولا تثير اهتمام أحد.

ويرى الإنسان في واجهات هذه البيوت أحياناً باباً هندياً جميلاً اقتناه تاجر غني (أيام زمان) ولكن الأبواب الأبنوس المنقوشة هذه لم تصنع للبيوت العربية . إن وضع الشيء في غير موضعه ممقوت وغير مرغوب فيه.

لم اجد في الحديدة ما يمكن أن أعمله ولا ما يستحق أن أراه، وقد فضلت أن أغادرها سريعاً، لكن الحديدة أكبر من تعز، فسكانها نحو ثلاثين ألفاً وفيها عدد من المقاهي والأسواق الزاخرة بالسلع ومنذ دفنت الرمال ميناء المخا، اقتصرت تجارة البن على ميناء الحديدة، وكان هذا سبباً في نشاط تجاري ملحوظ.

أما صلاح فقد ارتدى ثياب يوم الجمعة وجاء إلى دار الضيافة مزهواً أنيقاً .
أكد لي أن الأمطار قد بدأت تهطل في الجبال وأنه لابد لنا من انتظار سيارة أخرى حتى
نسافر معاً ونجتاز السيول في أمان.. رضيت بهذا، حتى أخذ نصيبي من حرارة
الحديدة، وقد رحب بي في الحديدة الدكتور سورنتينو انه الطبيب الوحيد في المدينة،
كان معه مدير بنك الهند الصينية الفرنسي فاستقبلاني بحفاوة ومودة ومن الذكريات
التي لا أنساها ما حدث عند مغادرتنا للحديدة، فقد طال بنا الانتظار وكنت جالسة على
(العنقريب) (هو سرير من الخشب) تحت ظل السقيفة أمام كراج الحكومة الذي يتلظى
من حرارة الشمس، لأن النقل في جميع أنحاء البلاد يحتكره صاحب الجلالة الإمام
والجبلي، وهما يمتلكان أغلب سيارات النقل، أما التجار الآخرون الذين يمتلكون بعض
السيارات فلهم يسمح لهم بشحن البضائع ونقلها لا بد أن يسجلوا أنفسهم أولاً وأن
ينتظروا دورهم، وكل شيء يتوقف على مقدار ما يقدمون من (بقشيش) للموظفين..
ويسري هذا كله على التجار إذا أرادوا أن يسرعوا في نقل بضائعهم وقد اعترف
الدكتور ريبوليه نفسه، وهو الرجل الرقيق، بأن كراج الحديدة بالذات لم يكن إلا مأوى
للصوص وقطاع الطرق، ورغم هذا فقد كنت مضطرة إلى ترك حقائبي في هذا الكراج
ليركب مكانها مريض لا يحتمل حرارة الجو في الحديدة، وقد كانت إحدى هذه الحقائب
مفتوحة بفعل الطريق.

كانت معي خريطة ممتازة لليمن، كنت أتأملها تمضية للوقت والخريطة هنا شيء، نادر،
التف حولي عمال الكراج حتى المدير، ورغم كل شيء فقد كانوا أذكياء أولاً وقبل كل
شيء.

لن أنسى السهولة المدهشة التي جرى بها الحديث، لقد وضخوا لي الطريق التي
سأتبعها وعلموني كيف أردد الأسماء وهم يصححون نطقي، وعند الرحيل اعطيت
الرجل العجوز الأسود الذي حمل حقائبي قطعة نقود صغيرة لا تكاد تساوي شيئاً
فاختفى من أمامي ثم عاد مسرعاً ووضع على عنقي عقداً من الياسمين في اللحظة
التي تحركت فيها السيارة.

ووصلت حقائبي إلى صنعاء بعد يومين دون أن أدفع ريالاً واحداً ودون أن أفقد منها
شيئاً على الإطلاق رغم أن واحدة منها كانت مفتوحة.

قرر صلاح أن نخرج من الحديدة في آخر النهار تفادياً للحرارة، وبينما كنا نشهد مغرب
الشمس الجميل في السهول، كانت الحديدة تبتعد ونحن نقترّب من الجبال شيئاً فشيئاً.
مررنا بقرية باجل الصغيرة ولم نتوقف إذ لم نجد فيها شيئاً ذا قيمة، وكان لابد أن
نمضي ليلتنا في عبال، آخر قرى السهل، وفي عبال أخذت الصخور مكان الرمال، وهي
قرية مؤلفة من عدد قليل من البيوت الحجرية التي لا أبواب لها ، وأثاثها الوحيد هو
العنقريب ، ولم نجد فيها شيئاً مما رأينا في زبيد.. ولكنني كنت سعيدة أن أفتح المرتبة
الهوائية وسط إعجاب الحاضرين ودهشتهم. أما صلاح ومرافقوه فيبدو أنهم لا يرغبون

في النوم فقد اقتربنا من مناطق القات.

والقات شجرة صغيرة ، أوراقها خضراء طازجة لها خاصية شبيهة بالكوكايين والأفيون، ويقبل اليمنيون على مضغها وتظل في أفواههم ساعات كاملة، يشعرون خلالها بالسعادة لكن هذا يكلفهم غالباً فالقات لا ينبت إلا في الجبال، ويصدر إلى عدن بالطائرة كل صباح وهو تجارة مربحة جداً. إذن فصالح يسعد لينعم بهذه اللذة، وقد استحضر ربطة طازجة ملفوفة في أوراق الذرة، ومصباحاً وقليلاً من القشر ونارجيلة.. وقال لي انه بهذا سيقضي ليلة سعيدة ممتعة وانه يفضل هذا على النوم.

ولما حل الظلام توغلت وحيدة في القرية.. لم يرني أحد وأنا اقترب، وكانت البيوت كلها مفتوحة وستائر القش مرفوعة حتى تدخل نسيمات الهواء الباردة وتتجمع العائلات في داخل البيوت حول مصابيح الزيت، وينام الأطفال في فراشهم الصغير المعلق على شكل أرجوحة تحت عنقريب أمهامتهم.. ولكني لم أستطع أن أظل بعيدة عن الأنظار فقد اكتشفوني وكان من غير المجدي أن أواصل.

وقبل الفجر سمعت جلبة وضوءاً، لقد جاءوا أثناء الليل يسألون عني، فعرفوا أنني طبيبة ان عبال من المناطق الوخيمة المضرة بالصحة مثل كل المناطق اليمنية الواقعة على سفوح الجبال في تهامة، فالصخور تؤدي إلى ركود المياه إلى جانب الحرارة والانخفاض.. كل هذا يساعد على تكاثر وانتشار ذباب الملاريا. وقد أدركت حالة السكان المحزنة المبكية.. فقاماتهم قصيرة، وبطونهم منتفخة وأعضاؤهم ليست إلا هيكلًا عظمياً، والحمى بادية على وجوههم، وقد فحصت العشرات من المرضى ومنهم بعض النساء اللاتي احضرتهم عجوز كانت تشجعهن وتدفعهن بقوة، وتنزع ملابسهن وترمقني بطرف عينيها بقلق.. من العسير في العادة الكشف على امرأة عربية لأنها مثقلة بالحياء والخوف والتردد.

إن هؤلاء هم أول مرضاي! عندما يستلقي رجل مريض مجرداً من ثيابه أمام رجل آخر يرتدي ثيابه الكاملة، ويرجو على يديه الشفاء تنشأ بينهما علاقات لامثيل لها.. فيتعلق كل منهما بالآخر لحظة من الزمن: المريض بطيبه والطبيب بمرضه، وقد رأيت هذا في مستشفى تعز دون أن أشعر بسر التعاسة المخيفة، لأن ذلك كان يتصل بأصباء آخرين.. غيري أما هذه المرة فالأمر يختلف.

هؤلاء النسوة.. ليس لهن إلا أنا.. فإذا لقين عناية طيبة فقد يشفين ولكن لا بد لي من السفر، وسيمتن بكل تأكيد.. وسريعاً.. ان الأشياء القليلة التي استطيع أن أتركها لهن لن تغير من الأمر شيئاً، ومع هذا فعيون العجوز تتقد حسرة وأملاً كما لو كانت، أكثر من الآخرين، تعاني الحالة المفجعة التي تعيشها القرية، وقد فهمت حينئذ هذا التعبير: «الأراع التي يشل قوتها اليأس»، فليس هناك ما هو أثقل من يدلا تستطيع أن تقدم شيئاً، إنها أثقل من أن يستطيع الإنسان رفعها ووضعها بدون جدوى، فوق هذه البطون الجافة البائسة.

لقد وصلت عبال وأنا خفيفة الحمل، ولكني غادرتها مثقلة بعبء كان يفرض عليّ أن أبقى فيها، وبين أشعة الشمس المتوهجة والصخور والرمال، كانت الطريق تلتوي بنا بين جبلين وترتفع رويداً رويداً في واد مهجور غير مزروع، وما إن تتوقف السيارة حتى يخيم علينا صمت مطبق فيخيل إليّ أننا لن نتحرك بعد هذا أبدأً. ووقعت عيوننا مرة ثانية على ضريح أبيض يوحى بالسكون والسلام وينعش النظر ثم مررنا ببيوت قليلة لاطابع لها. (مدينة العبيد) وفي منتصف النهار وصلنا حمام علي.

وحمام علي قرية عجيبة مؤلفة من أكواخ حجرية منتشرة على سفح الجبل، وينابيعها الكبريتية الذائعة الصيت تجذب إليها الكثير من المستحمين الذين يقصدونها للعلاج فيستأجرون هذه الفيلات (البداية) وقد توقف صلاح أمام مركز الحرس لناخذ راحتنا دقائق قليلة، وكان حصناً قديماً يشرف على الوادي، يقيم فيه الأمير المطهر أخو الإمام، أثار عندي رغبة جامحة، فخرجت من السيارة وجلست على حافة الطريق وتظاهرت بالتعب .. طلبت أن يأخذوني إلى قصر الأمير في الحال، وقد عارض صلاح بشدة وغضب لأنه كان يريد أن نصل صنعاء في المساء، ولكن أميراً في حصن ! هذا شيء لا يراه الإنسان كثيراً في حياته، وقد تمسكت بموقفي، وبعد دقائق اجتازت بنا السيارة باباً ضخماً ووقفت في ساحة الحصن.

لم يكن داخل هذه الأسوار العالية إلا بيت مربع قليل النوافذ، مررنا بالحرس في الدور الأرضي، ثم تقدمني صلاح يصعد سلماً ضيقاً حتى وصلنا حجرة الأمير، وقد رأيت سائق سيارتي الذي كان ثائراً منفعلاً في مطار تعز يلقي بنفسه في الأرض وينهال على أقدام الأمير تقبيلاً.

كان من الحظ أن الوصول إلى هذا الأمير أيسر من الوصول إلى أخيه الكبير، وقد استبشر بهذه الزيارة غير المتوقعة التي تذهب بمثل العلاج والاستشفاء في هذا المكان المنعزل، ولهذا فقد استقبلنا استقبالاً طيباً، لم يكن في كامل ملابسه فقد كانت جبته الخضراء مفتوحة الأزرار، وكان حزامه وخنجره معلقين على الحائط، أما عمته البيضاء ذات العذبة التي ترمز إلى انتسابه للعائلة المالكة فقد وضعها.. وذهب الأمير إلى الحمام وتركني مع زوجته الأولى التي دعنتني إلى تناول طعام الغداء.

وهكذا تعرفت بسيدة يمنية كبيرة، ذات عيني سوداوين جميلتين في وجه شاحب ممتقع اللون. كانت ملامحها منتظمة وصوتها وحركاته رقيقة ملائكية، وشعرها يفصله فرق في الوسط ويتدلى صفائر إلى الجانبين وتغطيه بمنديل خفيف عقدته تحت الذقن، أما عنقها فتستره بوشاح أبيض. ترتدي فستاناً من الحرير الأحمر طويل الأكمام وفوقه صديرة جميلة.

ورغم جهودي الكثيرة لم أحصل منها على غير عبارات الأدب العادية، وقد عاد الأمير بعد قليل يسيل منه العرق، وتمدد يستريح وكنت أرغب في رؤية المياه المعدنية، فعرضت على الأمير أن آخذ معي نساءه إلى الحمام في سيارتي.

استحسنت اقتراحي، فأخذت السيدات في الاستعداد وافرغ صلاح السيارة ورفع خلف مقعده ستارة كبيرة تحجب داخل السيارة تماماً، وقد غاصت زوجات الأمير الأربع والوصيفتان في جوف السيارة وهن متلفحات بملاياتهن، أما أنا فقد جلست في الأمام بجوار السائق.

وقد أثار وصولي إلى القصر عدداً من الناس فازدحمت الطريق بالفلاحين وكانت سيارة الجيب تسير ببطء وأمامها جنديان مسلحان يفسحان الطريق للسيارة ويرجمان الفلاحين بالحجارة ولكن دون أن يصيبا أحداً وكانت ترفع الستارة أحياناً فإذا صحت أنا (رجل) أنزلت وارتفع صوت النسوة (يوه).

وصلنا الحمامات، وكانت أماكننا قد حجزت فنزلنا. كانت الحرارة خافتة والجدران الصخرية قاتمة لزجة، والنور يتسلل من فتحة ضيقة، وفي الوسط بركة ضخمة يتصاعد البخار من مياهها، والقاعات كثيرة واحدة بجوار الأخرى وعلى جوانبها مخادع مفروشة بالحصير، لخلع الملابس، وقد أشارت الأميرة الأولى بالسير وراءها. وبسرعة خلعت ملابسها كلها، على الطريقة الفرنسية وقلت لنفسى: (فلاتمتع بحمامات الجزيرة العربية) وكانت هذه أجمل غلطة اقترفتها في رحلتي كلها فالمسلمات العفيفات يخلعن ثيابهن على طريقة المدارس الدينية الداخلية في فرنسا وقد اغرقني خلصة بنظرات فاضحة هاتكة.

جلست الأميرة متربعة على حافة البركة تغترف بيدها حفقات من الماء على جسمها دون أن تخرج من تحت الفوطة الأسفنجية: أين أنت أيتها الجارية الساحرة؟ لوحة فنية أروع من لوحات انجرس. كان هذا المنظر يذكرني بحمام أخذته في مستشفى باستوريا بعد إصابتي بالحمى القرمزية، تحت رعاية إحدى الراهبات وأنا بقميص النوم.

أحسست بمرارة الخيبة فمررت إلى الكهف التالي، فوجدت تقدماً بسيطاً: نساء أكثر شباباً وأقل بياضاً وضعن أقدامهن في الماء وتعطين من الخصر إلى الركبة، أما الكهف الثالث فقد وصلني منه هدير المياه والمرح والصخب ووجدت هناك منظرًا شيقاً.. زنجيتين شابتين.. الصدر بارز نافر، فخورتين بالبدانة البادية عليهما وعاريتين تماماً، وهنا لا أخشى على سمعتي وقد أخذت حمامي في هذا المكان. وعندما خرجت كانت الأميرة الأولى قد انتهت من وضوئها وارتدت ثوب الصلاة وسجدت في الظل ناصعة البياض.

عدنا في ساعة متأخرة فأشار الأمير بالنوم مباشرة وأخذت أعد مرتبتي الهوائية ولكن الأمير عارض وقال: في بلاد العرب يجب أن أنام كما ينام العرب.. فأحضروا مجموعة من اللحافات بينهما كيس يتدحرج داخله اليمينيون ويقفلونه وهم يمضون الليل على نفس الفراش الذي جلسوا عليه طيلة النهار وكل ما يتمتع به المترفون هو مزيد من اللحافات تجعل المكان ليناً ناعماً وكلف الأمير زوجته الأولى بالبقاء معي لكن هذا لم يحز منها القبول ولعلي قد أخللت بأمر مرتب ومنظم كانت ستفيد منه وتنعم ذلك

المساء!..

لهذا فقد تعلقت بعنق سيدها وسالت كلماتها دون انقطاع.. ياله من إصرار عجيب من جانب مخلوق طاهر كهذا، ولكن الأمير الذي يقدر واجباته كمضيف ظل لاينثني ولايلين.. وكل ماوافق عليه هو أن تكون معنا أيضاً خادمة وغادر الحجرة مسروراً ومعه زنجية كان يضربها مداعباً ومدلاً.

كان اليوم التالي هادئاً ولم تكن لي رغبة في السفر وقد وجد صلاح مبرراً للتأخر.. أمضيت مع النساء لحظات أخيرة فوجدت الأولى تزيد صفاء أما الثانية والثالثة فمتحفظتان تسيران إلى الانقراض تماماً، والرابعة لها عيون متقدة وبشرة قاتمة لكنها لاتجرو على أن تفتح فاهها.. وعلى العكس دخلت مع الأمير في حديث طويل فقد كان منشرحاً منفتحاً، ذكياً ولم تسعفني قواميس العرب السوريين والمصريين فوضعت لي في دفتر خاص قاموساً صغيراً (فرنسي - يماني) أكتب فيه ما أكتسبه من كلمات جديدة، وقد تقدمت في هذا المضمار بمساعدة الأمير وساعدني في هذا طبيب الأمير وحلاقه ومطربه، وهو هنا يشرف على علاج الأمير ويسليه في صنعاء، وكان طبيباً محبوباً عند أسرة نائب الإمام وله في السوق دكان صغير يبيع فيه الأدوية، وقد ترددت عليه فيما بعد وكنت أضحك وأنا أسمعه يقول من الكوة الصغيرة التي يسميها المعمل؟ (أنا.. فيلسوف)!

لكن هذه الوظائف العالية التي يتقلدها قد أوجدت له كثيراً من الحاسدين وقد وقع قبيل سفري ضحية دسياسة رخيصة من تلك التي يلفقونها في صنعاء إذا أرادوا التخلص من منافس فأكمام الرجل الطويلة التي يرفعونها ويعقدونها في الظهر تصلح أن تكون كيساً لنقل أشياء كثيرة وقد يعترضك واحد في الشارع ويضع فيها زجاجة تفوح منها رائحة الكحول ثم يتعلق بك ويتهمك بالسير مختل التوازن وبأنك ثمل اسكرتك الخمرة ويأتي البوليس وتودع في السجن وقد كانت حياة هذا الفيلسوف العائلية مثالية فله خمسة أطفال أذكيا أحسن تربيتهم واهتم بتنشئتهم ولما اعتقل ضاقت بهم الحياة وساءت أحوالهم.

وأراد أصدقاؤه أن يشتروا حريته وكان الأخذ والرد قد وصل قبل سفري علي ثلاثين ريالاً بالتمام والكمال..

أما في حمام علي فإنه كان لايزال في القمة فهو يتمتع برضا الأمير وكان فناؤه جميلاً جداً وهو يعزف أيضاً على آلة شبيهة بالقيثار، وقد حذرني الأمير بأسف واضح أنني لن أسمع في صنعاء الحان هذه الآلة فهي محرمة في صنعاء.

وفي تعز بالفعل لم أر إلا قيثارة واحدة عند أحد المرضى وقد اعترف لي أنه يعزف عليها خفية في ظلام الليل. ودعوته إلى منزلي وقام بالكشف الأولي وقال لي إن البيت ليس مستوراً بصورة كافية وطلب أن نترك الراديو يشوش أثناء العزف.. وبهذا حرمت

سماع أي شيء.

انتظرت المساء بفارغ الصبر، فقد عرفت أن سكان الجبال المجاورة لحمام علي سيقومون ببعض الرقصات أمام أميرهم، وجاؤوا وظهرنا من النافذة نستند على السجاجيد والوسائد، ودعاني الأمير للجلوس إلى جواره ولم تظهر امرأة واحدة لا أميرة ولا فلاح في هذه الأثناء وكان مصباح الغاز ينير الساحة للراقين وللفرقة الموسيقية التي تألفت من المزامير والطبول.

وكانت الرقصات الأولى شبيهة برقصات عيد النصر في تعز، وكان زميلي الموسيقا يترجم لي معاني الكلمات، وقد فهمت المشية العذبة الفاترة في هذه الرقصة، إنها رقصة الصداقة والود بين الرجال، وكانت أغنيتهم تقول: (الجبل عظيم وجميل، وشفاه حبيبي كالعسل وقد التقت شفتانا ونحن في الطريق إلى الجبل).

وبعد هذه الرقصة رقصوا الحرب، فتواجه رجالان ولوحا بالخناجر، وتحركا بوحشية ثم هداً بينما تقدم أحدهما إلينا.

كان شاباً لا يلبس إلا فوطة حول خصره ، ورأسه غابة من الشعر الأسود المجعد المرسل إلى الكتفين. أغمض عينيه وأصبح وجهه غريباً وأخذ يهز ركبته وقد ثنأها في انحناءة صغيرة فوق قدميه اللتين ظللتا ثابتتين في الأرض، والطبل يصحبه وحيداً هادئاً، أمسك بخنجره وفي الحال القيت خمسة خناجر إلى الأرض في نصف دائرة أمامه وبعينين مغمضتين ورأس يترجح إلى الأمام وإلى الخلف وشعر منكوش في كل جانب التقط الخنجر الثاني في سرعة خاطفة ثم الثالث.. والرابع والخامس والسادس فأصبح في كل يد ثلاثة خناجر، ودقات الطبول تزداد سرعة ولم نعد نرى إلا دوامة من أذرع وشعر ونصال لامعة ووجه مقلوب، كل هذا فوق قدمين ثابتتين لاتتحركان.. وفي عنفوان الرقص وقف فجأة وجذبه الرجال ولم يبد على وجهه أي أثر.

وفي صباح اليوم الثاني استأنفنا السفير وكانت طريقنا في الجهة الشرقية لجبل حراز .

٤

إن الصعود شاق مرهق في المرتفع الذي يفصل سهل صنعاء عن سهل ذمار.. وديان ضيقة تحيط بها الجبال وعلى جوانب الطريق حقول وقرى تجثم فوق أصغر الروابي والأكام ومن جديد تقاطعت طريقنا مع قنوات الري.

لقد وصلنا إلى ارتفاع ٢٢٠٠ متر وبدأنا نشعر ببرودة الجو، وفي السهل ارتفعت في بعض الأماكن زوابع وعواصف من التراب مخروطية الشكل ورأسها في أسفل، وكانت تنثني وتتلوى كالراقصة، قال صلاح إنها معارك الجن.. وقد قطعنا قرية معبر الصغيرة دون أن نتوقف فيها.

أما صنعاء فقد كنت أنظر إليها في الحلم. لقد فصلتني زبيد وعبال وحمام علي عن

العالم نهائياً، وهأنذا أفكر فيما سأكون عليه هنا.. إنني في وضع ممتاز، فأنا امرأة ولهذا فسيأذن لي الرجال بالوصول إلى حياتهم الزوجية والتعرف على أسرار نسائهم الخفية، وأنا طبيبة ولا بد أن يسمح الرجال لأنفسهم فيعترفون لي بالمساواة في حياتهم. وقد أستطيع بهذا أن أعرف الجانبين في المجتمع الإسلامي وأن أفهم التوازن العميق وأدرك ما إذا كانوا هنا قد وجدوا أفضل الحلول، أحسن من أي مكان آخر..

كم يشعر المرء بالخيبة وهو يصل بالطائرة إلى مدينة جديدة، إنها بعثرة لحب الاستطلاع وضياح للأمل حين يضع الإنسان قدميه في عالم قد عرفه وحدده من الجو ورآه تحته خريطة مفروشة واضحة المعالم، ومع ذلك فإذا كان الغرض هو تقصير لحظات الوداع المؤلمة حين تأتي النظرة الأخيرة وتذهب بكل الذكريات في وقت واحد، فإن الطائرة مناسبة، ولكن مدينة من مدن الشرق يجب أن تكون نهاية لسفر هادئ بطيء على نفس الطريق التي سلكتها القوافل القديمة، فبهذا وحده تأخذ المدينة قيمتها الإنسانية وطابعها الحقيقي.

إن صنعاء مدينة خارقة للعادة حين ينظر إليها من الجو، فهي مزدحمة محصورة داخل أسوارها ولكنها في نظر المسافر الذي قطع الجبال سعياً إليها، خلابة رائعة فقد قضى أياماً لم ير خلالها إلا قرى صغيرة بائسة معلقة على قمم المنحدرات الصخرية وأكواخاً تعسة تنم عن حياة بدائية وأقل من بدائية ثم فجأة يرى أمامه مدينة ضخمة سكانها ستون ألفاً، في موقع رحب على سهل فسيح ولها كل مظاهر العاصمة الكبيرة، مدينة لها عمارتها، الشاهقة المتلاصقة الفخمة المغطاة بالزخرفة والنقوش البيضاء وتعلوها المنارات العديدة.

إن هذا التناقض يأخذ باللب لكأن هذا المجموع المعماري المتناسق بهذا الغني وهذه الوفرة برز بفعل السحر في إطار يكاد يكون كله من المعدن، إن هذه هي الأصالة العميقة لصنعاء وهي التي كونت لها مجدها منذ أزمان طويلة في جنوب الجزيرة العربية.

لا يثير دهشة الأوروبي أكثر من مدينة عظيمة بلا نهر، بلا ينابيع على سطح الأرض، إن هذا نوع من التحدي للقوانين الاقتصادية ولكن المياه الجوفية على عمق ثلاثين متراً تغذي الآبار التي لا تنضب طوال العام وبفضلها ظلت صنعاء منذ ألفي سنة مركزاً طبيعياً للعربية السعيدة.

إن الماء في هذا الارتفاع لا يخلف ذلك الفيض النباتي الذي نراه في الواحات الاستوائية فالحقول في نهاية شهر يناير قد حرثت والأشجار قد تساقطت أوراقها وكانت طريقنا تخرق مقابر صخرية كثيرة تشهد على وجود حياة قديمة جداً، وكانت التربة سمراء اللون والجبال المحيطة رمادية وتميل إلى الزرقة، وكما اقتربنا في هذا المنظر الهادئ برزت صنعاء من فوق أسوارها، ناصعة البياض، ساطعة تحت شمس الظهيرة، فأني وصف وأية صورة فوتوغرافية ما كان يمكنهما أن يكشفاً لي جمال منظر

كهذا.

أسوار من الطين كثيفة وعالية تزينها أبراج تحيط المدينة من كل جانب، أبواب تقفل في الليل والباب الرئيسي هو باب اليمن الذي يفتح إلى الجنوب، والذي يجب أن يدخل منه الأجانب تلك قاعدة متبعة بدقة تفسرها خراقة قديمة، فقد كان في عقد الباب طلسم أو حجاب للحماية فإذا اجتازه العدو أو الثعبان السام خر لتوه صعقاً، ولكن الباب العربي القديم قد حل محله للأسف باب تركي ... صنع حديثاً، وقد اختفى الطلسم، فليحفظ الله هذه المدينة ولتحرصها حكمة الامام.

ومن المطار يمر المسافرون حول المدينة القديمة حتى يصلوا إلى دار الضيافة التي تقع خارج الأسوار، أما القادم عن طريق البر فإنه سيجد العجب العجائب وهو يمر في قلب المدينة، اجتزنا باب اليمن ووقفت السيارة وأسرع عساكر الحراسة يرحبون بنا وقد اعجب صلاح أن يكون موضع الاهتمام فأطال لحظات سعادته هذه، وظل يبحث عن التصريح في ثنايا ثوبه، وتجمع الناس حولنا وكان الاطفال في الصفوف الأولى وخلفهم الشباب في ثيابهم الفاتحة اللون ونظراتهم المحبة للاستطلاع ، اما الكبار فقد ظلوا بعيداً محتفظين بوقارهم، وقد تبينت الوضع فجأة من كل هذا : ان صنعاء ليس فيها من الأوروبيين سوى ثلاثة.

لكن صلاحاً تخلص من الجمع واتخذ طريقه إلى دار الضيافة، وكانت السيارة تمر بنا في شارع واسع تتفرع منه شوارع ضيقة، وعلى الجوانب بيوت مؤلفة من خمسة أدوار أو ستة حديثة بل وغريبة، على واجهاتها نوافذ عديدة.

والجو في صنعاء معتدل دائماً فلا هو حار ولا هو بارد ولا يتعدى ٣٠ درجة مئوية في شمس يونيو، ولا يقل عن الصفر في بعض ليالي يناير، ولهذا فالبيوت ليست محكمة القفل، كما في كثير من البلدان الآسيوية حيث تأخذ الشكل المعروف لجسم هندسي نادر الفتحات وإذا كانت درجة الحرارة في هذا الارتفاع لطيفة فإن الجو صاف جداً دائماً والرمال كثيرة، وتفادياً للرمال يرتفع الطابق الأرضي ويبنى من الحجارة ولا تفتح فيه نوافذ أما الطوابق التالية فمن الأجر والطابق العلوي كثير النوافذ وهو أكثر الطوابق صحة وسلامة وتشريفاً وزخرفة.

وتظل العين في شوارع صنعاء مأخوذة بهذه العمارات الشاهقة وتشاهد أجمل المناظر من أعلى طابق يطل على المنازل المجاورة والزخرفة الرئيسية في بيوت صنعاء هي النوافذ الواسعة العالية، فلا يمكن لاحد أن يتصور المدينة دون أن يفهم هذه النوافذ .

أنها تتكون من جزئين الجزء الأسفل وهو النافذة بمعنى الكلمة ولها عدة مصاريع خشبية والجزء العلوي وهو عقد من الزجاج الملون الثابت الذي لا يفتح ، ومن أسلوب صناعته ونوعها يعرف الإنسان تاريخ البناء، وقد عرف اليمنيون كيف يصنعون هذه العقود الزجاجية وكيف يتفادون تراكم الغبار والرمال عليها، ورسموا عليها زخارف عديدة بالزجاج الملون الذي يعكس أشعة الشمس.

ويستطيع الإنسان هنا، لحسن الحظ أن يتنزه وأنفه في السماء، ودون خطر فالشوارع خالية من الدراجات والسيارات والأرض مفروشة بالرمال النظيفة كممرات قصر من القصور وتمر سيارتنا الجيب برجال يتنزهون وأيديهم متشابكة وبهائم تسير بخطوات قصيرة سريعة يسوقها رجال طاعنون في السن هزيلون يضعون على أكتافهم جلد خروف وكأنهم خرجوا لتوهم من الأسفار المقدسة القديمة، أما الخيل الفاخرة الأصيلة فهادئة ساكنة تحيط رقابها عقود من الحرير ويمتطيها أسياذ ذوو هيئة صارمة يحتزمون بالخناجر ويشمرون القمصان اللامعة ويرفعونها فوق السرج وكأنهم خرجوا مباشرة من احدى قصص ألف ليلة وليلة، وقد تأرجح خيالي بين العهد القديم وأقاصيص شهرزاد وسبب لي هذا كله دواراً غريباً .. قد يجد الإنسان في بقاع من العالم غير صنعاء حياة غريبة وغير عادية، إلا ان هذه البقاع ستكون بلا شك بعيدة عن الحضارة والمدنية ولكن الإنسان يجد في كل بلد متمدين أي اثر للحضارة الأوروبية، أما صنعاء فليس فيها شيء على الاطلاق أن شيئاً من الغرب لا يعكر هذا السحر وتلك الفتنة وقد صعب علي أن أهضم كل ما حولي، وكان وقع الدهشة والاعجاب بكل هذا كوقع الشحنة الكهربائية لقد ذهلت في اللحظة الأولى ولكني بعدئذ أحببت صنعاء من أعماقي.

إن دار الضيافة تتكون من طابق واحد بني فوق دور أرضي أثناء الاحتلال التركي، وعمارتها تختلف قليلاً عن طريقة العمارة التقليدية.

في وسط الدار نافورة وبركة محاطة بالزهور والباب الكبير مدهون بالألوان الأزرق والأخضر والأحمر ويحرسه نحو عشرة عساكر، وضعت صفوف السرر على جانبي الطريق، وهي سرر يقضي عليها العساكر أيامهم جالسين في استرخاء وفي أيديهم قسبة النارجيلة وأمامهم نافورة يتأملون هديرها.

ويشغل الدور الأرضي المسافرون العاديون أما الطابق العلوي فينزل به الأوروبيون والسفراء والحجرات مؤثثة منذ العهد العثماني بالسجاد الفارسي والمناضد المستديرة والكراسي الصلبة العالية الشبيهة بالكراسي الفرنسية لعهد هنري الثاني، وعلى النوافذ ستائر طويلة ضيقة، ولكن الضيوف قلما يصلون إلى صنعاء وأنا لهذا وحيدة في هذه الدار الواسعة.

إن حجرة الاستقبال خاصة بالمناسبات وقد كانوا يقدمون لي وجبات الطعام في حجرة طويلة في زواياها خزائن مصبوغة بألوان ذهبية إليها بعد ظهر ذات يوم لأشرب كوباً من الماء، فسمعت شخيراً خفيفاً خيل لي أنه يأتي من مائدة مغطاة بجوار الحائط في نهاية الحجرة، كانت قسبة المداعة (النارجيلة) تتدلى إلى الأرض ورفعت القسبة، فماذا رأيت ؟ لقد رأيت رئيس السفرجية الذي قدم لي الغداء إنه يأخذ راحته فوق كومة من الوسائد وقد تعود أن يقضي القيلولة في هذه البرودة المنعشة تحت موائد حجرة الطعام.

قدم لي مدير دار الضيافة شاباً جميلاً طويلاً نحيفاً يعلو شفثيه مشروع شنب ويرتدي جلباباً طويلاً أحمر اللون عمامته كبيرة دمشقية زرقاء فضية اللون تنتهي عذبتها بأهداب وقد قدمه المدير باهتمام كبير هدية لي نعم انه خادمي وقد ظلت لحظة مبهورة بينما يفتر ثغر أحمد عن ابتسامه خجولة وهو يخفض عينيه في حياء يقدمها أبواها.

ثم تعرفت بعد ذلك بعده الذي أصبح مترجمي انه رجل قصير نحيف في نحو الستين من عمره، يضع على رأسه عمامة من الصوف الأسود ويلبس سترة من الكاكي ويلتحف بشال وردي اللون ويحتزم بخنجر جميل جداً، إنه الترجمان المعتاد لكل الفرنسيين في صنعاء فقد كان سائقاً في شركة فرنسية للملاحة، بل إنه تزوج بفتاة فرنسية ابنة رقيب في الجيش الفرنسي، أما زوجته فقد ماتت، وبعد عودته إلى اليمن كون عائلة جديدة، وقد حدثوني عنه كثيراً ولا يخلو وجهه المعبر من الطيبة وقد سألتني في أول مقابلة (هل صحيح ، يا حكيمة أنك رفضت ركوب الطائرة في مطار تعز ؟) وقد قلت له كما قلت لنائب الإمام إني لا أستطيع أن أعمل شيئاً بدون حقائي، وقد أيدني وأخذ يعدد مزايا السفر براً في العالم كله وفي اليمن خاصة، وكان يتحدث برقة ومهارة حتى خيل إليّ إني أستطيع أن اتخذه صديقاً.

كنت أود أن أترك دار الضيافة وأن يكون لي بيت، وأن أصبح جزءاً من البلد فكلفت عبده أن يستعجل الترتيبات.

أخذني حالاً لزيارة البيت الذي كان قد أعد لي ولم يكن بعيداً عن دار الضيافة وهو بيت قديم لحاكم تركي ويطلقون عليه بيت (أبو مسمار) وقد انتقلت ملكية البيت بعد رحيل الاتراك إلى الحكومة اليمنية التي خصصته للأطباء الفرنسيين وهو بيت طويل ذو طابق واحد وتتوسط الحديقة شجرة الغار الوردية بكل جلالها ولا بد أنها كانت رائعة ممتعة لكنها لم تنسق منذ رحيل الدكتور ريبوليه ولم تعد لهذا السبب سوى كومة من الكالأ الجاف يعبث بها الغزال وفي الحديقة حجرة أمامها بركة مربعة ونافورة ثم المفرج أو قاعة الاستراحة التي يجلس فيها الأصدقاء بعد الظهر ولا يخلو منها أي بيت محترم وقد خصص جانب من البيت للدكتور ريبوليه ومساعدته وتنتظرهما فيه حقائبهما وأمتعتهما.

أما أنا فقد أعدوا لي الجانب الذي كان خاصاً بالحريم والذي نزلت فيه الدكتورة جنيف لانسوي في العام الماضي، وجدرانه بيضاء وتبدو في سقوفه نتوءات بارزة للأخشاب المصبوغة بالجص أما بيت الماء فواسع مفروش بالبلاط المربع وفيه حوض ماء وموقد للفحم فوقه غلاية لتسخين ماء الاستحمام وقاع الحجرات من الجص ومفروش بالحصير، وللجص اليمني مزية التماسك والالتصاق النادرة، فيستطيع الإنسان أن يتكى على الحائط دون أن تتأثر ملابسه، وإذا أثبت فيه مسماراً فلا يحدث شقوقاً ولا تفتتاً.

إن الأبواب الداخلية الخشبية الغليظة في البيت اليمني منخفضة ولا شك أن السبب هو ندرة الخشب، ولكن بعض المصريين يرجعون هذا إلى سبب آخر فهم يقولون إن

في اليمنى أنفة وكبرياء وأن احد الأئمة القدماء وقد ساءه أن يرى رعاياه هكذا أصدر قانوناً يحدد ارتفاع الأبواب، وبهذا أرغم كل إنسان على التحية والإنحناء عند الدخول. وكما أن جمال البيوت الخارجي يكمن في النوافذ، فإن النوافذ أيضاً تتجلى بالأناقة والبهاء في الداخل فهي لا تطلو عن قاع الحجرة إلا بنحو ثلاثين سنتمراً، وهذا مناسب بحيث يتمكن الجالسون على الفرش والمساند من النظر إلى الخارج وبين النافذة والعقد الرخامي يوجد دائماً رف يضعون فيه كل شيء، فالغرف خالية من الأثاث، والعقد الزجاجية ترتفع إلى السقف، وهي تتألف من قطع زجاجية متعددة الألوان يصل بينها شريط من الجص الأبيض وتنفذ من العقود الزجاجية أنوار بهيجة مفرحة وتنعكس على الجدران البيضاء وقد شعرت على الفور في هذه الحجرات الصغيرة الرائعة أنني في بيتي ووافق مدير الضيافة على انتقالي في الحال إلى هذا البيت وقد اختار لي الأثاث الضروري من مخازن دار الضيافة، وقام العساكر بنقله وكان كل شيء قد أعد في نفس المساء، دولاب وسرير في حجرة النوم، كراسي في سفرة الطعام وحجرة لفحص المرضى الخصوصيين وصالون عربي ساحر مؤثث بالوسائد والفرش والسجاد.. انتهينا من إعداد البيت واحتجت خادمة، لكن عبده قال لي عندما استشرته أن هذا مستحيل، فالعرب يرفضون أن تكون نساؤهم خادمات في بيوت الغير.

إن أحمد خادمي الجميل في دار الضيافة سيقوم بالطبخ والكي، ولكنه - بكل تأكيد - لن يقبل أن يتنازل ويكنس ويحضر المياه إلا أن عبده وجد فتاة في الخامسة عشرة مرحلة تفيض حيوية اسمها هاجر.

وفي بيت أبو مسمار مستخدمون ثابتون وهم البستاني والحرس وكان البستاني رجلاً قوياً في سن الأربعين استأجر من الحكومة بستان الخضر والفواكه المتصل بالبيت، ومهمته توفير المياه لنزلاء البيت، ويظل البعير يصعد وينزل دون توقف في طريق منح، حتى يرتفع الماء من البئر العميقة، وفي كل وقفة يفرغ الدلو ما حمله من ماء في حوض مرتفع وتتحرك النافورة وتمتلئ البركة التي تفتح كل يومين لسقي البستان وكان البستاني يسكن في حجرة بائسة لا نوافذ لها تقع تحت طريق البعير المنحني، وحياته بائسة تعيسة تعتمد على ما يجنيه من الخضروات والفواكه ومعه زوجته وأولاده وأمه، وكثيراً ما كنت أزوره فأجده مشغولاً بتغيير السيور الجلدية لحبال رفع المياه، ومشكلته المعتادة هي التفكير فيما إذا كان يستطيع أن يجني محصوله من الخضروات ويبيعه بنفسه، أم أنه سيضطر مقدماً للاستسلام وتقديم الجزر لتاجر كبير من تجار السوق، وكان سعيداً وهو يرى الأزهار الإفرنسية تنتب وترتفع إلى الدور الثاني وتظل مزدهرة ثمانية عشر شهراً دون انقطاع وكان أمه أن تكون له آلة رافعة للمياه يوماً ما.

أما حرس بيت أبو مسمار فقد كانوا ثلاثة من العساكر إثنان لمقصورة ريبوليه وواحد لمقصورتني وكان لهم مكان صغير عند المدخل يعلقون على جدرانه خناجرهم وبنادقهم

، كانوا ينامون على الأرض فوق الحصير، أما طعامهم فيطبخونه على الموقد خارج غرفتهم وكانت مهمتهم إدخال المرضى بعد أخذ بقشيش يتناسب مع أهمية الزبون، وكل ما طلبته منهم هو ألا يأخذوا شيئاً من الفقراء وكانوا بجانب هذا يحملون الرسائل لأنه ليس في صنعاء بريد داخلي وكانوا بدون شك يقومون بالتجسس ولكن جاسوساً تدفع له الحكومة ريالين في الأسبوع لا يمكن أن تكون له خطورة ومع ذلك فلم يكن هناك ما يقولونه عني، كما أنني لم أجد ما أشكوه منهم وهم في الغالب، يأتون من الريف ويظلون عندنا طوال الفترة التي تعسكر فيها فرقتهم في صنعاء وهم لهذا يتغيرون وكان ينشأ عن هذا أسف متبادل في أغلب الأحوال وقد شهدت منهم أثناء وجودي شيخاً ذا لحية كثة وابتسامة لطيفة وثانياً أبله مسكيناً وشخصاً ثالثاً قلقاً غامض النظرات ورابعاً كان قاتلاً لكنه كان بريئاً رفيقاً ، وأخيراً شاباً جميلاً ذكياً، وقد فصل بسبب هفوات صغيرة وأصبح مباشرة محل ثقة أمير سنتحدث عنه فيما بعد وهؤلاء العساكر يجندون لخدمة الحكومة اليمنية لعدد غير محدود من السنين، وليس في استطاعتهم أن يتركوا الجندية بمحض إرادتهم، بل إنهم يعيشون حياة لا طموح فيها ولا أمل وهم فقراء إلى درجة لا يستطيعون أن يكونوا عائلات وهم لهذا يقضون أيامهم بطريقتهم الخاصة.

هذا هو بيتي ولا ينقصني إلا العربية والسائق، وقد قدموا لي عبد الله وهو من جنود المدفعية ، فالعربات في اليمن كلها تأتي من الخارج ولا يستطيع قيادتها إلا رجال المدفعية وكان عبد الله يحمل شارات إختصاصية بكل فخر.. شنباً ولحية دائرية.. بعثت نظراته القوية الجميلة عندي الثقة التي دامت ولم يحدث منه ما يضعف هذه الثقة فيما بعد وقد كان محظوظاً مرحاً محبوباً عند النساء وكان في أكثر أوقاته غارقاً في مغامراته العاطفية وفي خلال هذه الأوقات كان أخوه الصغير محمد يقوم بعمله.

جاءني عبده بعد يومين يقول لي والسرور باد على وجهي (عربتك جاهزة.. يا حكيمة وسيأتي عبد الله في الحال) وبالفعل اقترب الركب سريعاً وسط الجلبة والضجة ولا بد أن أعترف أنه كان موكباً رائعاً: حصان أسود صغير جميل، عربة خفيفة أنيقة مجهزة بالوسائد الصغيرة ثم عبد الله في ثيابه البيضاء وقد غرس في عمامته أغصان النصر والظفر وتجمع سكان الحي ولا حد لإعجابهم ولكن ما إن تحركت العربة حتى أحدثت أصواتاً طائشة مقلقة، فتوقف عبد الله وشد إليه الزمام وصرخ في الناس أن يفسحوا له الطريق، وقد التفت إلى عبده متسائلاً فأجاب بكل هدوء: (هذه يا حكيمة هي المرة الأولى التي يربط فيها هذا الحصان إلى عربة فهو لم يروض بعد وسنذهب إلى المستشفى بمجرد أن يتعلم جر العربة).

كان جوداي الحجاب ذا طبع لطيف، ولكنه كان في حاجة إلى أيام عديدة حتى يتعود على جر العربات. وقد استقبلت في هذه الفترة بعض الزوار الذين وصلوا للترحيب بي ومنهم زميلي الدكتور فينروني. وكان الدكتور فينروني هزياً في نحو الستين من

عمره وهو يقيم منذ زمان طويل في صنعاء في بيت كبير مع خادمين وكلبين.. ويبدو أنه لا يجب الحياة الاجتماعية فرغم أن علاقتنا كانت ودية فقد ظلت محصورة في نطاق العمل. أما الميكانيكي جيمنياني وزوجه وأولاده فقد انعزلوا وحيدين ولم تسنح لي الفرص لرؤيتهم كثيراً.. وعلى العكس.. فقد صادقت القاضي محمد راغب بسرعة وهو دبلوماسي تركي قديم بقي في اليمن بعد استقلالها وزيراً للإمام يحيى وهو يجيد اللغة الفرنسية. وقد تقدمت به السن فأصبح نصف متقاعد، ولكن كل هذا لم يؤثر في مزاياه، وقد جعل منه ذكاؤه الحاد وعطفه وكلمته ودهاؤه دائماً أحسن مستشار للأوربيين.

كانت الجالية في عهد الإمام العجوز أكثر عدداً منها اليوم، فقد كان في صنعاء عشرات من الإيطاليين، والإنجليز، وبعثة طبية سوفيتية، وأول بعثة فرنسية-أما الآن- فالإمام مقيم في تعز والعاصمة القديمة نائمة، وكل من فيها يذكر بأسى أيامها الحلوة الماضية. وإذا كان المترددون عليّ في بيتي قليلين فإن الطلبات كانت تنهال عليّ لزيارة أصحابها في بيوتهم. وبفضل هذه الزيارات عرفت المدينة بسرعة وصنعاء من الشرق إلى الغرب تتكون من أجزاء ثلاثة متميزة تماماً، المدينة القديمة..حي بئر العزب حيث تقع دار الضيافة وبيت أبو مسمار، ثم حي اليهود.

أما المدينة القديمة فهي أقدم أقسام صنعاء وأكثرها اتساعاً ويسكنها قرابة أربعين ألفاً، وهي تمتد في الشرق إلى سفح جبل نقم الذي يلحظ الإنسان قمته خيال حصن قام على أطلال قصر سام بن نوح، أبي الساميين جميعاً..إن أسوار المدينة ترتفع عشرة أمتار وتعلوها طريق دائرية ويعززها مائة وثمانية عشر برجاً. وفي هذه الأسوار أبواب ستة ففي الشرق باب القصر، وفي الشمال باب شعوب، وباب الشقايف، وفي الغرب جهة حي بئر العزب باب السباح، وفي الجنوب باب اليمن وباب خزيمة.

ولباب خزيمة أسطورة...فقبل ستمائة سنة كانت خزيمة شابة مسيحية ابنة أوروبي مارس في صنعاء تجارة البهارات والتوابل، وقد أشرف على تربيتها طباح عربي عجوز وعلمها قراءة القرآن، وبعد أن كَوّن هذا التاجر ثروة كبيرة صفى أملاكه وعاد إلى بلاده مع ابنته وخادمها الذي رغب في السفر معهما.

وقد نشأت خزيمة على الحكمة والرصانة والجمال، ولم تستطع أن تنسى شمس اليمن المشرقة وهواءها المنعش وجبالها الجميلة، فظلت حزينة ورفضت أن تتزوج. وقد مات أبوها ثم مات خادمها الوفي وتركها في وحدة تامة. وأخيراً ماتت هي وأوصت بأراضيها وقصرها للفقراء، ورغبت أن تدفن ومعها حقائبها المليئة بالذهب، وفي يدها رسالة مكتوبة باللغة العربية، ولم ير الناس في هذا العمل في ذلك الزمان سوى طلسم شيطاني..ولكنهم مع هذا نفذوا وصيتها.

وكان يعيش في صنعاء، وفي نفس العصر، رجل متعبد، وهب نفسه للصلاة وتلاوة القرآن، وذات مساء رأى في الحلم خزيمة التي عرفها وهي طفلة، وكانت ترتدي ثوباً أبيض اللون كأي فتاة مسلمة ومدفونة على نفس الأرض بجوار باب من أبواب

صنعاء، وكانت تمسك بيدها رسالة طلبت منه أن يوصلها إلى الإمام، وكان الحلم حياً قوياً واضحاً لم يجد معه الرجل أي مجال للتردد.

وفي الصباح ذهب الرجل مسرعاً إلى الإمام وطلب منه أن يسير وراءه وقد تبين المكان بسرعة، ولم يحفروا إلا قليلاً حتى بدت خزيمة، لقد كانت موجودة... جميلة.. نضرة، ماتت في وطنها البعيد، ولكنها دفنت بمعجزة في اليمن، ورقدت على حقائب الذهب. وكان في يدها رسالة فتحها الإمام فوجد أن خزيمة قد قدمت للفقراء في صنعاء، أولئك الذين تحب أن تظل بجوارهم إلى الأبد، وبهذا الذهب بنى الإمام بيوتاً، وحفر آباراً، ووزع على البؤساء الأراضي الواقعة في جنوب المدينة، وكان كل واحد يود أن يدفن إلى جوار هذا القبر المعجزة، ولا يعرف أحد مكان هذا القبر اليوم، ولكن مقبرة واسعة تمتد بجانب باب خزيمة.

إن أقدم أحياء المدينة تقع في الشرق بجوار القصر، قلعة ضخمة تقوي أسوار صنعاء على منحدرات جبل نغم. وبين باب اليمن والقصر يسير شارع واسع ترتفع الأشجار على جانبيه، وتوجد بجوار الأسوار بيوت عالية يرجع تاريخها إلى عدة قرون، ويعيش فيها كثير من عمالئي البارزين بينهم قاضي اليمن الكبير يحيى الشهاري، ولكن تلك البيوت لا تعرف النوافذ الزجاجية حتى الآن، فنوافذها صغيرة، بل العقود الزجاجية التي لا غنى عنها فوق أية نافذة في صنعاء، ليست في هذه البيوت إلا عبارة عن لوحين رقيقين من الرخام، موضوعين الواحد فوق الآخر بصورة فائقة الأناقة والجمال، ومع هذا فقد يعاد بناء الدور العلوي أحياناً فتصبح نوافذه حديثة جيدة. وحجرة الاستقبال توجد دائماً في الدور العلوي وهي التي يسمونها هنا ((المفرج)) وهو مفتوح من جهات ثلاث وأمامه شرفة تستطيع النساء أن يتنزهن فيها دون أن يراهن أحد.

ويوجد في الشارع بجانب مدخل البيت الرئيسي بنيان صغير أمامه درجة واحدة وهذا يدل على ورع صاحب البيت وتقاه فقد بناه من أجل المارة الذين قد يحملون شيئاً على ظهورهم، ويشعرون بالتعب وهم يسرون به، فيضعون هنا ما على كاهلهم ويستريحون قليلاً، ويدعون لصاحب البيت ويشكرون الله.

ويبدو في واجهة البيت شريط من الجبس الأبيض يمتد من أعلى البيت إلى أسفله، وهو أكثر اتساعاً في أسفله منه في أعلاه، وفيه فتحات صغيرة تتصل ببيت الماء في كل طابق وتتدفق منها المياه المستعملة إلى الخارج لتصل إلى البالوعة في أسفل البيت، أما الممر الداخلي للمراحيض فيصب في فتحة مكشوفة في الشارع بجانب البالوعة. ومن المهن الصغيرة في المدينة، جمع هذه الفضلات من فتحات البيوت، وصنع السماد منها والمحروقات، وليس في صنعاء أي وسيلة أخرى للمجاري، إلا أن الهواء الجاف والشمس القوية يمنعان انتشار الرائحة الكريهة. ولم يتغير شيء في هذا الحي منذ زيارة نيبور.

وفي هذا الشارع منذ ثلاثمائة سنة مر ذات يوم مركب الفضيحة والعار.. فقد تمرد شاب نبيل على الإمام، فلطخوه باللون الأحمر وربطوه على ظهر جمل ووجهه إلى الوراء، ومروا به أمام بيته قبل أن ينفذوا فيه الإعدام.. واحتجاجاً على هذه الإهانة الموجهة إلى شرف الأسرة بهذه الصورة المشينة ألقت أخت هذا الشاب بنفسها من النافذة وتهشمت أمام الموكب.

إن البيوت المبنية فوق عدة طبقات تحت الأرض. ولعل مستوى الشارع قد ارتفع منذ تأسيس المدينة، ويذكر الهمداني المؤرخ اليمني الذي عاش في القرن الثامن، أن قصر غمدان الذي شيد قبل الميلاد بزمان، يقع في هذه المنطقة.. وغمدان قصر مؤلف من عشرين دوراً تعلوها شرفة ومفرج سقفه من الرخام، وكان هذا أول بناء شاهق في صنعاء، وأول بنيان يشيد بالآجر بدلاً من الطوب النيء، ويقول الهمداني إن هذا الفن الجديد قد جاء إلى صنعاء من الشمال، ومن النصوص القديمة يلمس الإنسان أن أسلوب العمارة في صنعاء يرجع إلى نفوذ سكان ما بين النهرين، وأن هذه القصور ما هي إلا مخلفات بابل.

يصل الإنسان في القصر إلى قلب المدينة حيث الأسواق والجامع الكبير. والأسواق مدن صغيرة داخل المدينة الكبيرة، فلا تزال حتى الآن مركزاً لحرف حية جداً، ولا تستطيع السيارة المرور فيها، وقد ترددت عليها وأنا ممتطية جوادي .. وأحياء صنعاء تتخصص في مهن مختلفة: فمحلات الصباغ والنسيج بجوار القصر، وطاحونة الزيت بالقرب من باب اليمن وصاقلو الأحجار الكريمة في السائلة، وبجانب الجامع الكبير يجلدون الكتب.

والجامع الكبير يرجع عهده إلى القرن السابع وهو واحد من أكرم مساجد الإسلام ويحتمل أن يكون شيد في مكان كنيسة مسيحية، إلا أن النقوش القديمة القليلة لا تسمح إلا بمجرد احتمالات، وهو بناء مربع ضخم مكّون من رواق مسقوف حول بهو في وسطه بناء شبيه بالكعبة، لكنه فارغ، وهو على العموم ليس فاخراً، وأعمدته خشنة، وأرضه مفروشة بسجاد من الصوف الأبيض والأسود، وله تسعة أبواب أحدها خاص بالإمام، ولم يجتزئه أحد منذ اغتيال الإمام السابق.

وفي صنعاء نحو أربعين مسجداً، بينها خمسة عشر مسجداً، مناراتها جميلة جداً، وأحدث هذه المساجد ما بني منذ أقل من مائتي سنة، وهي تركية فيها قبة رئيسية محاطة في بعض الأحيان بقباب صغيرة، أما المساجد الأكثر قدماً فهي تلك التي ترجع إلى القرن الحادي عشر، وهي بناء يماني خالص، ومناراتها سمكية اسطوانية الشكل على قاعدة مزدوجة ذات ثمانية أضلاع، ثم مربعة، وهي مزخرفة كالبيوت من أعلاها إلى أسفلها بالقرميد النيء المصبوغ باللون الأبيض، والزخرفة في الغالب نقوش دينية وآيات من القرآن، وتقع المساجد في الغالب في أماكن خلوية مفتوحة، وبعضها تكون في مناطق الحركة والانتعاش كمناطق بيع الحطب وأخشاب البناء تأتي بها الجمال كل

صباح من أماكن بعيدة وتبيعتها في نفس اليوم، وأسواق الحيوانات التي يبيعون فيها الأبقار والجمال ، وهناك أسواق مسقوفة تخصص لبيع البن أو الزبيب كل صنف في موسمه.

أما الميادين الصغيرة، فيرى الإنسان فيها دائماً أشياء عديدة أولها مكان محاط من كل جانب تأتي إليه النساء لوضع الزباله والرماد من البيوت المجاورة، وفي الربيع يفرغ وينقل ما به سماداً للحقول، كما يرى الإنسان مكاناً مخصصاً لحارس الليل، وسبيلاً مزوداً بالماء الصالح للشرب. وهذا من أعمال البر أوصى به مسلم فاضل ترك بيته لإحدى العائلات، واشترط عليها أن تزود السبيل المجاور بالماء. وأخيراً لابد أن يرى الإنسان المراحض التي يرجع الفضل في تأسيسها في أوروبا إلى الإمبراطور فيسباسيان، أما هنا فإنها ترجع إلى عهد النبي، فالإسلام يتطلب النظافة الشخصية دائماً.

والبيوت الواقعة في وسط المدينة أحدث من تلك الواقعة في المنطقة الشرقية، فقد تم كثير منها في نهاية القرن الأخير، ويختلف طابعها قليلاً، فهي مزينة بالعقود الزجاجية الملونة التي تصنع في المخا. وفي مواجهة المفرج، ترتفع حواجز أنيقة فيها ثقب وهي من الجص، أما زخرفة الواجهات فأكثر تنوعاً وجمالاً ودقة، إلا أن النوافذ ضيقة والعقود الزجاجية التي تعلوها ضيقة أيضاً ومرتفعة، ويسكن التجار الأغنياء في أجمل هذه البيوت. وليس للشوارع أرقام، وقد يكتب المالك اسمه في وجهة داره، وبعض التسميات تطلق من صفة قديمة للعائلة مثل: ((بيت سمينه)) و((بيت الأعرج)) وقد أطلقوا على واحد من أشهر هذه البيوت اسم باريس.. بكل بساطة، ذلك لأنه شاهق مزخرف، ويعجب به الناس كثيراً، وقد ظننت أولاً أنهم أرادوا بهذا مجاملتي فقط، ولكن كثيرين من المارة كرروا على مسمعي هذا وهم يبتسمون ابتسامات حلوة، ولعل اليمنيين الأغنياء كانوا يسافرون بسهولة قبل خمسين سنة أكثر مما يفعلون اليوم.. ولعل سمعة باريس وصلت في ذلك العهد السعيد إلى هذا المكان.

وبيوت المدينة القديمة كلها، فيما عدا قليل منها في الشوارع الرئيسية، متلاصقة على طول الزوارب الضيقة ولا تحيط بها أشجار أو نباتات. إلا أن في بعض المناطق توجد منخفضات مزروعة ومنسقة على هيئة حدائق، وهذه البقاع مربعات قديمة أخذت منها الرمال لصنع لبنات البناء. أما المياه فمصدرها الوحيد هو الآبار، وتوجد آبار جماعية في الأحياء الفقيرة ولببوت الميسورين آبارها الخاصة التي تقع في البهو الداخلي.

ويقطع صنعاء مع هذا من الشمال إلى الجنوب نهر يتحدثون عنه كثيراً هنا.. لكن هذا النهر لا يجري إلا بضع ساعات في كل سنة، وذلك في الصيف خلال موسم الأمطار، أما باقي الوقت فمجراه ليس إلا ممراً جافاً واسعاً منخفضاً تقوم على جانبيه أشجار الكافور. ويمر النهر تحت أسوار المدينة في شمالها وجنوبها بقناطر مغلقة بقضبان من الحديد، وفي وسط مجراه جسر صغير، يقف الناس فوقه أكثر مما يمرون عليه

ويظلون يتأملون المياه الراحلة تنساب تحت أقدامهم . ويحيط بالنهر صفان من البيوت الجميلة القديمة وهي شبيهة بالبيوت الواقعة في باب اليمن وهي تخص عائلات كبار الموظفين، مثل بيت العمري وبيت الوزير. والدار التي كان يمتلكها السيد عبد الله الوزير قد نهبت وهدمت وبقيت أثراً للكارثة التي وقعت. والسيد عبد الله الوزير هو الذي كان ملكاً لليمن أسابيع قليلة بعد مقتل الإمام يحيى، وبعد إعدامه عاشت عائلته التعة في بعض حجرات المسكن القديم الذي لم يعد فيه أي أثر للماضي المشرق.

وفي الجانب الآخر للنهر نجد سوقاً تجارية صغيرة ليست فيها صناعات ولا حرف كما وجدنا في الأسواق السابقة، وتحيط الدكاكين الصغيرة بالميدان الواسع، وتعلو أبوابها الضيقة سقائف، وتتقدمها درجات يجلس عليها الزبائن أثناء المساومات الطويلة، أما البائع فيجثو عند مدخل الدكان وأمامه نارجيلته والبضاعة كلها في متناول يده. وإلى وسط الميدان يأتي المزارعون من الضواحي يحملون الخضار والفواكه وحزم التبن والبرسيم والحطب والكبا وهو وقود من السماد المجفف.

وفي ركن هذا الميدان مجموعة من الفلاحات يبعن الألبان، والعسل، والخبز. أما سوق اللحوم فهي في ساحة جانبية، وهي مكوّنة من نحو ثلاثين دكاناً خشبياً، وعندما قمت بزيادة الجزارة هذه بث عبده الماكر إشاعة بأني مكلفة بالتفتيش الصحي، وقد أحدث هذا قلقاً واضحاً لدى الجزائريين المساكين.

إن لكل طائفة منظمة، وأقوى هذه المنظمات هي منظمة الجزائريين، وأثناء إقامتي سقطت أسوار المدينة في موسم الأمطار، وطبقاً لعادة غريبة قديمة يقع على عاتق الجزائريين إصلاح هذه الأسوار المنهارة، وقد رفعوا لهذا السبب بطريقة غير مشروعة أسعار اللحوم مما أدى إلى اعتقال ممثليهم، فأضربت الطائفة كلها حالاً، وبعد أيام قليلة أفرج عن المعتقلين ودفع نائب الإمام نفقات إصلاح الأسوار، ولم ينخفض سعر اللحم.

ونجتاز السوق الصغيرة، ونصل إلى غرب المدينة القديمة فنجد أنفسنا في ميدان واسع هو المركز الإداري في صنعاء، وللمدينة هنا أبواب ثلاثة هي: باب الشقادي في الشمال، وباب خزيمة في الجنوب، وباب السباح في اتجاه بئر العزب. وفي هذا الميدان تقع دار الشكر حيث يقيم نائب الإمام، وهي دار ذات أدوار ستة محكمة البناء من الحجر الأسود المقطع، وفي البستان الذي يقع خلفها توجد دار السعادة حيث يقيم السيد عبد الله، وبعض أعضاء الأسرة المالكة ثم المقام وهو مقر الحكومة، والبرج الذي تعلوه حجرة مربعة صغيرة، وتنشط الحركة في المسجد المجاور الذي يعتبر ملتقى الكتاب العموميين الذين يتربعون على طول الجدران لكتابة طلبات المراجعين إلى نائب الإمام.

وفي الجانب الآخر من الميدان يقع بيت المال والسجن والشرطة، والحمام، ومن نافذة المقام يشهد نائب الإمام العرض العسكري في كل جمعة، وقد رأيته مرة يتقبل عقيرة ثورين ذبحوهما أمامه في الميدان. فقد تقاتل سيدان في إقليم ناء فأودعا في السجن ثم

تصالحا في الحال، وقد تقاسمت القريتان تكاليف الثورين، وتقدمتا بهما هكذا طلباً لرحمة نائب الإمام، فأطلق سراحهما.

وأمام المقام وتد، وقد رأيت يوماً لصاً شهيراً مربوطاً فيه لأنه كان ينهب المسافرين في احد جبال الشمال وقد قتل الذين قاوموه وضم الأحياء منهم إلى عصابته التي وصلت إلى مائة رجل. دفعته جراته إلى توزيع المنشورات على الجيش وعرض عليهم مرتبات أعلى من المرتبات التي تدفعها لهم الحكومة، إلا أنهم قبضوا عليه ووضعوا يديه في المغلقة الخشبية، وكان رأسه مرفوعاً وهو يمر أمام الجماهير المستهزئة الساخرة في شجاعة نادرة، وكان يردد: ((لقد كنت سيد نفسي حتى الآن، أما من الآن، فإني تحت رحمة الله والإمام)) وقد نقلته الطائرة إلى تعز ليراه الإمام، وتساعل الناس في ما إذا كان الإمام سيأمر بإعدامه أم سيضمه إلى أفراد حرسه. وفي أثناء المحاكمة دافع عن نفسه بمهارة فائقة، وطالب بتطبيق حكم القرآن بكل دقة. والقرآن يتطلب للحكم بالإعدام شاهدين رأيا بأعينهما القتل، ولكنهم لم يستطيعوا أن يثبتوا عليه شيئاً، وقد رأيت بعد شهور قليلة في تعز، حيث نظراته الجميلة المتشامخة، وكان يستجدي في بؤس وتعاسة مع مجموعة من المساجين!

وكانت صنعاء قبل مائتي سنة تنتهي هنا، وكانت قرية اليهود تقع على بعد كيلومترات غرب المدينة وتفصلها عن صنعاء حدائق وبساتين. لكن الأتراك أقاموا مساكنهم في هذه البقعة الخضراء، وفي القرن الأخير أحاطت بالبيوت الجديدة مجموعة من الأسوار موصولة بالأسوار القديمة وأصبح باب السباح باباً داخلياً يصل بين ميدان المقام وميدان شرارة الذي تحيط به دار الضيافة ومكتب البريد والصيدلية، والمدرسة العلمية، ولهذه الأسوار الجديدة منافذ ثلاثة، ففي الجنوب باب البقعة، وفي الشمال باب الروم، ثم باب القاع، وهو الذي يصل باب العزب بقاع اليهود.

وبئر العزب في صنعاء شبيه بحي ((نويلي)) في باريس.. حياة أنيقة ممتعة، والشوارع هادئة وليس فيها دكاكين، وعلى جوانبها أشجار دائمة الاخضرار تزدان أغصانها في الربيع بالعناقيد المزهرة، أما دورها الشاهقة فمتباعدة، وتقوم كل منها وسط بساتين مليئة بأشجار الكروم والمشمش واللوز والخوخ والرمان. وفوق هذه الدور تتمايل هنا وهناك أشجار السرو، وتبدو جنباً إلى جنب مع قمم الجبال المحيطة، ولا يقطع هدوء الحي إلا صرير الآبار وعجلاتها وحبالها، ويدل الصرير المتواصل على أن الجمل ينزل في طريقه المنحدر المحدود ثم تفرغ الدلاء ما في جوفها من مياه محدثة هديرًا شبيهاً بهدير الشلالات، أما الصرير التالي فيدل على أن الجمل يصعد، وفي الأعلى يتوقف قليلاً ونسمع صوت الحادي يغني: (إلهي، أنزل علينا أمطارك، إنني مرهق متعب..وجملي يشاركني هذا التعب...!) وتمر الأيام وكل شيء على ما يرام..

هذا الغناء الحزين، هذه الأصوات، أصوات الماء، والعجلات والجمال.. هي التي تؤلف منذ قرون عديدة نفس اللحن الرنان لمناظر صنعاء ومظاهرها، ولا يستطيع الإنسان أن

يسمعه دون أن يعترف بحبه للأشياء الرتيبة التي لا تتغير.

وبعد استقلال اليمن، بنى الأمراء والشخصيات الكبيرة دورهم الجديدة هنا. فلإمام أحمد دار في بستان الخير، ولكنه لم يذهب إليها أبداً، ولا ينزل بها إلا زوجته الرابعة، واثنان من أخواته. ويقع في القصور الأخرى إخوته سيوف الإسلام، علي والمظهر والقاسم وإسماعيل، والعباس، أما السيف عبد الله فبيته قريب من الجامع الكبير في قلب المدينة القديمة. ولكن الأمير لا يذهب إليه لأن الطريق إليه تسير في شوارع ضيقة ملتوية لا يستطيع السيارة المرور فيها، ولا بد من هدم بيوت إذا أريد توسيعها، وقد رفض رجل متقدم في السن أن يترك بيته، ولم يستطع أحد أن يجبره على الانتقال، وسيظل القصر مهجوراً حتى يموت هذا الرجل.

وبيوت عامل صنعاء، وأمير الجيش، وعامل زمار، ووزراء الإمام يحيى القدماء، كلها جميلة، وشبيهة ببيوت الأمراء، فأشكالها متناسقة هندسياً، وبهيجة وواجهاتها مرتبة بمهارة وشرفاتها وسطوحها في أحسن تخطيط، وفي أحد أركان الدار كثيراً ما يرى الإنسان قرن الغزال وقد ثبتوه تيمناً وتبركاً وطلباً للسعادة. ويتصل المفرج الكبير في الداخل غالباً بمفرج في البستان وبينهما ممر مغطى بالبلاط، وفي وسطه بركة ونافورة جميلة ترتفع منها المياه، ولا يرتفع هذا عن أرض البستان إلا قليلاً، ولا يفصله عن الأغصان والأشجار المثمرة إلا حاجز من الجص المثقب برسوم غاية في السحر والجمال. إلا أن هذا الطابع اليمني الحديث موجود أيضاً في النوافذ التي تميل إلى الاتساع شيئاً فشيئاً. والتي تعلوها العقود الزجاجية الواسعة المرتفعة في شكل نصف دائري. وطريقة البناء في صنعاء تتطور رغم احتفاظها بطابعها الخاص، وهي طريقة حية دائماً.

ونصل أخيراً إلى قاع اليهود، أو قاع الإمام الناصر كما يطلقون عليه اليوم، وأبوابه الخشبية عالية وكانت تقفل عند مغرب الشمس. أما الآن فهي مفتوحة دائماً وهناك ميدان واسع يدرسون فيه الذرة في الخريف.. وبجانبه بيوت اليهود وهي متواضعة منخفضة ولا يجوز أن تتجاوز الدور الثاني.. والعقود التي تعلو نوافذها من الرخام الشفاف والزجاج الملون.. إلا أنها من الداخل نظيفة ومقبولة.. ويدهش الإنسان حين يجد السطوح والشرفات متصلة هنا وهناك. ويخيل إليه أنه أمام مناظر مسرحية أعدها وأخرجها جاستون باته.

وعند هجرة اليهود إلى فلسطين اشترى هذه البيوت المسلمون الأغنياء بالجملة، وقد أعادوا بيع البيوت الجديدة، أما الكثير منها فلم يجدوا من يشتريها فانهارت أنقاضاً بعد تجريدها من الأبواب والشبابيك. وفي القاع اليوم شوارع كاملة ليس فيها نفس بشرية واحدة، وما أعجب منظر الشقوق في الأسوار المتفتتة تحت ضوء القمر.. وكان اليهود هنا يعصرون الخمر. وقد خلفوا المعاصر وراءهم. وأصبح هذا الحي ملتقى للسكري وبائعات الهوى.

وتحصن باب القاع أبراج كسائر أبواب صنعاء .. وبالقرب من هذا الباب تقع مقبرة اليهود.. وترتفع فوقها أعمدة من الصخور السوداء التي تنتشر عليها الكتابة العبرية.. ويتجول فيها آخر يهودي ظل في صنعاء وحيداً.. ورفض مغادرة المدينة..

وحينما يموت لن يأتي أحد إلى هذه القبور يضع عليها الحصى في خشوع.. لا وجود للبيوت وراء الأسوار.. فالإنسان لا يرى إلا حقولاً ومقابر.. والمنظر في الجنوب جاف ولا وجود للأشجار فيه.. أما طريق ذمار ففيه الثكنات والإسطبلات وورشة الحكومة.. والسهل في الشمال غني وتجري فيه القنوات وترتفع الأشجار المثمرة.. وتقوم القرى هنا وهناك في شكل أبراج يخزنون الغلال في أسفلها، ويسكنون حجراً ضيقة في أعلاها ولكنها لا تشبه بيوت صنعاء من قريب أو بعيد.. وتوجد في الشمال محارق الطوب الأحمر ومسجد جامع خاص بالأعياد الكبيرة..

في الشرق كما في الغرب تبدأ المرتفعات بسرعة، ومن هناك يتمتع المرء بأجمل منظر لصنعاء.. إن منظر هذه المدينة الملفوفة المكتظة داخل أسوارها في هذا السهل العاري محير للألباب.. فأشعة الشمس القوية تجعل بيوت صنعاء ناصعة البياض في سفح الجبل، وعند الغروب يتحول كل شيء إلى اللون الوردى والبنفسجي..

إلا أن بئر العزب ودورها الشاهقة الشامخة المحاطة بالبساتين والمدينة القديمة ووجهات قصورها، كل هذا الحشد المتكامل المتجانس معرض لتهديد خطير.. فاليمن تبني الآن محطة للإذاعة قوتها ٤٠ كيلوات، وقد بدءوا ينصبون سارياتها وأعمدتها في كل مكان على أبعاد مختلفة، بل إن هذه المؤسسة الهامة ستحتل مناطق داخل الأسوار..

ولا شك أن اهتزازات المولدات الكهربائية ونبضاتها ستعلو على ألحان الحادي في بئر العزب وعشرات الأبراج المعدنية العالية التي يبلغ ارتفاع كل منها أربعين متراً كقيلة بأن تشوه إلى الأبد مناظر صنعاء الخلابة البديعة!

ولم يحدث شيء حتى الآن، فقد اختاروا للإذاعة أرضاً واسعة قريبة من باب الروم، ومجاورة لقصر سيف الإسلام علي، وهو أمير لا يظهر إلا نادراً ومزاجه عرضة لتغيرات فجائية سريعة تحير حاشيته وتقلقها..

والأرض في صنعاء غالية، وقد أبدى السيف علي إدعاءات معينة بخصوص الأرض الواسعة المجاورة لقصره، وأقام بها ستة مراكز، رتب فيها عدداً من العساكر المسلحين وأعلن أن كل من تسول له نفسه أن يخطو خطوة واحدة في إقامة ساريات الإذاعة فإنه سيصفي معه الحساب في الحال.. ولم يجرؤ أحد على هذه المقامرة بطبيعة الحال، ويفكر الإمام الآن في إبعاد محطة الإذاعة بضعة كيلومترات نحو الشمال..

جنون ظاهر، وحكمة عميقة، إلا أن السيف علي بهذا التصرف عبر أحسن تعبير عن مصلحة المدينة.. فليمكنه الله وليساعده حتى لا يصرف عساكره الساهرين اليقظين.. أما ساريات التقدم هذه وأبراج المدينة فليقيموها في أي مكان.

الأسياذ أولاً وقبل كل شيء دائماً، ففي اليوم التالي لوصولي كانت مريضتي الأولى في صنعاء إحدى نساء نائب الإمام سيف الإسلام الحسن، وقد جاءوا من قبلها يبحثون عني في عربة يسوقها جوادان ولها غطاء مرتفع، ويقف في مقدمتها عسكري وفي مؤخرتها عسكري آخر وكل بيوت صنعاء الكبيرة تمتلك عربات من هذا النوع، وقد استوردوها من إيطاليا في أواخر القرن الماضي.

ويستعمل نائب الإمام هذه العربة في استعراض يوم الجمعة؛ إلا أن المعتاد أن يمتطي الرجال ظهور الخيل أما العربات فتستخدمها النساء في تنقلاتهن وزياراتهن.

وفي باب دار الشكر أفسح لي الشاويش الطريق لأجتاز الحديقة الصغيرة التي يوجد فيها كرسي الإمام يحيى المصنوع من الخيزران؛ وقد ضرب رئيس الجرس المدقة البرونزية بعنف؛ ولما سمع وقع أقدام خفيفة تخطو فتح الباب بمفتاح خشبي كبير؛ وفي الداخل كان ينتظرني صبي في سن العاشرة، حمل حقيبتي، وتقدمني يصعد السلالم، وهكذا تعرفت « بالدويدار ».

والدويدار طفل صغير حل محل الخصيان الذين كانوا يخدمون الحريم عند العرب قديماً، وهم الصلة الوحيدة للنساء بالعالم الخارجي، إنهم في الغالب أذكاء جداً ويقومون بمهمتهم بكل حذق ومهارة، ويقصون على سيداتهم كل ما يرونها في المدينة، وفي سن الثالثة عشرة يبدلونهم، ويأخذ من خدم منهم في بيوت الأمراء مرتبات صغيرة.

دخلت إحدى حجرات القصر.. والحجرات في صنعاء مؤثثة كلها على نمط واحد، فعلى طول الجدران تنتشر الوسائد والمساند المغطاة بالسجاد كما أن أرض الحجرة مفروشة بالسجاد، ووسط الحجرة خال من كل شيء إلا من صحن من النحاس عليه نارجيلات كبيرة قصباتها أو خراطيمها مغطاة بقماش أحمر ومطوية عند عدم استعمالها، وعلى جوانب الصحن مباحق القات والمباخر، ورشاشات الكولونيا وماء الورد النحاسية المنقوشة، وتختلف أناقة وفخامة هذه الأدوات من منزل إلى آخر، ويلمع النحاس عندما يتسلط عليه ضوء النوافذ المنخفضة، وعلى الجدران البيضاء يرى الإنسان القرآن على غلاف من القماش، وخناجر معلقة بأحزمتها، وأحياناً يرى صورة محفورة ملونة تمثل صليبياً ممقوتاً يفر أمام ضربات سيف أحد الأبطال المسلمين.

كان في انتظاري عشر سيدات والابن الأكبر لنائب الإمام، وهو في سن الثالثة عشرة، كان يرتدي ملابس الرجال ويضع الخنجر في جانب، أما الأمير الحسن فلا يجلس كثيراً مع النساء بل يقضي وقته في المفرج البعيد مع بعض جلسائه وأصدقائه، وحياته قاسية خشنة، فهو لا يمضغ القات، وقليل ما يلجأ إلى التدخين، ويغيب في رحلات طويلة للكشف في الأقاليم والإشراف على الطرق.

استقبلني الابن بلطف وكرم، وكانوا قد وضعوا لنا في وسط الحجرة كرسيين من كراسي الحدائق العامة الحديدية المصبوغة، على كل منها وسادة من القטיפ، وأحضروا على المائدة طعاماً خفيفاً، وجلس الأمير الصغير أمامي.

أما النساء فقد كن بعيداً عنا، ولم يشاركننا لا في تناول الطعام ولا في الحديث، وكان وجهه ينم عن ذكاء حاد، وقد تأكدت من هذا فيما بعد، وأيدته بالاختبارات النفسية، وقد يصبح رجلاً ملحوظاً بشرط ألا يزوجه في سن مبكرة وأن يدعوه يتعرف على بلدان أخرى.

إنه الملك الحقيقي للحريم، وقد رافقتي عند المريضة، وهي زوجة شابة لأبيه وضعت أخيراً، ولا شيء هنا يفصل النساء عن أبناء أزواجهن حتى ولو كانوا بالغين، وعلى العكس، لا يظهرن أبداً على إخوة الزوج، وعلى هذا فقد حضر هذا الأمير الصغير الفحص، وبالرغم من وجود عدد من النساء هن أكبر منه سناً فقد كان عليّ أن أشرح كل شيء له وقرر هو أن يتولى العناية بالمريضة بنفسه، وهذا ليس أمراً غير عادي، فأينما ذهبت وجدت مثل هذا الشاب سيداً للحريم أثناء غياب أبيه، لاسيما إذا كان قد جاوز الثامنة عشرة، ومن المعلوم أنه لاتفوته أية فرصة أو مناسبة دون أن يمارس هذه السلطة الجديدة، ويصل هكذا بسرعة إلى مركز الرجل.

ولم يكن من الممكن أن يسمح لعبده بالدخول إلى بيت أمير تخضع فيه النساء لهذا الأوضاع القاسية الشديدة، ومع ذلك فقد رافقتي مرة إلى بيت تاجر كبير أرسل إلينا سيارته اللوري الزاهية المزينة بأفريز من المشمع شبيه بما كنا نراه في رفوف مطابخنا في الخارج، وقد وضعنا هذه العربة الوقورة التي لاتستطيع الدوران في الشوارع الضيقة، بعيداً عن البيت الذي يقع في قلب المدينة القديمة، ودخول بيت رجل من الطبقة المتوسطة ليس كدخول بيت أحد الأمراء، فلم يكن بالباب حرس، بل إن الباب يفتح من الطابق العلوي فما إن يسحب حبل يخترق البيت كله حتى يرتفع المزلاج، وتقدمني عبده يصعد السلم الذي لاينتهي، وكان يصيح بين لحظة وأخرى قائلاً: « الله .. الله... » تنبيهاً للنساء حتى يبتعدن عن طريقنا وفي الطابق الأسفل المظلم يسكن الخدم، وينزل الحريم بالطابق الأوسط، أما الطبيب فيستقبلونه دائماً في الدور العلوي المخصص لرب البيت.. في المفرج.. وقد صعدت أثناء إقامتي في صنعاء سلالماً أكثر مما قد فعل أي طبيب في باريس.

كان الزوج ينتظرني عند زوجته الشابة المريضة، وقد وقف عبده خلف باب مفتوح نصف فتحة، وبدأت الأسئلة بهدوء وبطء لانقين إذ أن المرأة المهذبة لايجوز لها أن تسمع إلا صوت زوجها، وألا يسمع صوتها أي رجل غير زوجها، وبناء عليه فقد كنت أقول أسئلتني بالفرنسية ويتولى عبده المختفي وراء الباب ترجمتها للزوج، ويأتي الزوج يهمس بها في أذن زوجته ويتلقى منها الجواب، ويبلغه إلى عبده الذي يترجمه لي أخيراً.. انتهينا إذن من تشخيص المرض، ولكن لسوء الحظ بدت مشاكل حساسة عند العلاج.. فقد كان لا بد من إجراء أشياء ذات طبيعة داخلية، والمرأة اليمنية لم تألف هذا ولم يكن الأمر في حد ذاته مستحيلاً، فالعرب يعرفون الحقنة الشرجية، وأحمد حمادي يؤجر جهازاً مقوى بالصفائح، شبيهاً بتلك التي نراها في نقوش القرن الثامن

عشر في فرنسا، وقد جرت مناقشات حادة بين الزوج وعبد، وكان الزوج ذا نزعة
عصرية حديثة، ويود أن يعترف بفوائد العلم الحديث.

و ذات صباح جميل، جاءني عبدالله يخطرني هذه المرة أن الحصان قد أصبح جديراً
بثقتي، وفي العربة وصلنا المستشفى بكل فخر.. إن المستشفى بناية شيدوها حديثاً في
بستان مجاور لباب البلقة، ويرى الإنسان أمامه بناء مكعب الشكل.. وهو ضريح لرجل
مات في القرن الماضي أثناء حصار صنعاء وتعذر دفنه خارج السور.

وعلى عتبة باب المستشفى وقف اثنان من العساكر ينفخ أحدهما في النفير إذا وصل
المدير أو الطبيب العربي الذي يعالج الجنود، وقد كان يمكنني أن أحظى بنفس المعاملة
إذا دفعت قليلاً من البقشيش.. هكذا قال لي عبده ولكنني فضلت أن أسير على منوال
زميلي الإيطالي الذي لم يهتم بهذه الفخخة.

كانت مفاجأة سعيدة أن أجد مستشفى صنعاء أحسن كثيراً من مستشفى تعز، فقد كان
واسعاً، مضاع حسن البناء، مرتباً بمهارة، بل وكان نظيفاً «هذا إذا لم نعط هذه الألفاظ
معناها عند الغربيين»!

فالمرضى ينامون على سرر حقيقية، عليها أغطيتها، وتغذيتهم حسنة فقد كان غذاؤهم
اليومي يتألف من ثلاث قطع من الخبز، وطبق لحم وزبادي، وفواكه، وشوربة، ولم
تكن السرر كلها مشغولة، وكان الفقر متفشياً في صنعاء إلى درجة أن الناس كانوا
يدخلون إلى المستشفى ليأكلوا.. أما المرضى فلا ينتظرون فيه علاجاً، فالذين هم بحاجة
لإجراء عمليات ينتظرون أن يأتي جراح، ولكن دون جدوى، أما الآخرون فالعلاجات لهم
نادرة كما هو الحال في مستشفى تعز.

وفي المستشفى خمسة عشر ممرضاً وخادماً، والممرضون يعملون هنا عدة سنوات،
يتعلمون خلالها على أيدي الأطباء الأوروبيين، وينالون شهادة في النهاية تسمح لهم
بالعمل، وكانت المفاجأة السارة الثانية هي مقدرة هؤلاء الطلبة، فقد توافر فيهم الذكاء،
وقوة الذاكرة، والإدراك الطبي، والمهارة الفنية، وحب المهنة، والتعطش إلى
التعلم، وفي وسع معظمهم الوصول إلى كفاءة مذهلة لاسيما إذا راعينا أنهم قد خرج
أحدهم من السجن لأنه كان قد قتل مريضاً عندما حاول أن يجري له عملية فتق، ويكون
العقاب عادة هو وضع القيد الحديدي في أقدامهم، وتشدد عليهم العقوبة أحياناً فيخضم
جزء من مرتباتهم، ولهذا فهم لا يقدمون على تحمل أية مسؤولية، كان أول انتصار لي
في صنعاء ليس النجاح في استعمال ملقط الجراحة، بل هو ذلك الذي يعد انتصاراً
بالفعل.. لقد استطعت أن أقنع أحد الممرضين بفتح قاعة العمليات دون موافقة سابقة
من المدير.

لم تكن للاستشارات الخارجية أهمية تذكر، إذ إن قليلين جداً من أوساط الشعب هم
الذين يقدرّون على شراء الدواء، والحياة اليومية لاتخلف متاعب كثيرة، ولكن إذا ظهر
المرض فقد حلت الكارثة، فالناس فقراء وليس معهم نقود لشراء الأدوية، والبعثة

الطبية السوفييتية التي كانت توزع العلاجات مجاناً قد تركت اليمن منذ زمن طويل، وصيدلية الحكومة خالية من كل العلاجات، وكل ما يستطيع المرضى عمله، هو أن ينتقلوا من أمير إلى أمير يستجدون الصدقة التي يشترون بها العلاج.

كانت مهمتي العناية بالنساء، والأمور لاتسير بنفس البساطة عندما أكون عند سيدة أو تاجرة غنية، إذ لا يستطيع الممرضون أن يتحدثوا مباشرة إلى المرأة المريضة.

وكثيراً ما كان الأمراء يستدعون زميلي الطبيب، فيترك لي أمر عيادة الرجال، وما إن يقترب المريض حتى يبتدره الممرضون حراس الأخلاق المتشددون بهذا السؤال: «هل ترتدي سروالاً؟» فإذا كان المسكين لا يرتدي السروال فعليه أن ينزع عمامته ويلفها إزاراً حول خصره قبل أن يرفع جلبابه، وإذا لم يكن له غطاء للرأس فإن أي إنسان طيب من الموجودين في غرفة الانتظار يمكن أن يعيره.. ولقد فحصت رجالاً لا يستر عورتهم إلا ما يشبه ورقة العنب.. وهذا منظر ذو تأثير عظيم سيتصوره بسهولة أولئك الذين يتذكرون الحلقات الأولى لفيلم القمح الأخضر أو غير الناضج.

كنت أقوم مقام الطبيب العسكري عندما يمرض الطبيب اليمني الخاص بالجنود أو يتغيب، وكان الفحص أحياناً للاستدلال والاستنتاج فقد يتعب جندي من الخدمة العسكرية فيقدم بديلاً عنه، وكان عليّ أن أقرر ما إذا كان الجندي الجديد يساوي الجندي القديم تماماً أو لا.. وقد تكون المعاينة للإعفاء من الخدمة.. فالجنود الفقراء الذين لا يملكون مالاً للبدل، يصابون فجأة بالجنون، ويطلب مني أن أفحص قواهم العقلية!.

وكان السلوك الذي يلجأون إليه في أغلب الحالات للتدليل على جنونهم واختلال عقولهم.. هو خلع الملابس.. هكذا يتجرد الجندي من ملابسه تماماً! وأمام امرأة إنه بكل تأكيد مجنون.. ويفهم الممرضون اللعبة فيهجمون على المسكين ويخرجون به، ولا أجد بداً من أن أسجل.. أنه غير لائق للخدمة العسكرية..

لم يجد زميلي الإيطالي وهو الغارق في العمل، متسعاً من الوقت لاستعمال المعمل ولا أجهزة الأشعة التي ظلت مغلقة منذ رحيل الأطباء الفرنسيين.. وكانت أجهزة الفحص في المقام تفتح أبوابها إلى ساحة الثكنة، وهي آلات جيدة، كنت أقوم بالفحص فيها مرة في الأسبوع، كانت الرسوم تتحدى كل منافسة.. وقد حدد لي عبده الأسعار قائلاً: «ريال إذا كان الكشف على الجزء الأعلى.. ولكنه ريالان إذا كشفت على الجزء الأسفل أيضاً» وكان تجار المدينة الأغنياء يحبون أن يروا أفراد عائلاتهم في وضع شفاف.. ويدفعون طواعية لهذا السبب.. وإذا فقد كان الإقبال عظيماً على الفحص.. وكان موظف المالية يتولى الكشف على الخزنة التي في عهدي ويحضر ابن نائب الإمام يساعدي وتعرف على وظائف الأعضاء.. إلا أن الأوقات المخصصة للأميرات كانت تضرب الرقم القياسي في الروعة والعجب.

كان الظلام العميق وحده هو الذي يوفق بين مقتضيات العلم الحديث ومقتضيات الأخلاق والتقاليد.. وقد حدث أن أضيئت الأنوار فجأة ذات يوم وقد ذهلت الأميرة.

وراحت تجري مسرعة، واختفت في مكان لا يخطر على البال، خلف مصباح بين الأسلاك المتشابكة..وكم كلفني هذا من جهود مضيئة حتى أنتزعها وأخرجها من هذا المأزق.

كانت تنتهي العيادة بالكشف على عساكر الثكنة...الذين كانوا رداً للجميل يطوفون بي في الأماكن المجاورة...ففي اليسار نجد مكان سك النقود، آلة ضخمة تتحرك باليد، يعمل فيها ستة أشخاص..وكان الرجال أثناء زيارتنا يأخذون راحتهم..واستطعت في الظل أن أتبينهم فوق الوسائد وأغصان القات حولهم قد نزعت منها الأوراق، وقصبة النارجيلة الحمراء الطويلة ممدودة..وفي ركن النقود اللامعة، ثمرة عمل الصباح. أما الحظيرة ففيها مدفع قديم، وقد شرح لي الجنود كيف يستعملونه.

وبقيت محرومة من العمل، والأمير الحسن مسافر، ولا يستطيع أحد أن يقرر شيئاً في غيابه،ولكن بعض الفحوص كانت عاجلة سريعة. فتحليل الدم وحده هو الذي يبين سبب الحمى المستمرة عند إحدى مريضاتي التي يزداد حالها سوءاً..

وعبثاً تقدمت بعدة طلبات..وانقضت نحو عشرة أيام رأيت بعدها أنني لم أعد أستطيع الانتظار...وجاءت الفرصة المرتقبة...فقد أصيب أمير صغير بتعب خفيف، ورفضت أن أشخص ألمه قبل أن أفحص البول..ولما كانت المسألة تتعلق بأمير..فقد تلاشت كل الصعوبات بمعجزة...وأخطروني أن المعمل تحت تصرفي في اليوم التالي.

وهكذا ذهبت وأنا عامرة بالأمل والرجاء، وفي حقيبتي نوع من دم مريضتي النائمة في المستشفى..

ولكن ياخيبة الأمل..!

لقد كان بانتظاري في باب المعمل..وزير الصحة العمومية..ومدير المستشفى وسكرتيرهم..وصيادلة المستشفى..وصيدلي الإجزخانة المركزية ..ونصف دسته من العساكر، يحمل أحدهم الزجاجاة الغالية..وقد رجوني أن أقوم بالتحليل فوراً أمام أعينهم جميعاً وقالوا لي إن المعمل سيقفل في الحال.

معمل كئيب..هجروه منذ عامين..آلة التقريط المجهرية، مقياس الضوء فرن التجفيف والتطهير..لا شيء ينقص ولكن لا شيء يؤدي وظيفته..واليمنيون ليسوا مسئولين عن الخطأ..فهذه الأجهزة تحتاج إلى تيار كهربائي يختلف عن التيار الذي ينتجه مولدا المقام..ومع هذا فقد كلفتهم هذه الأجهزة كثيراً.. وهم لهذا يظنون أنفسهم يمتلكون كنزاً تجب المحافظة عليه بدقة.

وقد تجولت بين المناضد التي غطاها التراب أبحث عن الوسيلة التي تعيدني إلى هنا وحيدة..ومرات كثيرة..

ترى هل يعرف صيادلة صنعاء كيف يقرأون ما يكتب في البطاقة على الزجاجات؟ لقد وقفت أمام زجاجة الجلوكوز المحلول وكنت مع ضميري في صراع قصير ولكنه عنيف..لقد حضرت التفاعل.. وطلبت من عبده أن يشرح ما سيحدث إذا كان الأمير

الصغير مصاباً بالبول السكري.. واليمنيون يحبون أن يفهموا.. وكانوا عندما يبدو الترسب في أنبوبة الاختبار الموضوع فوق اللهب يتمتمون باحترام.. «هذا هو السكر..!».. وأمام الابتسامات ونظرات الإعجاب شعرت أنني قد كبرت في عيونهم. وأني قد نلت تقديرهم جميعاً.. يا لها من سعادة.. حين يصبح المرء أقوى الآخرين بعد أن كان أضعفهم!

لم أجد منهم أية معارضة عندما قلت لهم إنه من الضروري أن أعود إلى هذا المعمل كل يوم.. وتعبوا من مراقبتي.. فوضعوا الميكروسكوب تحت تصرفي وبهذا فحصت عينة الدم التي كانت معي.. وبعد بضعة أيام.. أعلنت أن الأمير الصغير قد شفي!.. واعترف أن مغزى هذا الحادث جدير بالمناقشة.

٥

أيها القارئ.. هل تضع سكرًا في بول أمير..؟ هذه مسألة خطيرة.. يقف الإنسان أمامها اليوم أو غداً.. ولكن يجب أن ننظر إلى الأمور كما هي.. ففي جانب.. شاب مفرط السمنة حرم من السكر خمسة عشر يوماً.. وفي الجانب الآخر.. امرأة كانت تعاني خطر الموت فشفيت.. واعترف أنني من أولئك الذين يرون أن بعض الغايات تبرر بعض الوسائل.. وإذا سخط أصدقاؤني العرب وحنقوا عليّ فسأرد عليهم بقول جميل مكتوب في خاتم في صنعاء: «عند الضرورة، الله وحده هو الحكم».

تستيقظ صنعاء قبل الفجر، على نداء المؤذن.. إنه غير موزون اللحن، كما في أي مكان آخر.. بل إنه نداء عنيف، مستبد.. إنه صرخة أمرة لإيقاظ الناس أجمعين.. ولا يستطيع الإنسان في صنعاء أن يبدأ نهاره ناسياً أن الإله هو الله وأن محمداً هو رسوله.. بعد ذلك

بقليل أسمع الباب الخارجي يصطك فأعلم أن عساكري قد خرجوا يؤدون صلاة الفجر ومعهم أكثر رجال الحي تقى وتعبداً.

وتشرق الشمس فتصل الفتاة «هاجر» لترتيب البيت، فتنتثر الروث على السلالم والممرات بدل نشرات الخشب، حتى لا يثور الغبار.. وترتفع رائحة قوية، لكنها ليست كريهة على أي حال.. وتنحني هاجر تكس بحزمة من الأغصان.

وفي نحو الساعة السابعة.. يأتي أحمد بطعام الإفطار.. بيض.. زبادي.. خبز أو فطائر مرققة وعليه العسل والسمن.. ولا أطيل البقاء فأمام الباب ينتظرنني كثير من المرضى، يريدون أن يروني في بيتي.. فهم يعرفون أنني قد أحضرت معي علاجات من فرنسا.. وكان زوجي وأصدقائي.. والمختبرات الكبرى.. يبعثون لي الأدوية لأنهم جميعاً يعلمون أنني لا أتاخر فيها.. ويعرف الفقراء أن العناية بهم في بيتي ستكون أفضل منها بالمستشفى... وخلال الأسابيع الأولى كان يغمرني شعور بأن تعاسة الدنيا كلها قد تجمعت حولي... ولكن الأمر لم يكن يخلو أحياناً من فصول مضحكة..

فقد جاءني هذا الصباح رجل عجوز وقور ذو لحية كثة ، وكان يلبس سترة طويلة سوداء لابد أن صاحبها كان يختال بها مزهواً في بداية هذا القرن في إحدى عواصم أوروبا... ولكن صاحبنا الشيخ قد قص منها الكمين، وأخرج كمي ثوبه الأبيض وعقدها كالعادة فوق ظهره وكان يحمل على كتفيه لفافة مغلقة بخرقه وضعها أمامي على الأرض وفتحها... فهل انتظر أن تكون فيها عقود أو قلاند أو تماثيل حميرية أو طنفسة أياً كانت..؟

لقد كان فيها طفل مريض..؟

عندما لا يبقى أحد أتوجه في الساعة التاسعة تقريباً إلى المستشفى.. ويكون جوادي الحجاب مسرجاً ينتظرنني أمام الباب... أما العربية الجميلة فلم تدم طويلاً فقد ارتخت إحدى عجلاتها يوماً وتعطلت.. ولم يكن الحجاب جميلاً فقد كان إذا وقف أحنى رأسه إلى الأرض في وضع محزن.. وإذا مشى تقاطعت قدمه الخلفية اليمنى مع اليسرى، وخطواته مهزوزة وغير مناسبة أبداً.. وكسائر الخيول العربية.. كان لا يحسن السير بخطوات قصيرة سريعة.. لكنه كان مدهشاً رائعاً حينما يعدو مسرعاً.. لطيفاً عندما يريد.. سريعاً عندما تجب السرعة.. وكان لا يتعب.

كم كان ممتعاً ذاك الصباح أن أركب في الهواء المنعش والشمس الساطعة.. وقد بدأ القاضي الذي سكن بيتاً مجاوراً استشاراته في الشارع... جلس على الأرض مستنداً إلى جدار بيته وحوله أناس يتحدثون بحركات وإشارات كثيرة.. إن القضاة في صنعاء يقومون بأعمالهم في الطريق العام وكم التقينا هكذا في الطريق بجماعات صاخبة تلتف حول رجل يمشي في وقار، فإذا سألت عبده قال لي: «أن هذا هو القاضي المتجول..!».

وفي الطريق نلتقي أيضاً بقطيع من الماعز... فلكل بيت عنزة لها زريبة صغيرة في

الطابق الأرضي. تطلق في الصباح إلى الشارع ساعة مرور القطيع. ويخرج بالقطيع راع إلى الجبل ويعود به في المساء ليودع كل بيت عزته، وتحمل هذه الغنز في الغالب ما يشبه رافعة الصدر. وهو كيس من الجلد مربوط إلى ظهرها لحماية ثديها من الأذى، ولبنا من السرقة.

وأمام المستشفى يقف أحمد عواض، الممرض الرئيسي في انتظاري، إلا أنني اليوم لن أفحص أحداً. فقد ابتدرني القاسمي طبيب الجنود المحبوب قائلاً بحزن: «لقد انتهت الملهاة، إذ لا وجود للعلاج.. ولا قيمة إذن للروشتات».

لكن أموراً في غاية الأهمية تنتظرني هذا الصباح... لقد أخذت لفة من الخيوط القوية وذهبت أصلح السرر المحطمة، فقد سبق أن اقترحت منذ أيام فصل مرضى السل عن غيرهم، واستقبل هذا الاقتراح بالحماسة بل وبما هو أكثر من الحماسة! ففي اليوم التالي كانت النساء المسكينات يرقدن في فوضى وعدم ترتيب على الأرض.. على الأسمنت البارد.. في حجرة كبيرة مهجورة. واستهدفت لهذا السبب لغارة من اللوم والعتاب المر... فوعدت أن استحصل على سرير بكل سرعة، وخلف المستشفى مجموعة من السرر المحطمة.. ليست تالفة نهائياً... لكنهم هنا لا يحبون كثيراً تصليح الأشياء... ذلك لأنها ستظل في الورشة ستة أشهر ولهذا طلبت من الممرضين أن يساعدوني.. وقد دهشوا لهذا الطلب ورفضوا، فليس من اللائق أن يدخل من يحمل شهادة ما وسط ركام من بقايا السرر المكسرة المهملة ويفتش ويعمل.. ولست بعد قوية في مركزي حتى أستطيع أن أصدر أوامري.. وبناء على كل هذا قمت بالعمل بنفسني تساعدي ثلاث من الخادومات.. وكان الرجال ينظرون إلينا من استخفاف ولا يتحركون.. وكنا نحن بدورنا نسخر منهم قليلاً.. وعندما رأوا أن الخيوط قد نفعت في إصلاح بعض السرر بدأ الأمر يعجبهم.. ويجذب اهتمامهم.. إن الإنسان السوي حتى ولو كان شرقياً لا يستطيع أن يقاوم الميل والانجذاب إلى العمل المثمر، وكانت إحدى الخدم بلهاء وبكل احتقار تقدم منها أحمد عواض ليقدم لها إرشاداته.. ثم ألقى بها جانباً، واتخذ مكانها.. ولم يتأخر زملاؤه عن تقليده، وقد رأينا نحن النساء الجنس الخشن ينشط، وحينما جاء المدير في اليوم التالي ورأى الحجرة الجديدة، نال الممرضون النصيب الأوفر من ثنائه!

في كل صباح يعطيني المدير قائمة بأسماء المرضى الذين يجب عليّ زيارتهم في المدينة.. وهم أمراء وموظفون وفقراء... أما التجار وأصحاب الحرف الصغيرة الذين يدفعون أجراً فإنهم يتصلون مباشرة بالترجمان... وفي نحو الساعة الحادية عشرة تبدأ دورتنا. وكان عبده قوي العضلات لا يتعب، أما السائق الضعيف فقد كان يحمل حقيبتي في ملل وألم.

هكذا ظللت أكثر من عام أقطع شوارع المدينة من بيت إلى بيت في أكثر ساعات النهار حيوية.. عندما تفتح الدكاكين أبوابها وحينما يباشر الصانع أعمالهم.

وكنا في أغلب الأحوال ننظم خط السير بحيث نمر بالأسواق فنقوم باكتشافات لا نهاية لها ولاحد.. فيوماً نمر بمحلات الخزف والفخار حيث يشتري المرء بئس زهيد القل والمواقد والمباخر المصنوعة من الطين المحروق..

ويوماً نمر بسوق السلب أو الحبال حيث الزكائب والشوالات والبسط وملابس الفلاحين من الصوف المحاك.. ويوماً ثالثاً بمحلات الجلود حيث السروج والاحذية والنعال الملبسة بقشرة من السيور الجلدية الخضراء الجميلة، وحيناً تمر بخراطي الخشب ومزخر في النارجيلات والنجارين الذين يقفون وجهاً لوجه يعملون المنشار في كتل الخشب المثبتة في حفر من الأسمنت.. والسباكين الذين يقومون بإعداد العقود الزجاجية وبالحدادين في حوانيتهم الصغيرة المظلمة حيث يحس الإنسان بنفحات الكير القوية خلف الشرارات الحمراء.. وحيناً نمر بأمكن بيع الأواني النحاسية.. المواقد والمباصق وأباريق القهوة والصواني.. وكنا نمر بمحلات الثياب ومزخر في الأحزمة والخياطين وبائع الفراء.. وأخيراً بمحلات الخناجر أو كما يسمونها باليمن الجنابي ممر كامل للصقالين وصانعي المقابض والجراب أو التوزة كما يقولون لها.

من لم يتجول في صنعاء على ظهر حصان، فليس له أن يفاخر بأنه قد عرف صنعاء.. فحيث يكون الإنسان أعلى من الناس يمكنه أن يرى الأشياء المتنوعة.. ويجد الأوروبي نفسه حائراً عاجزاً أمام إنتاج الصناعات اليدوية المتنوع التوازن. ومع هذا.. فالمرء جزء من هذا الجمهور يعيش حياته، ويستطيع أن يفهمه.. والناس هنا حاضرون، مستعدون يبتسمون ويتطلعون إلى المارة.. ويتكلمون فيما بينهم.. وتظهر عليهم السعادة في حياتهم البسيطة. عندهم متسع من الوقت، فليسوا عجلين ولا مرهقين.. إنهم هزيلون في أغلب الأحوال.. ويرتدون ملابس رثة.. ولكنهم ليسوا مستعجلين أبداً ولا يتعبون أبداً ذلك لأنهم لا يعملون قليلاً ولا كثيراً. وعندما سألت متسولاً صغيراً : « ماذا يعمل والدك؟ » أجابني : « يصلي.. ويظل يتجول ويتنزه.. »!

في هذا الوسط إذا حدث شيء لأحدهم ولو كان تافهاً فإن عشرين شخصاً يهتمون بالأمر في الحال.. وهذا تطفل وهو غالباً ما يضايق.. لكنه ودي دائماً ففي الوسط العربي لا يشعر الإنسان بالوحدة أبداً..

في الظهيرة.. ودون خوف من اللصوص، يقفل كل تاجر دكانه بخيط خفيف ويذهب ويؤدي صلاته في المسجد، ويلتقي في الطريق برجال قد سربلوا أكماتهم الطويلة لوقاية أيديهم.. وقد تطهروا في بيوتهم تفادياً للزحام في أحواض المساجد.. وهم مستعدون للصلاة.. يتأخرون في المساجد.. لأن المقاهي محرمة.. والمسجد هو المكان الوحيد للاجتماعات العامة.. وبعد تبادل الأخبار كلها.. يذهب الأغنياء لشراء القات. واليمنيون يحرصون على الراحة كثيراً.. فأوراق القات يمضغونها طازجة وهم لهذا يقطفونها في الصباح المبكر من ضواحي صنعاء وينقلونها إلى المدينة في ربط من أوراق الذرة الخضراء حتى لا تجف ويخرج الناس من المساجد ليتزاحموا على أشجار

القات.. وكل واحد يريد أن يختار بكل عناية أجمل الباقات..
وتخلو الشوارع فالناس قد ذهبوا للغداء.. وكثيراً ما كنت أقبل دعوات عملائي التي يستحسنها عبده فهو أيضاً يستفيد منها... وقد يكون الداعي موظفاً في البريد أو مدير مدرسة أو كبير البنائين أو ضابطاً تركياً قديماً أو مزارعاً غنياً.
ومن المدرس والبناء تعرفت شيئاً فشيئاً بصنعاء ولكنني أحببت أيضاً موظف البريد ذا القلب الطيب.. فقد مات له عجل صغير.. وحتى لا تحزن البقرة الوالدة حشا جلده بالتبن.. وكانت البقرة المسكينة تتشممه في حيرة واضطراب.
أما الضابط التركي فقد كان في سن السبعين.. وهو هزيل تجعد وجهه.. إنه ذو أدب ولطف وفي استعراض يوم الجمعة يرتدي بدلة عسكرية من القطيفة الوردية ويرافقه خادم يحمل له السيف ولا يقدمه له إلا في اللحظة التي يحيي به نائب الإمام..!
أما اليوم فالذي ينتظرنا هو الزارع.. وهو يوزع وقته بين مزرعته – التي تبعد ست ساعات عن صنعاء بمشية البغلة – وبين بيته الذي يقع في حي قديم من أحياء المدينة.. إن وجبة الطعام لا تقدم أبداً في المفرج.. بل في الطابق الأسفل حيث المطبخ.. ويمكنني في هذا المكان أن أرى الناس قبل الغداء.
وفي الصباح قلما يرى الإنسان امرأة في الطريق.. اللهم إلا فلاحات في السوق أو نساء فقيرات ملفعات بأقمشة سوداء يخرجن لجلب المياه. وعلى رؤوسهن «تنكة» من الصفيح الأبيض.. وقد حلت محل القلة القديمة الثقيلة القابلة للكسر.. ولو قدر لعالمنا الغربي أن يختفي فجأة، فلعل هذه الصفيحة هي الأثر الوحيد له في هذا البلد..!
تقوم النساء في الصباح بالتدبير المنزلي فينفضن المفارش، ويلمعن الأواني النحاسية بالليمون والرماد.. ويغسلن الملابس وينشرنها بعد ذلك في الشرفات وعلى السطوح.. ويقمن بإعداد الطعام في مطبخ مظلم لكنه حسن التهوية، ففيه فتحات صغيرة في أعلى الحائط وفوق التنور. وعندما وصلت كانت الصحون على المواقد الفخارية والنار تحتها. أما الخبز الرقيق فإنه يخبز في تنور «فرن» والتنور أسطوانة سمكية من الفخار تتزود بالحرارة من أقراص السباخ «الكبا» وتقوم عجوز بوضع العجينة على جدران التنور بعد أن تغمس يديها في الماء لتتفادى الاحتراق.. وتقوم امرأة أخرى بتحضير الشعيرية.. فتاة صغيرة تسحق الخضرة فوق صخرة قد مهدت لهذا بطول الاستعمال.. تقوم رابعة بهز اللبن في الجرة لتصنع منه نوعاً من الزبدة البيضاء.. نصف زبدة.. نصف لبن رائب يستعملونه مذاًباً على وجه الخصوص.. وكان مضيفي يسكن مع أمه العجوز وزوجتيه الاثنتين وبناته.. ولكنهن لا يتناولن طعامهن بوجوده أبداً.
بل يقمن على خدمته وينتظرن حتى ينتهي من طعامه ويصعد إلى المفرج وبعد هذا يجلسن مكانه ويأكلن بدورهن.
إن رب البيت في الأربعين من عمره، ويعيش كأخويه الاثنيين، من دخل أملاكه الزراعية

التي تمتلكها أسرته منذ أجيال عديدة.. ويعمل فيها خمسة وعشرون عاملاً زراعياً.. أباً عن جد.. دون أن يكون هذا بوجه الإلزام. ان حياته عاطلة ولكنها ليست مترفة.. ويكاد يكون عمله الوحيد في صنعاء هو بيع الجزء الذي لا يستهلكه من انتاج أراضيهِ : فواكه وحبوباً ومواشي.. وهو راض بعمله، لدليل على هذا أنه قد جعل أساس منزله من الحجر وهذا دليل الرخاء.. وبحق البنائون في صنعاء هذا العمل.. زد على هذا أن مضيفي قد جهز قاعة الحمام الحديثة بالبلاط الأبيض.. وأعد المفرج وعقده الزجاجي الملون.. وقد كلفه كل هذا مائتين وخمسين ريالاً.. وقد قدم لي كل التفاصيل التي تهمني.. أما هو فكان يريد مني أمثالاً فرنسية.

واليمنيون يقدرّون دائماً هذا اللون الشعبي من الحكمة، ويحبونه لأنهم يفهمونه بسرعة.

وبعد الغداء.. لا أحد يعمل.. فالصناعات اليدوية ومكاتب الحكومة والورش الصغيرة، والمحلات التجارية.. كل هذا مغلق.. وإذا فتحت بعض الدكاكين من الساعة الرابعة فليس إلا تكملة للدخل اليومي الناقص.

فمثلاً : أبو الفتاة «هاجر» هو جمال في الصباح ولكنه بعد الظهر يبيع الحطب والكاكز.. بعد الظهر يتغير طابع الشوارع ومظهرها كلية، فالرجال يذهبون إلى مجالس القات وقد حملوا معهم ربط القات.. وصناديق التباك تحت أكمامهم أو على ظهورهم، أما النساء فيظهرون في الشوارع وقد تغطي الجسم كله من قمة الرأس إلى أخمص القدم بملاية هندية ذات رسوم متشابهة وألوان حمراء وزرقاء وخضراء.. وعلى الوجه حجاب أسود شفاف يتلمس طريقهن من خلاله، وتزينه دوائر بيضاء وحمراء تعطيه شكلاً غريباً شبيهاً برؤوس الحشرات.

وتشد الأنيفة منهن الملاية الملفوفة حول جسدها، وتسير هكذا في خطوات متهادية.. ويلبسن أحذية ضخمة وذات كعب منبسط على الشكل الأوروبي وهو مصنوع محلياً.. إنه أنيق ولكنه ثقيل، وكثيراً ما يخلعنه ويضعنه على رؤوسهن بقية الطريق.

يغيب بعد الظهر حتى عبده مترجمي.. ولا يقبل على مرافقتي إذا كان لابد لي من القيام ببعض الزيارات.. ويقول : «مستحيل يا حكيمة.. إن الرجال ليسوا موجودين بعد الظهر.. حتى ولو كانوا موجودين فإنهم مشغولون بمضغ القات..» وهو يعني بهذا أنه سيحرم من المنحة الصغيرة التي قد يعطونها له.. إلا أنني اليوم ذاهبة إلى بيت عامل صنعاء ولا أريد تأجيل الزيارة إلى الغد.

إن العامل لا ينتظرني بكل تأكيد.. إن حوله خمسة عشر أو أكثر من الزوار في المفرج.. وقد نسي تماماً حاجته إلى الكشف الطبي.

وبصعوبة تبينت الصنعائي الوقور الذي تعودت أن أراه في الصباح، لقد أخذ كل واحد منهم راحته فألقوا بالخناجر والعمائم جانباً وشوه القات وجوههم وهم يلوكونه في الحنك الأيسر.

أما الرجل العجوز الذي تساقطت أسنانه جميعها فإنه يسحق أوراق القات النظيفة بكل عناية في مدق صغير .. وفي القات قليل من المرارة. لكنهم يلطفونها بوضع قطعة من السكر بين القات في أفواههم. وهم أيضاً يدخنون النارجيلة «المداعة» فيتداولون قصبته بأدب ويشربون الماء المبخر.. كل هذا مع الاحتفاظ بمضغة القات في الفم ساعات طويلة.

إن أثر القات لا يكون في أول الجلسة مقبولاً، إذ هو دوخان وارتجاف وخفقان وارق، أما بعد ذلك فيصبح الفكر رائقاً نشيطاً، متفائلاً ، وتغدو الروح سمحة رقيقة، والجسم هادئاً، والجنس كامل الصفاء.. ويجب كل واحد أن يتكلم كثيراً وأن يقص الكثير في حكايات القات. ويختلف طعم القات وآثاره باختلاف نوعه ومنبته. ويوجد اليوم قات «متنقل» يدفع المرء إلى جولات طويلة في الليل.. بدون هدف.. وبشيء من الذهول والنشوة، وقديماً كان هناك قات دموي، يدفع مدمنه إلى العنف.. ولكن الأئمة الحكماء أمروا باستئصاله.

كان من العيب سحب عامل صنعاء من انسجامه العميق واسترخائه.. وأنا لا أقوم بعد الظهر بزيارات، ولكن كثيراً ما أدعى إلى مجالس النساء.

وعلى سبيل المثال فإني اليوم ذاهبة لزيارة زوجة الصيدلي. إن للنساء مجالسهن الخاصة، والرجال في المناسبات الهامة يتركون لهن المفارج.. تخلع كل قادمة ملايتها وحذاءها وتضعها فوق اللفات المكدسة في الحجرة. ثم تدخل وتحيي الجالسات في الغرفة ويتبادلن تقبيل الأيدي .. وثمة نظام دقيق يحدد طريقة التحية وعدد القبلات ومن يجب أن يبدأ أولاً وفيما إذا كان لابد من الوقوف، الخ. وتجدر الداخلة أخيراً مكانها حيث تجلس متربعة لا تتحرك ساعتين أو ثلاثاً..

والرجال يفضلون المجالس الصغيرة، حيث لا يزيد العدد عن خمسة عشر شخصاً .. وهذا مناسب للحديث والنقاش. أما النساء فيعشقن الكثرة.. وقد يصل عددهن أحياناً إلى أكثر من مائة سيدة.

وتكون النوافذ مغلقة بالستائر، بل أحياناً بالسجاد، والعقود الزجاجية وحدها هي التي تضيء الحجرة، وفي هذا الظلام الخفيف يتكون من ثياب هؤلاء النسوة الجالسات، ومن يرافقهن، روضة ساحرة جميلة زاخرة بالألوان الصارخة المتعددة.

وللإيمانيات وجوه ممتعة شاحبة ، وملامح متناسقة، وهن يستعملن أصباغاً كثيرة.. ولا يكتفين بالروج للشفاه والخدود والأظافر، بل الكحل أيضاً الذي يجسم الحواجب ، ويضع نقطاً دقيقة، تحت الفم وعلى الجباه ، أما اليدان والقدمان فتزينهما جدائل سوداء في شكل أكلیل من الزهور والخضرة كقفاز من الدانتلا، بل إن بعض النساء يرسمن أشكالاً تزين صدورهن وتنزل إلى مابين النهدين، ولكن هذه النعمة لايعرفها إلا الزوج والطبيب .. فالنساء يلبسن ويتزين في حدود الحياء تماماً كزوجة الأمير التي التقينا بها في حمام علي .. وتفصيل الملابس واحد لا يختلف، والقماش وحده هو الذي يختلف ..

العجائز يضعن على رؤوسهن خماراً من الشاش المزركش مشدوداً حول الرأس ويخفي العنق، ويضعن على الجانبين أغصاناً زكية الرائحة، عطرة ومشابك طويلة.. وهذه موضة قديمة قد هجرتها الشابات اللاتي يفضلن أن تكون عصابة الرأس على الطريقة التركية.. إلا أنهن لا يعرفن تجانس الألوان .. أو بالأحرى أن ذوقهن يختلف عن ذوقنا، وعلى هذا فهن يحبين مجاورة اللون الأحمر القرمزي للأحمر القاني تماماً كالهنديات. وهذا يبدو لنا قبيحاً .

وفي هذه المجالس تدخل النساء كثيراً، وإذا كان الزوج كريماً فإنهن يتعاطين قليلاً من القات .. وتتحدث كل واحدة همساً مع من تجاورها وقد تقول بعض الجريئات شيئاً يهز، فتطلق النساء من حولها صرخات الدهشة والعجب.. يوه.. يا أختي ! مع إخفاء وجوههن.. إنهن يتكلمن قليلاً ولكنهن يرقصن كثيراً.. ويفسح المجال في الوسط بكل صعوبة وتقف مغنية في يدها الدف.. ثم تنهض امرأة وتدعو إحدى زميلاتهما، ويرقصن اثنتين اثنتين.. أو ثلاثاً ثلاثاً.. وأحياناً أربعاً.. وتتقدم الراقصات.. ويدرن وينتئين طبقاً لنظام يبدو لأول وهلة رتيباً مملاً.. وتتقدم الراقصات.. ويدرن وينتئين طبقاً لنظام يبدو لأول وهلة رتيباً مملاً.. ولكنه لا يلبث أن يصبح ساحراً فتاناً عندما يتعود عليه الإنسان.. وتخفص النسوة طرفهن.. ولا يبتسمن، وتمسك الراقصة بيد منديلاً وطرفاً من الثوب، وبالأخرى تمسك يد زميلتها في الرقص.. ويكمن فن الرقص في أوضاع القدمين المعقدة اللتين تنتقلان على الأرض.. وفي حركات الأرداف، وتظل نساء اليمن نحيفات.. طريات العود.. طوال حياتهن، وهن غير راضيات لهذا.. فالمرأة المثالية في نظر اليمنيين.. هي البيضاء البدينة الجميلة.. وكثيراً ما طلب مني الرجال أن أعمل على أن تصبح نساؤهم بديئات، ولكن دون جدوى للأسف.. أما الفتيات الصغيرات فوجوههن جميلة.. إلا أنهن لا يحسن الرقص لأن أجسامهن متصلبة ناشفة..

ويثير اهتمامي أن تقوم للرقص امرأة متقدمة في السن، ذات وجه أغبر، تتكلف الدلال والغنج.. إنها بكل تأكيد تجيد ذلك الخليط العجيب من الهز والتماوج الذي يعطي رقصات الشرق ذلك السحر وتلك الفتنة.

هكذا تقضي النساء أوقات فراغهن، بعيداً عن الرجال.. في الصباح وأثناء الغداء وبعد الظهر.. شيء مدهش هذا المجتمع النسائي الذي ليس ديراً.. فالنساء أنيقات، مخضبات يرقصن، ويعرضن مجوهراتهن.. ولكن لا لإرضاء الرجال.. فالرجال لا يشاهدون أبداً هذا البهاء.. وكثيراً ما سألت إحداهن: «ولكن هل سيراك زوجك بهذا الجمال وهذه الزينة.. هذا المساء، هل رآك ترقصين؟» فترد دهشة مستغربة: «كلا!».

إن البطالة هنا لا تعني الرضا.. ولكنها بكل بساطة تدل على انعدام العمل.. وساعات النهار الهادئة هذه ليست امتيازاً للأغنياء بل إن متوسطي الحال وحتى الفقراء يشاركونهم فيها.. والفرق هو الزينة والملابس ونوع القات.. إن القات في العادة يخصص للجمعة والمناسبات الهامة.. أما في الأيام الأخرى فإنهم يدخنون ويضعون في

أفواههم «البردقان» أو مسحوق التنباك.

وقد ذهبت مراراً مع «هاجر» عند صديقاتها.. وهن متواضعات الحال مثلها.. وملابسهن تميل إلى السواد، ولا يحملن مجوهرات بطبيعة الحال.. ولا يدفعن شيئاً للمغنيات.. وتشتغل بعض النساء بالتطريز والخياطة لحساب أحد التجار ويدفع أجرهن بالقطعة.. وهن يواصلن العمل في هذه المجالس التي هي أكثر صخباً ومرحاً وحيوية من مجالس نساء الطبقة الراقية.. وفيما عدا هذا فإن كل شيء يسير على نفس الطريقة..

هذه الحياة الرتيبة الرخوة لن تظل من نصيبي طويلاً.. فقد ازداد المترددون علي في الصباح وكنت أوجل بعضهم إلى ما بعد الظهر.. وعندما يتسع الوقت وأشعر أنني قد حصلت على ثقة المريض كنت أنتقل به بعد المعاينة إلى حجرة الطعام التي تتحول إلى مصيدة للاختبارات، ولم يكن أحد منهم قد رأى صورة ملونة أو تمثالاً منحوتاً، أو سمع مقطوعة من الموسيقى الغربية.. ونصغي معاً إلى الأسطوانات ونتصفح الألبومات لنرى القطع الفنية.

فهل حقيقي أن الشرقيين لا يهتمون إلا قليلاً بفنوننا؟ إنني أستطيع أن أجيب بالنفي، كل ما عرضته عليهم كان يستقبل بانعكاسات صريحة وكنت أنا دائماً التي أنهي الجلسة وبهذا تمكنت من معرفة أذواقهم.

فن الزوج، فننا الحديث.. فنون مصر.. والصين.. والهند.. كل هذه الفنون أضحتهم وهزتهم.. أما الفن الكلاسيكي القديم فقد قوبل بدون اكتراث.. إنهم يحبون الأعمال الزاخرة بالتفاصيل الدقيقة.. التصويرية.. المعبرة جداً ولا سيما فنون النهضة الإيطالية أو المدرسة الرومانتيكية الفرنسية، وفوق كل هذا أعجبهم أسلوب «سان سلبيس» الذي لم تكن لدي منه مع الأسف إلا نماذج نادرة.

ليس المهم أن يكون للإنسان ذوق سليم «المهم أولاً أن يكون له ذوق..» في الموسيقى، ضايقهم باخ وموزارت.. وكانوا يقولون إنهم يسمعون «نفس الشيء.. دائماً..» ولكنهم مشغولون بموسيقى شوبان وليزت والموسيقيين الروس، ورافل، وديبوسي.. لقد أحبهم جميعاً.. وكثيراً ما كنت أتوسع في الاختبارات، فأفتح النافذة وأرفع الموسيقى حتى يسمعها من بالشارع.. وأراقب وأنا خلف الستارة انعكاسات الناس الذين يتجمعون.. وكنت أجدب المستمعين بوضع مقطوعتهم المفضلة «الغلام الساحر» ولكنهم يذهبون عندما تنتهي الموسيقى التصويرية فيما عدا الشيوخ في بعض الأحيان.. لقد رأيت رجلاً مسناً يستند بظهره إلى الحائط ويتوكأ بعصاه ويظل واقفاً لا يغادر المكان إلا بأسف شديد.. عند آخر رعدة من سيمفونية سيزار فرانك.

وكثيراً ما كنت أواصل العمل في المختبر بعد الظهر وكنت التقي بالمرضى الذين يأتون لمساعدتي وللتعلم ولكنهم لم يكونوا يهتمون إلا بدراسة وظائف الأعضاء وكنت من أسئلتهم أدرك مستوى معرفة الصنعائي المتوسط الذي ترك المدرسة في سن

الخامسة عشرة .. كل ما معهم هو الإسلام وتاريخ بلاد الإسلام ، ولا يكادون يعلمون أن ألمانيا قد هزمت في حرب عالمية .. وهم يجهلون كل شيء عن الثورة الروسية وعن مبادئ الاقتصاد الاشتراكية.. ولا يعرفون كيف تقوم الديمقراطية .. ولا كيف تجري عملية الانتخابات .. ولا التصويت بالأغلبية في جمعية ، وكانوا يسألونني إن كان لنا في فرنسا ملك طيب .. وعندما كنت أشرح لهم بالحركات والإشارات ما جرى للملك لويس السادس عشر، لم يكونوا يخفون استحسانهم واستصوابهم الحار بل وحماسهم .. إن حياتهم شاقة عسيرة .. ومرتباتهم لا تكاد تسد نفقات طعامهم وثيابهم، وهم يتوجعون من الحصار المضروب عليهم، ومن أنهم لا يعرفون ما يجري في العالم.. وإذا قدر لليمن أن تتغير فسيكونون هم الذين سيغيرونها.

وفي نحو الساعة الخامسة يصبح المختبر وهو غير مزود بالكهرباء مظلماً إلى درجة لا يمكن معها مواصلة العمل، واختم النهار بنزهة على ظهر حصاني حول صنعاء.. وكما مكنتني الحجاب من معرفة الجمهور جيداً جعلني كذلك أدوق حقيقة هذا الريف الذي تنعدم فيه السبل المطروقة، وقد ساقني يوماً بالرغم مني إلى الإسطبل الذي ولد فيه.. وتعددت زياراتي لهذا المكان منذ ذلك اليوم.. ويقع هذا الإسطبل على بعد كيلومترات قليلة من صنعاء.. في الجنوب.. وقد استقبلني العساكر مسرورين، وطافوا بي لأرى الخيل وهي تأخذ راحتها في حظيرة معتمة، إن سقفها منخفض، يقوم على أعمدة، وبه فتحات يسقط منها قليل من الضوء.. وعلى الأرض كومات من التبن، والخيول غير مربوطة إلى الحائط، بل تتجول بحرية.. وعندها شعور غريب إنها في بيتها.. وعلى الرغم من أنها كلها غير خصية فإنها لا تتقابل أبداً، بل تحتفظ حتى الموت ببراعتها وطهرها الأصيل.. أما الفحول، أو الخيل الطلوق فإنها مقاتلة، وهي لهذا معزولة وحدها.

ويحل الظلام في الساعة السادسة، فأعود إلى صنعاء وقد ارتفع صوت المؤذن يدعو الناس لأداء الصلاة الأخيرة، إن صنعاء خالية من الآلات فلا يرتفع فيها هذه الساعة إلا دوي عجيب: صرخات ووقع أقدام.. وينسل الحجاب من فتحة الباب الذي يوشك أن يغلق، وتصبح صنعاء مغلقة حتى صباح اليوم التالي.. وتسري الحياة في الشوارع من جديد.. إذ تقف جموع المتسولين أمام أبواب البيوت الكبيرة ويقوم رئيس الخدم بتوزيع الخبز على عملائه.. ويخرج الرجال لأداء الصلاة التي لا تفوتهم إلا نادراً.. إنها الفاصل الطبيعي بين حياة النهار الاجتماعية، وحياة الليل العائلية.. وهذه الوقفة النفسية تتم عندنا في أوروبا أمام الكأس.

أما النساء فلا يذهبن إلى المساجد، ولكنهن في مثل هذه الساعة يعدن من مجالسهن إلى البيوت في مجموعات صغيرة.. ولما كانت الملايات التي يتلفعن بها على نمط واحد فإن الرجل قد يلتقي بزوجته في الطريق ولكنه لا يعرفها. وبعد كل هذه المتناقضات.. أذهب كل مساء إلى ملكة صنعاء ولا يقف حصاني أمام بيت

الإمام ينتظرني بل يعود بضربة خفيفة على ظهره إلى إسبطله بكل هدوء.. ويقف في الطريق أمام النافورة يعب من مائها وهو في سيره يتمهل ويتلفت.
هذه العودة المفردة هي تسلية الحي كله.. ولا يطلب مني حرس القصر أي إيضاح فهم يعرفونني.. واجتاز الردهتين وأمر بالباب الثالث حيث يصب علي الحارس العجوز فيضاً من بركاته ودعواته، وأصعد السلالم متحسّسة في الظلام.. وأفتح باباً.. فأجد الأميرة التي تشرفت بصداقتها في حجرة صغيرة من الطابق الرابع والأميرة في سن السابعة والعشرين.. وقد تزوجها الإمام قبل خمسة عشر عاماً ولكنه لم يرها على الإطلاق.. إلا أن اقترانها بالإمام قد ملأ حياتها وهي تشعر نحوه بحب تقي طاهر.. وأجدها تصلي فأجلس في هدوء على الوسائد.. ولعل أجمل لحظات النهار كله هي هذه اللحظات المعدودة التي أمضيها أمام أميرة تؤدي صلاتها وقد ألفت الشمس الغاربة أضواءها على مدينة صنعاء.

وتقف الأميرة وتخلع الرداء الأبيض الذي يسبغ عليها مظهر راهبة متنسكة.. وتعود إلي باسمه.. إنها جميلة وأكثر من هذا.. إنها سريعة البديهة.. ماهرة وطيبة.. وقد جمعنا عاطفة صادقة.. رغم ما يفصل ما بيننا.. وأتركها في وقت متأخر وقد أخلى حراس الليل شوارع المدينة من المارة.. وعلت أصوات الكلاب، واحتل العساكر مراكز الحراسة، وأرسلوا صرخاتهم في هذا الظلام الدامس.. ويقضي الناس أمسياتهم في المفارج العليا، ومن فوق النوافذ الخشبية المقفلة تشع العقود الزجاجية أشكالاً متعددة الألوان.. وكأن صنعاء متوجة بجواهر متألئة.
تتشابه الأيام في سهول اليمن العالية لأن الطقس لا يتغير طوال الفصول، ولكن السنة تتميز بفصل الجفاف الطويل، وعواصف الربيع وحياة شهر رمضان المعكوسة، وأفراح الأعياد الكبيرة.

ففي يناير، وقد حرمت صنعاء من المطر ثلاثة أشهر، يظهر الجليد في الليل أحياناً، وتندر الأزهار في الحدائق والبساتين، أما في الصباح فإن الأطفال يلعبون بأقراص الثلج.. وتغرب الشمس في نحو الساعة الخامسة وترتفع درجة الحرارة سريعاً.. فلا يأتي آخر الشهر حتى تكون الأشجار المثمرة قد تفتحت أزهارها.

وفي فبراير ومارس يزيد الغبار.. ويصاب الناس بالسعال.. ولا تتوقف الآبار عن الصرير.. ويبدأ الحرث في ضواحي صنعاء.. فيسير الرجل بمحراثه في الحقول التي تعتمد على ماء السماء، تتبعه امرأة تضع البذور حبة حبة وترد عليها الرمال بقدميها، وتجف تربة الحقول التي سقيت وتصبح قشراً صلبة يضربها الرجال بالفؤوس وتفتتها النساء وراءهم.

أما صنعاء فتأخذ في التأنق والنظافة، فتفرغ من الرمال والزباله، ويقف رجال معلقون في حبال قوية يطلون واجهات البيوت ويبيضونها وتغسل النوافذ الخشبية في برك المفارج وترفع الفرش والسجاجيد في حجرات المنازل.

ويأتي المطر الذي انتظروه بفارغ الصبر.. الجو في الصباح جميل دائماً، وفي الظهيرة تنتشر السحب في السماء، ثم تهب الرياح وتبرق العواصف.. عواصف مزعجة مصحوبة بزوايا مائية تحول الشوارع إلى مستنقعات، وتتسبب أحياناً في انهيار المنازل، وفي المساء تصفو السماء ويخضر كل شيء، في البساتين.. وتأخذ أحجار الجبال، وأوراق أشجار الفلفل التي غسلتها الأمطار، وأزالت عنها الغبار، ألوانها الحقيقية، ويسير الأطفال في الأرض الموحلة وهم يرددون الأغاني.. نفس الأغاني على الدوام.. أما بالنسبة للخيل فإن هذه فترة رديئة.. فإذا تبللت حوافرها مشت عرجاء.

ويظل المطر هكذا من إبريل إلى أكتوبر.. أمطار قليلة في الربيع، غزيرة في أغسطس وسبتمبر، وتفصل بينها، نظرياً، فترة سكون، إلا أنها في الحقيقة ليست منتظمة.. وفي شهر إبريل تمتلئ البساتين بالأزهار والخضروات والفواكه وتميل السنبلة إلى الصفرة.. وتنضج الكروم في يونيو.. وكان رمضان - أثناء إقامتي في صنعاء - يحل مع حرارة الجو في يونيو.. ولكن الشهور العربية قمرية، وهي لهذا أقصر من شهورنا، فيتقدم رمضان والأعياد الكبيرة قليلاً في كل عام.

والصوم ينتظر بخليط من العواطف.. إنه امتحان دون شك ولكنهم يقبلون الحياة رأساً على عقب.. فمن شروق الشمس إلى غروبها لا يجوز لهم تناول أي غذاء.. فلا يأكلون ولا يدخنون ولا يمضغون القات ولا يستعملون الحقن، والصوم يفرض من سن الخامسة عشرة، ولكن النساء لا يواصلن الصوم أثناء فترات الحيض، بل يعوضن الأيام التي أفطرن فيها بصوم أيام مماثلة في الشهور التالية.

وقد وجد اليمنيون حلاً لصعوبة رمضان، فهم يستيقظون الليل وينامون النهار ويسير كل شيء في هدوء. ففي الصباح تخلو الشوارع وتغلق الدكاكين.. ويخرج العساكر من أماكنهم والنوم يداعب جفونهم.. ويذهبون إلى المسجد للصلاة.. بل إن المستشفى يخلو من المرضى الذين يرفضون العناية بهم في رمضان.. ولكن الناس أجمعين يتلون القرآن حتى أولئك الذين لم أكن أصدق أنهم يعرفون القراءة.. ويكون السؤال عندما يلتقي الناس في الشوارع هو: «كيف رمضان»؟ وبعد الظهر تدب الحياة في المدينة بالقدر الذي لا غنى عنه.. وعند الغروب تعلن المدافع انتهاء الصيام.. ويسرع الناس في شربون، ويشعلون لفافات التبغ ويتناولون قطعة من الخبز وبعض حبات التين.. ولكن أحداً لا يأكل قبل أن يقتسم اللقمة الأولى مع أول من يلتقي به في الطريق في تلك اللحظة، وكثيراً ما قدموا لي - أنا المسيحية التي لاتصوم - واقتسموا معي إفطارهم.. وهذا دليل على العاطفة الأخوية.. ولعل هذا أعظم ما أعتز به.. إن ثقة الناس قد زادت بسبب جهودي في سبيل إيجاد الأدوية وتوفيرها لهم وقد كانت لهذه الثقة قيمتها العظيمة في الأوقات العصيبة.. فقد فقدت في أول الأمر عملائي من التجار الأغنياء... لأنني أعالج الفقراء مجاناً وهم يريدون أن أعاملهم كما أعامل الفقراء.. ثم انهم لم يعترفوا لي بأن

أنظم زياراتي بناء على خطورة الحالات وأهميتها لا على ثراء المريض أو فقره .. وفقدت بعدهم عملائي من الأمراء .. فقد كانوا يستدعونني لأتفه الأسباب وفي أي وقت، وكنت أستجيب لهم..إلا أنني وجدت أنه من المستحيل أن أضحي من أجلهم بعملية الضروري فكننت أتجاهلهم فيما بعد وأتظاهر بالغباء.لقد رفضت أن أكون تسلية لهم..حتى لقد طردت يوماً أميراً وقحاً من حجرة العيادة، وكان قد دخلها بحاشية مكونة من عشرة أشخاص..واعذر عبده للأمير وهو في ارتباك وقال له:«هؤلاء الفرنسيون رؤوسهم من الحديد..وهناك أشياء لا يستطيع الإنسان أن يجعلهم يفهمونها..» وقد أدرك الممرضون بقوة معنى صراعي..وكانوا يدمدمون «ليحفظك الله» حين رفضت ترك معاينة ملحة استجابة لنزوة أمير.

ثم رفعت عائلة أحد الأمراء شكوى ضدي إلى الإمام..لأنهم طلبوا مني أن أنتظر أكثر من ساعة حتى يذهبوا إلى الصيدلية يحضرون منها حقنة ليست عاجلة..ورفضت الانتظار لأن أعمالي كانت كثيرة..وقد قال الأمير محتداً «إذا مرض الأمير فعلى المدينة كلها أن تنتظر» وقد دهشت أن أجد أميراً، يتظاهر بالتدين، أنانياً يدعي أن من حقه أن يسخر لخدمته الطبيب الوحيد في مدينة كبيرة..

وعلى كل مر العام بسلام..وقد تجولت خارج صنعاء، وأرسلت مراراً عديدة إلى مدن نائية كمدينة ذمار، ومناخة ، ومأرب، واستعدت عطف الأمراء ورضاهم دون أن أضحي بعملية..وكنت في آخر العام سعيدة لأنني لم أعد وحدي، فمعي في المستشفى مساعدة فرنسية أسلمت وسموها نجبية، وهي تعيش في صنعاء منذ مدة سابقة..وقد جاءت إلى صنعاء مع زوجها ولكنها لم تكن راضية ولا سعيدة، وبفضلها عرفت النساء من الوسط الشعبي.

وفي الفترة نفسها جاء إلى صنعاء مهندس لتشييد محطة الإذاعة وهو من عائلة يوغوسلافية تقيم ببلبان منذ زمن طويل..ويحمل دبلوماً من مدرسة فرنسية كبيرة ويجيد الفرنسية والعربية.وقد أفادتني خبرته الطويلة وفهمه العميق للشرق الذي عمل فيه منذ أكثر من ثلاثين عاماً. قررنا أن نتبادل المعلومات..أسرار الرجال مقابل أسرار النساء وبهذا عرف مني حياة النساء الداخلية وأحوال الفقراء..وعرفت منه حياة الرجال وشؤون الأمراء..يبدو لي أنه ليس هناك ما هو أفضل من تعاون ودي بين مهندس وطبيبة لفهم بلد ما ودراسته.

وكان للمهندس مشاكله وصراعه..ولكنها كانت كلها تتذلل وتهون وكان منزله ملتقى أكثر رجال صنعاء تفتحاً وذكاء..

وانتهت السنة وتوقعنا أن يمر يوم عيد الميلاد كما تمر بقية الأيام .. ولكننا ظللنا من الصباح إلى المساء نستقبل أصدقاءنا اليمنيين الذين جاءوا يتمنون لنا عيداً سعيداً.. أما سيف الإسلام البدر فقد تذكر عادتنا الغريبة فأرسل لنا ديكاً رومياً من الحديد ولكننا أنقذنا حياته وظل طوال الشهور التالية يتنقل في أرجاء البستان رمزاً حياً للكرم..

وبعد فإني سأحدث عما قليل عن أولئك الذين عرفتهم هناك، سأحدث عن الرجال والنساء والأطفال، عن الأمراء والجنود؛ إنني لا أدعي أنني قد رسمت صوراً كاملة.. فقد قصصت بكل بساطة ما استطعت أن أعرفه من حياتهم وفي أي المناسبات التقت حياتهم بحياتي ولكني قبل أن اتناول تلك الأفاصيل، أجد من اللائق أن أحيي المؤثر الرئيسي في حياتهم، ذلك الموجود في كل مكان، الذي يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء.. إنه يعرف كل شيء، ويعلم أنه على كل شيء قدير، إنه أكبر من كل شيء، متكبر، غيور، خبير، له الحمد والثناء، كريم للذين يخشون قدرته.. فهل يحب بني الإنسان؟ .. لست واثقة من ذلك، ولكنه عادل.. ولايمان أن يكون رحيماً من حين لآخر.

فهو بالإجمال ذات تجب معرفة الوصول إليها.. وقد انتهى اليمنيون إلى معرفة ذلك، إنهم يفرعون إليه كل شيء ويحمدونه في السراء والضراء، إنه شاهد أبدي، ورفيق لا يمل، وهم يرددون اسمه في كل وقت.. وبلا انقطاع.. وقد صنعت صنيعهم ولربما قد التقيت به مرة.. ولكني قليلاً ما أعرفه.. ولا أستطيع أن أتحدث عنه أكثر مما قد فعلت. شريفة في سن الثانية عشرة، ولطيفة في الثامنة من عمرها، جاءتا من جبال الشمال.. فقد عرفت الفتاة الكبرى أنه بعد موت والديهما لن يجدا في القرية علاجاً لبؤسهما وتعاستهما، فسحبت اختها الصغيرة وذهبتا إلى صنعاء تجربان حظهما، وكانت الرحلة قاسية شاقة استمرت ثلاثة أشهر وصلتا بعدها إلى المستشفى.. واستعادتا صحتهما وحيويتهما، ولكن شريفة خرجت من مغامرتها ببرود مصطنع وغير طبيعي بالنسبة لفتاة في مثل سنها لم يعد ينظر إليها على أنها طفلة..

وحينما عرف المرضى أنني قد أحضرت معي علاجاً تراحموا على المستشفى وكثر عددهم فأردت أن أخلي السريرين اللذين تحتلهما الفتاتان شريفة ولطيفة لانهما لم تعودا بحاجة إلى العلاج، ولكني عندما تحدثت عن إخراجهما توصل إلي كثيرون أن احتفظ بهما، وصف لي عبده الملجأ الواقع خارج المدينة الذي يجمعون فيه العاجزين واليتامى وكان هذا ما ينتظرهما، وهو أمر فظيع.

وقد تصورت هذا بسهولة ولم تسعفني الشجاعة لزيارة هذا المكان.. وإذن فما العمل؟ إن سيدة فلسطينية تدير مدرسة وتعلم فيها عشرين فتاة الخياطة وقراءة القرآن.. وشريفة حادة الذكاء ويمكن المراهنة على مستقبلها.. وقد أبدت استعدادي لدفع نفقاتهما ليعيشا عند إحدى العائلات على أن تذهبا إلى المدرسة كل صباح.. وقبلت شريفة بتحفظ واتخذتا كل الإجراءات.. في اليوم المحدد منعهما المدير من الخروج وحثته أن الاعتماد على مسيحية في كفالة صغيرتين مسلمتين مادياً ومعنوياً أمر له خطره وأهميته ولا يجرؤ المدير على البت في هذا الموضوع.. ولا بد من الكتابة إلى الإمام ولكن الإمام ابداً لا يريد، وظلت الفتاتان تسرحان في أرجاء المستشفى.. وبدأت شريفة تدرك أن ملاطفة العساكر يمكن أن تأتيها ببعض النقود.

والمدير في سن الثانية والعشرين وهو يشغل هذه الوظيفة برغم حداثة سنه لأنه من أسرة كبيرة مخلصه للإمام.. ولما كان عديم الخبرة فقد عينوا له مساعداً يكبره ببضع سنوات .. ولايكاد المدير يفارق مساعده وقد ذهبت مرة لزيارة أسرته في بيته الجميل في النهرين.. وأردت أن التقط بعض الصور فوقف الرجلان أمام الكاميرا واحتضن المساعد صديقه المدير وأخذاً يتبادلان القبل والعناق وكنت اشجعهما والتقط الصور الواحدة بعد الأخرى وتملكني إحساس مبهم أن هذه الصور قد تنفني يوماً ما.. وفعلاً .. استدعاني المدير في اليوم الثاني وكان يبدو متضائلاً منزعجاً ولعله فكر في الإمام وفي مايمكن أن يقوله عن مسلمين وقورين يمزحان.. وطلب مني المدير أن أسلمه الفيلم فأجبت: وهل تعطيني الفتاتين؟ وضحكنا لهذه الدعابة وألقيت السلاح الذي في يدي بتردد وأرسلت له الفيلم كله ولكن العربي يحترم كلامه.. ولهذا فقد وجدت الفتاتين في منزلي في اليوم التالي.

نزلنا أولاً في منزل بئس.. ثم وجدت شريفة عائلة مناسبة تعاني صعوبات مادية وترحب بالفتاتين واستقرت الفتاتان وبدأت شريفة تنضج وتلبس الخمار ، وتصبغ يديها وتتعلم الرقص ولاتأتينني إلا عندما تكون في حاجة إلى شيء.. ولا تبتسم إلا تعبيراً عن الشكر.. ولكنها كانت تتقدم في دراستها بصورة مذهشة وكنت ألتقى التهانى من مدرساتها.

وجاء موسم العنب فتغير كل شيء.. خرجت الأسرة إلى الوادي كأغلب سكان صنعاء لقضاء الموسم.. ولكن شريفة تريد أن تبقى في المدرسة، فأنزلتها عند نجبية الفرنسية التي أعلنت إسلامها عندما تزوجها يماني في فرنسا.. وتحرك الحساد وجاء العساكر يوماً يبحثون عنها ،فوقعت طريحة الفراش من هول الصدمة ، ولكن الأمير الحسن رفض أن تتولى أجنبية تربية الفتاة ولما تدخلت في الموضوع ،سمح لها بالبقاء في المدرسة وتولى هو الصرف عليها، وأنزلها عند زوجة أحد الجنود.

وبدأت تعاسة شريفة.. فقد أحالت الزوجة حياتها جحيماً ، وكانت غير راضية عن مشاغلها غير العادية وعن عدم مساعدتها لها في العمل طول النهار.. وكان على الطالبات أن يحضرن وجبة الغداء معهن إلى المدرسة ، ولكن زوجة العسكري لم تكن تعطيها شيئاً.. وكانت تهددها بأنها لن تذهب إلى المدرسة بعد سفر الطبيبة.. وكان جواب شريفة هو أريد أن اتعلم القراءة حتى لا أكون غبية.

واختفت شريفة ولم أعر لها على أثر.. فقد رأى الأمير الحسن أنها قد وصلت سن العمل فأخذها هي وأختها خادمتين في قصر بعيد.. وظلت الفتاة ماثلة في فكري.. وبعد شهور وقفت متسولة صغيرة على باب منزلي إنها لطيفة.. كانت غير مكترثة قذرة ،وقد جاءت تقول لي إن شريفة في السجن في صنعاء ،والحديد في قدميها وهي في ظروف قاسية مزرية.. كل هذا لأنها رفضت زوجاً!!

ويبدو أن شريفة أساءت التصرف مع العساكر ،فقد أراد خادم عجوز حريص على

عفتها وطهارتها أن يتزوجها ويسير بها في الطريق المستقيم.. ولما رفضت حبسوها .. وعندما ذهبت لزيارتها جاءتني عجوز بشع هي حارسة السجن وطلبت مني مبلغاً كبيراً لشريفة ورفضت أن تسمح لي برويتها رغم المنحة التي قدمتها لها. ورأى عبده أن الوسيلة الوحيدة لخروجها من السجن هي وجود زوج طيب يوافق عليه الأمير ،وقدم عبدالله سائق عربتي نفسه للقيام بهذه المهمة ، ولكني أبديت له عدم اطمئناني ورضاي لأنه لن يدعها تواصل دراستها ،وقد وافقتي بروح طيبة وشرح رجلاً هادئاً من تجار الضواحي ولكن هل سيسمح هذا الرجل لزوجته بالذهاب إلى المدرسة!

ولكن قبل هذا لابد من الحصول على موافقة الأمير الحسن.. وقد توجهت أولاً إلى أحد عملائي أتوسط به.. وكان رجلاً وقوراً عطوفاً من أقارب الإمام وقد أصغى إلي ولكنه لم يفعل شيئاً بل قال اذهبي هادئة راضية فالله يحكم على الناس من خلال نواياهم أكثر من نجاحهم..وقد أدركت في تعبيرات عينيه الزيف.. وفهم كل منا الآخر فهمت أنه مخادع ، وفهم هو أنني روح شريرة خطرة على راحته ، وكان جوابي (أنه يستوي لدي أن تكون لي حسنات عند الله أو لا تكون ما دامت شريفة لاتزال في السجن).

وهنا أصبحت نظراته قاسية.. وانصرفت ،وفقد البيت في نظري هالته وجلاله .. وكلمنا ذهبت إليه بعدئذ خيل إلي أنني اسمع صرير السلاسل في قدمي شريفة..ولم يعد أمامي سوى السيد أحمد الهجوة الصديق الحميم لنائب الملك ،وهو شاب في سن الخامسة والعشرين.. ذو وجه وسيم وروح صافية وقلب طيب وكانت ثقتي فيه عظيمة.. وقد أولى المسألة اهتمامه ووعدني إن يعمل ما في وسعه.. وعاد أخيراً ليقول لي أن السيف الحسن كان كعادته عنيداً لا يلين.

وتخلّيت عن شريفة التي أرادت أن تتعلم.. ولن تتعلم.

دفتر .. بلا أمصال

كنت أتناول عشاءي في دار الضيافة عندما أحضروا إلي حجرتي طفلاً يكاد يختنق ،إنه مصاب بالتهاب حاد في الحنجرة أو بذبحة الزور ، وقد أعطيت تعليماتي وطلبت أن يستدعوني إذا ساءت الحال ومرت الليلة وفي اليوم التالي ذهبت لعيادة مريضتي الصغيرة ، وكان قد مات قبل أن يتناول الدواء.

ومضت بضعة أيام واحضروا إلي طفلاً ثانياً ، ولم أعتمد عليهم هذه المرة بل احتطت واشرفت بنفسي وجاءني ممطياً فرساً.. ولم أجد مصلاً فكتبت إلى الإمام ورجوته أن يستغيث بالراديو إذا دعت الحاجة.. ولكن الإمام لم يرد.

كانت الأدوية التي تحت يدي لا أثر لها ، وكان الجراح الدكتور ريبوليه في تعز.. ولم نجد بداً ، أنا وزميلي ،من أن نجري العملية الجراحية وحاول الأب أن يحمل الطفل على ظهره إلى المستشفى.. ولكن الطفل المسكين قد ساءت حالته ولن يحتمل هذا الوضع وقد وضعته أمامي.. وبرغم عذابه وآلامه فقد أخذ الزمام من يدي وكأنه يقوم بآخر

ألعابه ومرحه.. ولكن أنفاسه كانت مأساة محزنة ، فقد كان المارة يسبحون ويرفون أصواتهم بالدعاء إلى الله بل إن بعضهم لحقوا بنا إلى المستشفى ليعرفوا المصير. وفي المستشفى قطعت الجزء المعقوف من سماعتني وصنعت منها ماسورة للحقنة وامتلات قاعة العمليات بأنفاس الطفل اللاهثة ، وكان أحياناً ينهك ويستسلم ويهدأ فنظن أنه قد مات.. وبعد (البنج) ببضع دقائق لم نجد أمامنا إلا جثة صغيرة مذبوحة وخيم على القاعة صمت رهيب ، ودخل الأب واقترب من ابنه وظل ينظر إليه طويلاً كان يظنه ينعم بنوم أو غيبوبة قصيرة ، ولم يجرؤ أحد على أن يذكر له الحقيقة.. وأدرك الأمر فوقع على الأرض يبكي ويصرخ في أسى وحسرة.

وعند الخروج لابد من المرور أمام أولئك الذين ينتظرون في الخارج.. وهم هنا يحبون من ينجح لأن عناية الله معه ، أما من يفشل فإنهم لا يلومونه بل يشفقون عليه ويتفادون النظر إليه خجلاً ورحمة.

وغادرت المستشفى من الباب الرئيسي ، وكنت أحس فوق بطني بدفع الطفل وكأن مكانه لا يزال شاغراً يخنقني ويكتم أنفاسي.. ولحق بي فارس وسيم كنت أعرفه من قبل وقد رأني ذاهبة إلى المستشفى وانتظرنني حتى خرجت، وسألني (والولد؟) فقلت له (مات) وتقدمني وأنا على ظهر جوادي في صمت حزين ، سار جواده بخطوات جنازية كئيبة ثم جرى مسرعاً وتبعته فرسي وأنساني وقع السناك حنقي وغضبي من اني لست جراحة.. ومن أنني لست إلا طبيبة بدون أدوية.

وقمنا معاً بدورة كاملة حول المدينة ، ودعني بعدها هذا الصديق بابتسامة ودية رقيقة. كان الطفل الرابع بنية صغيرة في سن السادسة.. هذه المرة حصلنا بمعجزة على المصل فقد وجدنا علبة فيها اثنتا عشرة زجاجة لم تكن قد تلفت ، وهذا لا يكفي إلا لمريض واحد ، وقد كلفت الممرض بإعطاء هذه الحقن وذهبت غير قلقة ، وفي اليوم التالي كانت الطفلة قد ماتت.. ما الذي جرى؟ لقد وجدت العلبة ولم يكن قد نقص منها سوى زجاجة واحدة! .. إنها مهزلة ومع ذلك فقد كان لدى الممرض الشجاعة الكافية ليقول لي إن الدكتور فينروني قد أوصى بعلاج آخر!.. واستوضحت الأمر فوجدت هذا محض افتراء.. لكن الممرض لم يجرؤ على إعطاء هذه الكمية الثمينة لطفل واحد!..

أما الطفل الخامس فلن يفلت من يدي ، إنه ولد صغير من الريف جاء به اثناء الليل عشرة أشخاص غلاظ لا يفهمون شيئاً ، وقد رابطوا في ممرات المنزل ولم يمنحوني الفرصة للانفراد بالطفل.. ولكن هل يتركونني أعطيه الكمية اللازمة من الحقن؟ أن هذا أمر ضروري وقد فتحت الزجاجات التسع الباقية معاً ، واخترت من المجموعة امرأة غليظة قاسية تساعدني.. وفي الصباح كان الطفل حياً ، وفي المساء تحسنت صحته ، وفي اليوم التالي كان قد شفي.

لقد انتهى المصل ، ولم تبق إلا عناية الله الرحيم.
فاطمة

يستحيل أن تحدد لها عمراً ما .. إن لها قامة فتاة في سن الثانية عشرة ، وهي زوجة منذ زمان طويل لعسكري كالشيطان.. طويل ونحيف وكئيب.. وفقير وقد وضعت منه ولداً ، ولكن الولادة أصبحت غير ممكنة بسبب الأمراض التي شوهت منطقة الحوض ، وأجرى لها الدكتور ريبوليه عملية جراحية وأخرج الجنين من البطن وذات يوم جاءني بها زوجها وقد انتفخ بطنها بجنين جديد..

في إحدى أمسيات يونيو سنة ١٩٥١م وأنا داخلة من باب القاع على ظهر جوادي أوقفني عشرة أشخاص وانهوا إلي خبر موت الدكتور ريبوليه وأبدوا لي حزنهم وأسفهم.. خلت صنعاء من طبيب جراح.. وتكررت نداءاتي لإرسال جراح آخر.. ولكن دون جدوى.

إنني فعلي أن أوجه حالة فاطمة بمفردي هذه المرة وقد كتبت إلى الإمام أتوسل إليه أن ينقل فاطمة بالطائرة إلى تعز حيث يوجد جراح إيطالي ، ولكن الإمام ابداً لا يرد.. وافزعت هذه الحالة المفجعة المستشفى كله ، وظل كل من فيه ينتظر مع المرأة الصغيرة الصامته..

مررت يوماً أمام حجرة العمليات فقال لي الممرض والفرشاة في يده: (إنني يا حكيمة أجدد الدهن من أجل الجراح الكبير الذي سيأتي يجري عمليات لكل مرضانا) ثم انفجر بضحكة حزينة لو وصلت إلى الجراح الشاب الذي ربما يكون في نفس اللحظة يقرأ الإعلان الذي نشرته في لوحة الإعلانات في كلية الطب في باريس ما تأخر عن الحضور والعمل في اليمن.. ولكن طبيباً واحداً لم يلب الطلب.. ولعل ذلك راجع إلى سلسلة المقالات السيئة التي نشرتها مجلة فرنسية كبيرة عن اليمن عرفت أخيراً أن في تعز جراحاً فرنسياً ، ولكن هل يبقى طويلاً؟ لا للأسف ، فهو استاذ شهير في مستشفيات باريس ، وقد استدعوه من أجل شخص الإمام.. كتبت أطلب حضوره إلى صنعاء فقالوا لي إنه سيأتي قريباً ، وزال الضيق واستعاد المستشفى الأمل ، وبدأ الاستعداد لاستقباله.. ولكن هل يصل في الوقت المناسب ، ولمعت الطائرة ذات صباح في سماء صنعاء ، وحلقت فوق المستشفى وتابعتها الممرضى ، وكانوا يلفتون نظر فاطمة إليها.. وقالت فاطمة (إذا كان الجراح في هذه الطائرة فقد أعيش.. وإذا لم يكن بها فسأمت.. والموت من الله).

وجاء الجراح ، وكان جميلاً ، أشقر ، يرتدي بنطلوناً قصيراً ، وقد اغتسل في حجرة العمليات .. وهمست عجوز من العاملات (هل هم هكذا في فرنسا..؟).

وأجريت العملية ، وبذل كل فرد ما وسعه ، ومع ذلك فقد أكلت فاطمة قبل العملية رغم المنع.. وكان التخدير عسيراً وعندما فتحنا العلبة الثانية للكومات هل كانت حقيقة قد تعقمت؟ وهل كان جهاز تطهير وتعقيم عدة الجراحة صالحاً يؤدي وظيفته؟ إن هذا كله مشكوك فيه ولكن العملية قد بدأت ولا بد من الاستمرار فيها.. وقد سار كل شيء على ما يرام ولد الطفل وصحت الأم وسعد الناس جميعاً وللمرة الأولى لم أعد اسمعهم

يتحدثون عن الله.. فالجراح إنسان ، والذين صنعوا الطائرة رجال..
مرت الأيام.. ولم تكن صحة فاطمة سيئة.. ولكنها لم تكن مرضية تماماً.. وكانت
مستلقية غير مكترثة، ولم تكن تتكلم ولا تتحرك ولا رغبة لها في الطعام وطفلها مع
ذلك جميل ، وكنا نذهب لرؤيته في مسكن في القاع ،وقد أخذت أخت فاطمة التي تخدم
في بيت أحد الأمراء ،إجازة لبضعة أيام حتى تغنى بابن اختها.

وعاد القلق شيئاً فشيئاً ،ثم الحسرة والعذاب فقد عاد الجراح إلى تعز ،أما الممرضون
فلم يتركوها لا ليلاً ولا نهاراً.. ولم يدخر شيئاً من أجلها ،وكان المستشفى لايفكر إلا
فيها ،وفي المدينة يتساءل الناس عنها وينقلون اخبارها.. هل كان هذا مجرد حب
استطلاع؟ كلا.. بالتأكيد فحب الاستطلاع لا يفسر ذلك التضامن القوي.. لكن فاطمة قد
أصبحت شيئاً أكثر من جسم صغير ناقص لايستطيع حتى مجرد الاحتفاظ بحياته.. إنها
في سريرها في المستشفى ،تمثال سلطت عليه الأضواء القوية لقد أصبحت رمزاً أن
حياتها قد غدت رهاناً لصراع لعل هؤلاء الناس قد أدركوه وفهموه بعد أن كانوا
اتكاليين مستسلمين .. أنه صراع الناس جميعاً ضد كل مصيبة تنزل بأحدهم.. كنت
أتردد عليها بعد الظهر.. وذات مساء ناديتها ،وكانت تعبيرات وجهها مخيفة مفزعة
،كنت أريدها أن تتكلم وقد فعلت ، ولكنها لم تقل إلا كلمة واحدة.. الموت..

تركتها وخرجت من المدينة ، ووجدت نفسي في مقبرة اليهود القديمة ، إن التفكير في
مصير الإنسان يدور في الاتجاهات المعروفة.. يدور في حلقة في نفس الدائرة التي في
مركزها (الغرض الإلهي) ولكنه هذه المرة لايطاق ولايمكن المدافعة عنه.. ليس هذا
تشامخاً وإعجاباً بالنفس.. كلا بكل تأكيد.. وليس هذا أيضاً من أجل فاطمة فحياتها وأي
حياة مهمة كانت ليست ذات أهمية كبيرة ، ولكن من أجل أولئك الذين يحيطون بها..
أولئك الذين وقفوا بجانبها بجهودهم غير المغرضة ،بأمالهم بحميتهم وحماستهم ..
وبحبهم إحساناً يقول البعض وتضامناً يقول الآخرون..
أن تنطفئ هذه الشعلة التي هي أجمل من الحياة.

أن تسقط هذه الوثبة في حزن وفي قنوط.. ذلك كله هو الألم وهو الشر وهذا لا يحتمل
من جانبي قد قمت بكل ما أستطيع ولم يبق أمامي إلا الصلاة.. وقد استسلمت لهذه
الرغبة العميقة.. لقد عانيت هذا الاحساس مرتين.. وإذا كان من الضروري فعلاً أن
اصلي فليكن.. ولأصل..

حدث كل هذا وأنا خارج الزمن.. ولكن شيئاً غريباً أعاد إلي نفسي.. فمن وسط الغيوم
الداكنة التي تخيم على الجبال ،بزغ شعاع أبيض ،كثيف قوي ،كان إشارة واضحة
وجواباً سريعاً ، هل يمكن أن تكون هناك قوة قادرة على تمزيق السماوات وقد سمعني
في صمتي؟ ازاء هذه الخاطرة تبينت في أعماقي الأعراض القديمة للخوف المقدس..
وكان جوادي تأهلاً مثلي ،كان يتقدم ويتراجع ،ولا يدري أين يذهب.. وغريزياً فتشت
حولي عن الناس ولكني لم أجد أحداً .. على طول الطريق التي تحيط بصنعاء لا أحد في

الطريق التي ترتفع إلى الوادي.. وزاد ضيقي وأنا أفكر أن الوحدة من خصائص العبادة، أما الشعاع فقد استقر على جبل أعرفه.. أعرفه لأنني قد تسلقته .. إنه كتلة من الصخور السوداء وقد حول الشعاع هذا السواد تحت السماء القاتمة إلى لون أبيض ، ولكنه ليس لامعاً ، بل كامداً غير متألق كلون الجبس ، خارقاً للطبيعة ومخيفاً ثم دار الشعاع رويداً وقطع السهل الجنوبي حتى وصل جبل نقم فأضاءه لحظة ، ثم اختفى .. وقد ترددت أن اتحدث عن هذا وإذا كنت قد تحدثت فلأن التجربة المخلصة قد تكون لها معان عند الناس غير معناها عندي.. أما عندي فذلك لا يدل إلا على شيء واحد هو قوة العقيدة.. تلك القوة الخلاقة المعدية.

ولو أجابني أحد من بين هذه القبور اليهودية فلن يكون إله المسيحيين الذي يصبح الحب بجواره هو المخلص والذي قد يغفر لمن يحبه لأنه يحب كل مخلوقاته ، بل سيكون إله العهد القديم ، ذلك الإله الغيور الذي يهز بعنف.. ذلك الإنسان المعلق على أغصان شجرة المعرفة.. معرفة الخير والشر.. وكان الجواب هو الرفض..

وعدت إلى المنزل.. وأنا أشعر بالخجل والعار.. ألأني قد آمنت لحظة بوجود إله؟ أم لأنني لم أسجد له في الحال؟ وحتى اليوم لست أستطيع جواباً.. وفي المنزل وجدت صديقي المهندس وقضينا السهرة جنباً إلى جنب.. وبيننا مصباح متقد تذيب شعلته كل القيود.. وحولنا على الأثير موزارت وباخ يحيطاننا وهذه الأرض التعسة بهالة من الأنغام المسحورة.. وكان يكفي أن نضغط وكل شيء لنا.

وفي الأيام التالية أخذت فاطمة في الانهيار ، تركها الناس جميعاً وبقيت وحدي إلى جوارها استعاد المستشفى مظهره الحزين ، وفي الزوايا من جديد بدأوا يرددون اسم الله.. أما الأدوية التي كنت أعطيها فكنت أجدها في الأدراج سليمة لم تمس ، وكانت نجيبة تنقل إلي ما يدور في أذهان الناس.. وهذا الرجل المخلص أحمد عواض الذي كان يقضي الليالي بجوار مرضاه يقرأ لهم القرآن عندما لا يجد ما يخفف به عنهم.. حتى أحمد هذا قال: (إذا شفيت فاطمة بعد كل الذي فعلته الحكمة.. فذلك لأن الله يريد لها أن تعيش).

وفي غرفة فاطمة تربعت نساء طاعنات في السن على طول الجدران هادئات لا يتحركن ، وحينما كنت أدخل لزيارتها ، كنت أشعر بنظراتهن: نظرات اللوم والشفقة .. علي أيضاً.. أنا التعسة التي لا تفهم!

وذات صباح أخبروني أن الطفل قد مات .. لقد كان بالأمس في صحة جيدة ، ولكن خالته كان عليها أن تعود من عملها في القصر الكبير.. والعناية بطفل في هذا السن المبكرة لاتسمو إلى مستوى الخدمة في قصر الأمير.. ومات الطفل.

وبعد أيام كنت أمر أمام غرفة فاطمة.. فوجدتها قد غادرتها العجائز وغطي السرير بغطاء جديد.. لم يقل لي الممرضون شيئاً.. ولم يحدثني أحد في هذا الموضوع على

الاطلاق.

محمد .. الصغير

ذات صباح دعيت إلى مسكن فقير لأرى طفلاً صغيراً في سن الخامسة عشرة مصاباً بالتيفوس ، وقد اعتبره أهله في عداد الموتى واستسلموا.. وغاب الطفل عن وعيه ولم يعد يشعر بالعذاب.. ولعله من الأفضل للمرء إذا سار في اتجاه أن يستمر إلى النهاية.. ولكن إذا كان في إمكاني أن أوقفه ، ثم تخليت عن هذه المحاولة ، فهل أستطيع بعد ذلك أن أصغي إلى موزارت راضية هادئة؟

عند عودتي من جولة طويلة في اليوم التالي وجدت ثلاثة أشخاص أمام بيتي من أقارب محمد الصغير .. وقد قدموا إلي زجاجة فيها اثنتا عشرة كبسولة صفراء وهو علاج جديد ثمنه يساوي هنا مرتب الجندي في شهرين.. وقالوا لي (خذه.. يا حكيمة.. أنا نعلم أنك تشتريه، وأنه غال جداً.. احتفظي به لمريض آخر.. أما محمد فلا داعي للتفكير فيه.. أنه قد أشرف على الموت..).

هذا الرفض.. لا يمكن تفسيره بنقص في الثقة.. إذ في هذه الحالة يمكنهم أن يضعوا الدواء جانباً.. إنه احساس بالهوان.. أن حياتهم في نظرتهم لاتساوي كثيراً.. ولايجوز أن تكون سبباً للبعثرة والتبذير ، إن حياتهم في نظرهم لاتساوي الخطأ في حق الطيبة.. ولهذا فقد توجهوا إلي في وفد وانتظروا طويلاً أمام بابي!

لقد ضيعوا أربعاً وعشرين ساعة وضعت الاوريومسين في جيبى وانطلقت.. أين من يمتطون الخيل ويطلقونها في غابة بولونيا! هل لايزال كثيرون في الدنيا هم أولئك الذين يركبون الخيل ، ويسيرون مسرعين دون رغبة، أولئك الذين يتمايلون على ظهر الخيل ذاهلين بقلب كئيب ، وجسد مرهق ، لاتخامرهم إلا فكرة واحدة.. هي أن يسيروا مسرعين دون أن يصدموأ أحداً؟

وفي الجانب الآخر من المدينة كانت عجائز الموت قد اجتمعن وجلسن يترقبن في هدوء.. ولكن الطفل لايزال حياً.. لقد كانت هؤلاء النسوة ينظرن إلي باهتمام .. وكل ملعقة تصطدم بأسنان الطفل المصطكة تعني ضياع ريال.. في كل مرة..

أبداً لم تر صنعاء مثيلاً لهذا.. لقد شفي الطفل.. وبعد أيام قليلة كان محمد ينتظرني أمام الباب كان هزياً كان هيكلاً عظيماً ليس إلا.. وكانت تعلو وجهه بسمة ناصعة.. وبدأ من تلقاء نفسه يقوم بخدمتي.. فأصبح مساعداً لمساعد السائق..

إني أدين بالكثير.. لقد كنت أبحث عن ابتسامته التي تفيض مرحاً وعرفاناً بالجميل كلما ضاقت بي الأحوال.. ولم تكن ابتسامته بعيدة عني.. وعندما كنت أجدها كان يتغير كل شيء..

خيرية

في أحد البيوت في الأحياء القديمة، كانت خيرية زوجة الجندي، ترقد على قطعة واحدة من جلد الماعز في غرفة خالية من الوسائد والفرش، وكانت تقذف دماء، انها حامل

وقد أنجبت قبل هذا طفلين.. قدمت لها مايوقف النزيف.. وفحصتها بالأشعة بعد أيام فوجدتها مصابة بالسل. ولكني لا أجد ما أعالجها به، ودواء الاستربتوميسين يكلف هنا مرتب العسكري لشهور أربعة.

كان زوجها يحبها ولايستسلم لفقدائها.. سعى بعناية خارقة للعادة، ولكن دون جدوى.. فقد ضاعت ريالاته إلى الكتاب العموميين الذين حرروا استرحاماته التي رفعها إلى الأمراء، لقد استعطف الأمراء واحداً واحداً واستجداهم ولكن أحداً منهم لم يقبل مساعدته.

وأخيراً.. جاءتني خيرية وزوجها ومعهما زجاجات الدواء الثمينة! فبدافع اليأس والقنوط.. لجأ الرجل إلى أغنى تجار المدينة وألقى بنفسه بين قدميه وقال له: «ان الحكمة قد أعطتني العلاجات الأولية. وهي ليست غنية.. بل وهي مسيحية.. وأنت الثري المسلم المتدين.. ألا تستطيع أن تفعل شيئاً؟» وتأثر التاجر بهذا النداء، واشترى الاستربتوميسين وشفيت خيرية.. ووضعت ولداً جميلاً..

وكلما مررت بهذا الشارع رفعت النساء حجابهن الأسود ومنحنني ابتسامة رقيقة.. خديجة

وهذه قصة مشابهة.. امرأة جاءها المخاض.. ومنطقة الحوض متقلصة. مات الجنين في بطن أمه.. وليس في صنعاء جراح.. وجازفنا زميلي وأنا وقررنا أن نتدخل.. وفي الطريق إلى المستشفى أوقفني أحدهم وقال لي إن الدكتور فينروني قد غادر صنعاء!.

لقد استدعاه حاكم حجة وأصدر الإمام أمره إلى نائبه لنقل الطبيب إلى حجة.. ولكن السيف الحسن الذي لايهتم بشيء قدر اهتمامه بالمال، أصم أذنيه حتى أعلن الإمام أنه سيدفع هو تكاليف رحلة الطبيب.. ووجدوا سيارة حملت الدكتور فينروني في الحال. لقد أصبت بالدوار وأنا أسمع هذا الخبر.. ان في المستشفى ثلاثمائة سرير.. وأنا الطبية الوحيدة المكلفة بالسهر عليهم أسابيع عديدة.. ان هذا كثير.. ولايطاق!.

كان من حقي ذاك الصباح أن أستقبل بصوت النفير.. ولكن لم تكن عندي رغبة في الضحك.. وكانت المسكينة تنتظرني في غرفة العمليات.. ولم أفكر في فتح بطنها، بل حاولت إخراج الجنين من أسفل.. وكان الطفل قد مات منذ وقت مضى.. وقد سهل هذا عملي.. توصلت إلى إخراج الأطراف والجذع قطعة قطعة.. وكانت الرائحة منفرة إلى حد تركني فيه كل من في الحجرة.. أما الجمجمة فالأمر يختلف.. فالوقت يمضي وهذا الجسم الدائري الصلب ينسل من قبضتي ويتوارى.. هل أتخلى وأتوقف؟ ان في هذا الموت لخديجة.. وقد تملكنتي فكرة شاذة وسيطرت علي.. إن حياة هذه المسكينة متوقفة علي، على إرادتي وعلى يدي، تماماً كما لو كنت قد أوقفقتها أمام مسدس وصوبته إليها.. وأمسكت أخيراً بالقطعة العظيمة.. أنقذت خديجة.. وإلى أن تحمل من

جديد .. لأستطيع أن أنسى هذا .. وكثيراً ما أتصور حياة انسانية مكورة لزجة تنهرب وتنسل من بين أصابعي.
أمنية

لم تكد تضع طفلها حتى دخلت المستشفى مصابة بالسل الرئوي.. ساء زوجها أن تكون امرأته مريضة بالسل وأراد أن يتخلص منها، ولم يكن معها سوى أمها التي تنام الليل على الأرض بجوار سرير ابنتها.. ولم يكن معي شيء أعالجها به.
وتلقيت من أحد معامل باريس الكبيرة طرداً من الاستربتوميسين يكفي لعلاج مريض واحد.. واحد فقط.. وعندي خمس وعشرون مريضة ينتظرن.. ولا بد إذن من الاختيار.. اختيار ليس أشدهن مرضاً.. بل أكثرهن حظاً في الشفاء وفي السعادة فيما بعد.. وكانت أمينة في سن العشرين.. ولم يكن بعيداً أن تستعيد سعادتها.. ووقع اختياري عليها..
ولكن المريضات الأخريات لابد أن يتقبلن الأمر راضيات وإلا فإن اختياري لها لن يكون بالنسبة لهن إلا يأساً جديداً، وقد أدرك هذا عبده، وعندما حملت معي زجاجة العلاج ودخلت بها إلى حجرة المريضات.. عرف تماماً ما يقول.. واستمعت إليه المريضات فوق سررهن في صمت وانتهى من كلامه، وشكرنني جميعاً.. من تلقاء أنفسهن.. فلا مرارة، ولا غيرة ولا أي ظل للأنانية، لا في هذه اللحظة القصيرة، ولا في الأسابيع التالية.. لم أسمع شكوى.. ولم أتلق احتجاجاً.. ولم أفاجأ بنظرة فيها حقد أو ضغينة أو حسد..

تحسنت صحة أمينة.. أما أولئك اللاتي يتعذبن في صمت ولا علاج فقد كن ينظرن إليها كصورة للحظ السعيد..

وجاء زوجها وأخذها جميلة كالصباح.
صديقتي الأميرة بدر الدين

كان اسمها في طفولتها مطيعة، ولما تزوجها الإمام أطلقوا عليها كما تقضي التقاليد اسماً أكثر بهاء هو «بدر الدين» وأبوها صانع قماش من دمشق جاء صنعاً للتجارة، ولما فشل أصبح موظفاً في الحكومة اليمنية.. وكانت مطيعة معروفة منذ سن الثالثة عشرة بين حريم المدينة ببياضها الناصع وجمالها النادر.. وقالوا إن الأمير أحمد ولي العهد رآها صدفة وهو في سن الأربعين فأحبها وأغرم بها ولكنه كان بعيداً عن صنعاء حينما بدأت محادثات الزواج.

وكان الزفاف والأفراح المعتادة بالوكالة في غياب الأمير الذي كان يأمل أن يلتقي بزوجته في وقت قريب.. وظل القدر يعمل على البعاد، فاصطدمت سيارة الأمير بعنف ولكنه خرج منها سالماً.. ثم مرض مرضاً خطيراً، وأخيراً اغتيل والده ونشبت الثورة، ومنذ ذلك اليوم والإمام الجديد لا يرغب في العودة إلى صنعاء.. أترأه يعرف لغة القدر؟
لقد ظلت الأميرة بدر الدين أربعة عشر عاماً تنتظره.. ولم يلتقيا أبداً.. وأخيراً اقترح عليها الطلاق.. ولكنها بعد هذه السنوات الطويلة فضلت أن تبقى زوجة لإمام بعيد.

وهي تعيش في بستان الخير في حي بئر العزب ولا تخرج منه إلا لزيارة أهلها في منزل مجاور حيث تقضي معهم أسبوعاً كل شهر وقد التقيت بها هناك. إنها رائعة الجمال، ممتلئة الجسم، ناعمة، ذات وجه صبوح تلمع فيه عينان ساحرتان، وتضيئه ابتسامة جميلة.. أمها سورية محبوبة ذات شعر أحمر مصبوغ مهتمة بصحة ابنتها، وخبيرة في صناعة الحلويات.. أما أبوها فشيخ ذكي أديب، كنت أشعر بجواره بالأسف لأنني لا أحسن فهم اللغة العربية.

وبفضله أصبحت الأميرة أكثر نساء صنعاء، ثقافة ومعرفة.. لقد قرأت عشرات الكتب في التاريخ وتفسير القرآن وهي كل الكتب الموجودة في مكتبة الإمام، وكنت سعيدة حين عرفت أنها تعرف بعض الكلمات الفرنسية، تعلمتها من الأنسة «هرمن» مساعدة الدكتور «ريبوليه». وكانت في حاجة إلى عنايتي بها في الأيام الأولى لوصولي إلى صنعاء. وقد أصبحت صديقتي وتحب أن تراني كثيراً.. إنها رغم عزلتها تعرف أحوال اليمن جيداً، فمعها «دويدار» أو خادم صغير، تحت سن الثانية عشرة، من أذكى أطفال صنعاء، ويلتقي به الانسان في الشوارع أكثر مما يجده في القصر، وهو يحشر أنفه في كل شيء، فيجلس في حجرات دار الضيافة إذا جاء زائر أجنبي.. وإذا انتظروا أحداً في المطار فإنه يتعلق خلف أول سيارة، ويكون أول الموجودين بالمطار.. بل إنه يبدو فجأة في أخص المجالس ويقص بعد كل هذا على سيدته كل ما سمعه أو أبصره.

وهذا الجاسوس الصغير لا يثير أحداً، فالولد ساحر، مضحك جميل، والناس يعرفون أن الأميرة لا تسىء استغلال هذه المعلومات، بل إنها تتصل بالمسؤولين عندما ترى أن هناك ظملاً.. وهي على اتصال مستمر بالإمام الذي يقدم لها الهدايا الفاخرة من آن لآخر.

أمير يشرح لي سر القهوة
قدم لي الأمير قدحاً من قهوة البن في مفرجه الفاخر الذي تتدلى من سقفه ثريا، بطاقة الثمن مثبتة فيها دائماً للدلالة على أنها اشترت جديدة!.. ووضع الأمير في قدحي ملعقة صغيرة من مربى أسود هو عنبر من سمك المحيط الهندي.. مقوً وحلو المذاق، وتكلف الملعقة الصغيرة خمسة ريالات.. وبينما كنا نرشف هذا المشروب النادر، تحدثنا عن المخطوطات القديمة المحفوظة في دار السعادة، وفي الجامع الكبير، وكانت البعثة المصرية تستعد لتصويرها بالميكروفيلم لتدرسها في القاهرة وتكتشف أسرارها.

وتحدثنا عن زراعة البن الذي يكون مع تجارة الجلود الثروة الرئيسية لليمن.. وشرح لي الأمير طريقة زراعة البن.. قال إن المزارع مهدت منذ القديم على مسطحات الجبال.. وتملكها المزارعون الصغار، ويشتري المحصول تجار الجملة الذين يبيعونه إلى المصدرين في الحديدة، وقال إن الجمل يحمل زكيتين في كل واحدة تسعون كيلو.. وثنها حوالي مائة ريال..

وسألته:

- «وبكم يشترونها من المزارع؟».

قال الأمير:

- «بعشرين ريالاً».

قلت:

«ولكن، لماذا لا يذهب المزارع إلى الحديد لبيع محصوله هناك؟..»

قال:

- «إنه لا يستطيع.. فالتاجر الكبير يدفع له في كل سنة نقوداً من ثمن المحصول مقدماً، ولا يتبقى له عند التسليم إلا عشرة ريالات عن كل زكبية».

قلت:

- «ولماذا يقترض المزارعون بهذا الشكل؟».

كان عبده هو الذي ينقل الحديث بيننا.. لقد خلا وجهه من كل تعبير.. إن السذاجة ليست وسيلة سيئة للاستجواب.

ومع ذلك فقد كنت أعرف أن الربا يتفشى هنا كما يتفشى في سائر أرجاء الشرق.. ولكن الأمير لم يكن غافلاً، فما إن وصلنا إلى هذا الحد من التحقيق حتى تحرك في فراشه وضاعت ابتسامته وقطع الحديث بفضافة.

بيضاء يبيعونها بسبعمئة جنيه

نزل سفير للمملكة العربية السعودية في دار الضيافة في صنعاء. وأراد أن يشتري جارية بيضاء من أحد أمراء صنعاء ليقدمها هدية إلى سيدة الأمير ابن سعود، وجاءني واحد من خدم دار الضيافة ونقل إلي الخبر في تكتك شديد بل وأحضر معه العقد الذي وقعوه، والتمن الذي اتفقوا عليه وهو ألف وثمانمئة ريال.. لكن الصفقة متوقفة على الفحص الطبي الذي سأقوم به.

وإذا كانت الفتاة تكلف هذا المبلغ الكبير فلأنها من الجنس الأبيض، أما الجواري الأخريات اللاتي أعرفهن فإنهن من أصل إفريقي، فواحدة من أخوات الإمام تملك امرأة في سن الثلاثين، منحت لها عندما كانت في الخامسة من عمرها.. وكان أحد عبيد الإمام يحيى مقدماً ومخلصاً فجعله سيده أميراً وهو من أخلص خدم ابنه الآن.

وجاء عبده في اليوم التالي يدعوني للذهاب إلى بيت الأمير لرؤية الجارية.. أحضروا الفتاة إلى إحدى حجرات القصر، وكانت في حوالي الخامسة عشرة من عمرها.. وقد خيبت ظني.. فجسمها جميل ولكن وجهها عبوس صارم لانعومة فيه.. ولا يبدو أنها تساوي سبعمئة جنيه! وكانت نظراتها تتجه إلى الأمير تستعطفه وتسترحمه.. وقد تركتني أولاً أفحصها.. ولما عرفت الأمر عارضت واحتجت.. وحاول الأمير أن يقنعها ولكن دون جدوى ولما لم تقنع أخذها بالقوة.. طلبوا مني أن أفحصها فحصاً باطنياً دقيقاً حتى يتأكدوا من أنها خالية من كل أثر للأمراض التناسلية.. وفي ذعر وإحساس بالعار هاجت وحاولت التخلص ولكن الأمير كان يخضعها بالقوة.. لقد كان مشهداً

جارحاً مؤلماً.. وإذا تحدثت عنه اليوم خارقة بذلك قسم هيوقراط فما ذلك إلا بفعل نظراتها في تلك اللحظات الرهيبة.

كانت الفتاة في صحة جيدة ولكن بعد الحبات تبدو في ساقها وذراعيها نتيجة لعدم تعادل الفيتامينات في الغذاء.. وقد ذكرت هذا في الشهادة بكل دقة.

وما إن وصلت داري حتى أخطرت بزيارة الأمير اليمني والأمير السعودي وقريب الإمام الذي استقبله في صنعاء.. إنهم قلقون جداً.. وقد أرهقوني بأسئلتهم: هل الفتاة مصابة بالزهري؟ هل هو مرض معد؟ هل هو قابل للشفاء؟ في كم من الوقت؟ هل هو مرض قابل للانتكاس؟ وبلهجة مهدئة للروع ذكرت لهم تفاصيل شنيعة عن أعراض المرض الجلدي المعدي المستعصي.. وخرجوا من عندي..

وغادر الأمير السعودي المطار.. ولم يأخذ معه جسماً محجباً صغيراً بعيداً عن وطنه.. إن على أصدقائي اليمنيين أن يدركوا أن الإنسان ليس حيواناً يباع..

عند وزير الصحة

في الساعة الثانية بعد منتصف الليل استيقظت على قرعات عنيفة تهز الباب الخارجي هزاً.. ولم أكد أرفع شعلة المصباح حتى اندفع إلى غرفتي أربعة عساكر يتقدمهم أحد الأمراء لا يعرفون الانتظار!

كنت في المساء قد غسلت شعري قبل النوم وقد تدلى في جدران كنيبة.. لقد أحسست بالهوان.

دعوني للذهاب إلى بيت الأمير وزير الصحة! فليكن: أخرجوا من غرفتي.. صرخت وأشرت إليهم من فوق سريري أن يدعوني أرثدي ثيابي ولكن دون جدوى.. لم يتحرك أحد منهم.. وكانت الدكتورة جنيفيف لانسوي قد قالت لي أن أحدهم سألها إذا كانت الحكيمة امرأة كاحدى نسائهم؟

والآن ها هم أمام فرنسية في سريرها.. أن هذا شيء لا يروونه كل يوم..! وقد قمت من سريري ودفعتهم خارج غرفتي دون أن أدعهم وقتاً أطول.. ولكن لباس النوم كان لائقاً ومناسباً.

وفي هذه الساعة المتأخرة لابد أن يكون الأمر متصلاً بالحريم، ولما لم أجد القدرة على ارتداء ملابسني فقد اكتفيت بالمعطف الأزرق وركبت معهم سيارة الجيب ولكنهم لم يسوقوني إلى الحريم.. بل إلى المفرج.. وتغير مزاجي وشعرت بالقلق والاضطراب وأنا أجد نفسي في جمع كبير من الرجال.

كنا في رمضان وهم هنا يسهرون الليل وينامون النهار، وقد خلع هؤلاء السادة عمائمهم وغطوا الأرض بأغصان القات وأوراقه.. وعلى المساند يتربع خمسة عشر رجلاً يتصدرهم الأمير أمام طاولة منخفضة شبيهة بتلك التي توضع عندنا فوق سرر المرضى يتناولون عليها طعامهم، وأمام الأمير أعدوا لي كرسيّاً وحيداً.

وتحت الضوء الساطع.. وفي (الروب دي شامير) وعلى هذا الكرسي لم أعد أتمالك

نفسى.. ماذا تعني هذه المحاكمة؟ ثم تجرأت ونظرت إلى من حولي فخف قلبي واضطرابي.. أن بين هؤلاء الحاضرين وجوهاً صديقة أعرفها. ووبرود طلب الأمير رأيي في سير المستشفى!! وكان يبتسم!! أجل تقديم تقرير اداري.. بدون مترجم.. وفي منتصف الليل.. لم يهبط علي الواحي.. ولمس الأمير ضيقي وارتباكي ودعاني بلطف إلى الجلوس بجواره.. وسار الحديث سيراً حسناً، ثم أنهى المزاح فجأة وتكلم بلهجة جادة قائلاً: (ليس لهذا دعوتك يا حكيمة.. لقد عملنا كثيراً هذه الليلة.. وأشعر بالألم خفيف في الرأس.. هل تعرفين لي علاجاً؟). ينزعونني من سريري في الساعة الثانية بعد منتصف الليل لألم خفيف في رأس الأمير.. بكل بساطة.. لقد أرادوا أن يتسلوا في ليل طويل.. وكانت هذه النكتة.. ماجدوى غضبي؟ إنهم لن يفهموه ولكن شعري المبلل يصرخ في أن أنتقم وقد أذعنت لهذه الرغبة.. وانتقمت انتقاماً بريئاً لعله يساوي مانالني من ضرر.. سحب الصيدلي شميل قلمه من عمامته وكتب بحروف أفرنجية كبيرة وباهتمام.. اسم العلاج وعنوان المعمل.. ويخيل إلي أن معملاً فرنسياً كبيراً تلقى من المملكة اليمنية رسالة تحمل طابع بريد نادر تطلب مسحوق برلمنبين!

قصتي مع الأمير الوسيم
الأمير ع. شاب جميل يفيض حرارة، وقد عرف أكبر فنادق أوروبا حيث تقدم للأسياذ الشرقيين أجمل نساء العالم وباختصار أعجبه الحكمة وقد لاحظت ذلك حينما جاءوا

يوماً من قبله يبحثون عني.

كنت منهمكة في فحص مرضاي بالأشعة.. ولا يزال أمامي عدد منهم.. ووقفت سيارة أمريكية فاخترتني الممرض على الفور.. إنها سيارة الأمير ب الذي ينزل ضعفاً على صديقه الأمير ع في صنعاء خلال أسابيع قليلة.. وكان هذا الأمير أيضاً شاباً وسيماً ولكنه كان أكبر مقاماً لدى الملك.. وأوامره لاتناقش ولا أملك إلا تنفيذها.

لم يكن الأمير ع مصاباً بمرض خطير.. فلم يكن به سوى خدش في القدم، ولم يسمحوا للمترجم بالصعود معي.. ولكني تمكنت من التعبير بسهولة.. وكان الحديث مع الأميرين حساساً، فقد فتح أحدهما خزانة في الحائط فوقعت عيني على مجموعة كاملة من الخمور: شمبانيا، بورتو، ويسكي، كونيأك ماركة الثلاث نجومات.. إنها مجموعة تدير الرؤوس، وكانت طائرات الإمام في تلك الأيام متوقفة عن العمل.. وكانت صنعاء تخضع لنظام جاف منذ شهور ثلاثة.. وقد خطر على بالي أن صديقي المهندس يستطيع أن يتمتع بهذه النعمة والحظ السعيد.

أمرني الأمير أن أرفع قبعتي وأن ابقى لتناول الغداء.. فعارضت وقلت إن في بيتي من ينتظرنى.. تبادل الأميران نظرة فيها ضيق، وأدارا ظهريهما نحو النافذة وتواطأ على شر، وخرج الأمير يرسل سيارته الأمريكية تأتي بالمهندس من البيت.

وهنا تقدم الأمير ع مني وقد كشف ذراعيه القويتين، ووضحت نواياه ولكني تملصت من تحت ذراعه الأيمن بحركة مفاجئة، ولذت بالخروج في سرعة البرق، وكانت هذه الحركة رشيقة إلى درجة عالية ولا يقوم بها نجوم السينما في حالة كهذه إلا نادراً. كانت الممرات خارج الغرفة خالية حاولت أن ألجأ إلى الحريم ولكن الأبواب كانت موصدة هبطت السلالم فوجدت الباب مغلقاً من الخارج.. وانتظرت في البهو بفارغ الصبر، ووصل المهندس وقصصت عليه ماجرى، وصعدنا السلالم، وكان دخولنا إلى الحجرة مهيباً.

وبكل خفة وأناقة.. طلب الأمير ع.. من صديقي أن ينقل إلي اعتذاره عن ماحدث في لحظة ارتبأكه واضطرابه.. وطلب أن يتحسس خدودي.. وقال أن هذا هو الدليل على الصبح.

سألت صديقي المهندس: وهل يحدث هذا فعلاً في البلاد العربية؟
فقال: نعم.. يبدو أن مثل هذا يحدث..

وجاء الأمير يربت على خدي ويتحسس وجهي كله في لطف وأناة وعيني في عينه.. ولم يدم هذا طويلاً.. إنها ذكرى غريبة.. مداعبة وتحسس في احتفال هكذا.. أمام رجال صامتين!

بدأ الطعام، وأفرغت الكؤوس، وبدأت أشعر بالقلق، وأخذ الأمير المرح يتحدث عن جواريه الشابات، وقرر فجأة أن يستدعيهن وهنا بدأت المناورة تتكشف.. هجوم على المهندس أولاً.. وقد أقع أنا بعد ذلك.. كنا حول مائدة منخفضة محملة بوجبة دسمة..

ولم يعد أماننا من المشروبات إلا مشروب كحولي مخيف مصنوع في صنعاء.. ولكن لحسن الحظ قاومت الخمرة كما قاومها صديقي.

دخلت الجارية الأولى، وكانت فتاة صغيرة ممتلئة الجسم قليلاً ذات وجه منتعش ساذج سليم، وقد هيأها الأمير للموضوع بشيء من التلطف والمداعبة ثم قدمها للمهندس.. وصمد المهندس لهذا الهجوم وقاومه بتجلد وعزم شديدين.. وجاءوا بالجارية الثانية، وكانت هي تلك التي أجريت لها الفحص حينما أرادوا بيعها من الأمير السعودي والتي كان تقريرها عن صحتها سبباً في عدم تمام البيع.. وكانت عابسة.. تنظر إلى الأمير نفس النظرات القاتمة العاتبة.. أرسلها الأمير إلى المهندس أيضاً.. ولكن المهندس ظل جامداً لا يتحرك.. كانت الفتاة نافرة، وقد اغتنمت أول فرصة وخرجت وبعد لحظات رأيتها خلف الباب وما أن التقت عينانا حتى أرسلت لي ابتسامة كلها فرح وبهجة واختفت.. لعلها كانت تشكرني.

ودعانا الأمير ع بعد الغداء للانتقال إلى المفرج، ولكنه قبل هذا تركني وحدي مع الأمير ب وأخذ معه المهندس إلى مقر الحريم!.. أجل إلى الحريم.. مسكين المهندس.. إنه شارد الفكر، تائه بوضوح.. ولكن شكراً لله هاهو قد عاد وهمس في أذني قائلاً: (وبعد ثلاثين سنة قضيتها في الشرق.. أرى شيئاً كهذا).

وصف لي ما رأى فيما بعد.. فقال: ساقني الأمير إلى الحجرة المجاورة وفيها ثلاثة سرر كبيرة.. وكنا أمام الزوجات الشرعيات وهن في أجمل ثيابهن وكامل زينتهن، وقد زاغت عيونهن وكن مستعدات لكل شيء.. عدا أصغرهن!.. فقد خانتها شجاعتها أمام هذا الرجل الغريب ففرت واختفت تحت السرير.

ولم نكد نستقر في المفرج حتى دخل الأمير والمهندس وهما مشتبكان في نقاش حاد.. فالأمير قد ضاعت منه ابتسامته، وظلت عيناه مصوبتان نحوي.. وحاولت بمرارة أن أعرف موضوع الحديث المعقد.. سألت المهندس فأجابني بلهجة هادئة لاتتفق مع خطر ما قال لي.. لقد طلب مني أن أصمت (بحق السماء) وأن أدعو الله أن يخرجنا سالمين من وكر الزنابير.

ورأيته يقوم بأشياء غير مفهومة.. كان يأخذ يد الأمير، ويمسك أصابعه الواحدة بعد الأخرى.. أما الأمير الذي ظل هادئاً لا يتحرك فقد نهض واقترب مني وحياني أعرق تحية، وافتر ثغره عن ابتسامة تقدير.. ولم يقل إلا كلمة واحدة: جميل.. واذن لنا بالانصراف.

وبعد برهة وجدنا أنفسنا في الفضاء الرحب.. ورؤوسنا تدور ونحن في ذهول.. ولم يعد لنا الحق في استعمال السيارة الأمريكية.. ولا بد من الانتظار حتى تقوم بنا العربة المكشوفة القديمة المحطمة.. ومع رجات العربة واهتزاز العجلات.. شرح لي صديقي ما حدث.. قال له الأمير: دبر لنا (الحكمة).. وتستطيع أن تختار من تشاء.. من حريمنا وكان المهندس يعرف الشرق معرفة عميقة.. فأجاب الأمير: أن أصابع يدك الخمس

كلها من اللحم والعظم والجلد والدم.. ومع ذلك فليست في طول واحد.. ولكل منها وظيفة خاصة والنساء هكذا.. هذه الحكمة ليست كالأخريات.. فالنساء لا يمكن الانتفاع بهن على نمط واحد..!)

وأطلقوا سراحنا بعد هذا.. ونجونا من الفخ..!

تحسست مسدساً كان صديقي يخفيه تحت قميصه.. وأدركت أن رشاقتي وخفته أثناء النقاش كان وراءها تصميم وعزم خطير.. وكان بعد الظهر صامتاً كئيباً حزيناً.. أما خيالنا فقد ظل معلقاً بالسرر الثلاثة الكبيرة التي ترقد عليها نساء الأمير.

مرة ثانية

جاء الأمير نفسه يسوق سيارة جيب ومعه حرسه.. ودعاني لزيارة واحدة من نساته، ولمس أني مترددة فدعا المهندس للقيام بالترجمة.. وكان يقود سيارته بسورة وحدة.. ولولا أن المهندس أمسك بعجلة القيادة في الوقت المناسب لكنا قد وقعنا ضحايا اصطدام عنيف.. وها نحن للمرة الثانية في الطابق العلوي.. في البيت الكبير.

كانت نساء الأمير في غليان وفوران.. وقد رقدت سيدة عارية فوق أحد السرر الثلاثة، وألقت أخرى بنفسها في أحضاني وتعلقت برقبتني وهمست في أذني: كونيأك.. طبعاً كونيأك.. هكذا دائماً.

طلب الأمير أن أفحص المريضة ودعا المهندس للدخول إلى الغرفة بل وطلب من المهندس أن يفحص المريضة بعدي.. ولم تكن مصابة بشيء على الإطلاق.. ولكن لاجدوى من تقرير هذا للأمير.

وضاقت النسوة وارتبكن حين وقف أمامهن رجل غريب.. وكن يجرين في كل جانب، وترتفع صرخاتهن ويحاولن إخفاء وجوههن ولكن الأمير كان يمسك بهن ويعرضهن بالقوة على المهندس.. وكان يقول: (ياللشيطان.. أنا متدينون) وقد أفقد الخجل والعار صواب احداهن، فكانت تتشبث بكل واحد وبكل شيء ثم فضلت أن تتعلق برقبة المهندس.. وأعترف، وأنا صريحة دائماً.. أن تصرفها هذا قد هيج أعصابي.. فلتخرج اذن.. إذا كانت هكذا خجولة خائفة..! لقد أمسكت بها من منتصف جسمها، وأشرت لها بالخروج ولكنها تشبثت بالمهندس، وأظهرت قوة تفوق التصور وكان علي أن أنتزعها منه انتزاعاً.. وقد ألقت بنفسها بعدئذ في أحضان الأمير.. وخرجنا من هذه المعركة.. نظيفين كما كنا. وفي المرة الثالثة، استدعاني الأمير من أجل إحدى نساته أيضاً ولم أفكر في اخراج المهندس معي في هذه الساعة المتأخرة من الليل فكنت أفضل أن أدخره لأحداث جديدة.. ولهذا فقد أرسلت لمساعدتي نجبية في المستشفى.

ولكن نجبية المسكينة.. ماذا تستطيع أن تفعل من أجلي في مثل هذه الظروف العسيرة.. فلتكن شاهداً.. وحضورها على كل حال يمنحني الثقة والاطمئنان.. وقد أرسل لنا الأمير عربته المكشوفة.. وعندما وصلنا – نجبية وأنا – استقبلنا بغضب، ولكن هل غضب لأنني تأخرت؟ أم لأنه رآني هكذا ومعني رفيقة..؟ ولم يكن بزوجه شيء.. ولكن كنت

أستحق غضبه مع ذلك.. لقد رفع صوته قائلاً: (أيوه.. يمكن أن يموت الانسان.ز دون أن يكلف الطبيب نفسه عناء الحضور.. ولكن هذا لن يستمر طويلاً.. غداً سأتصل بالإمام وأنقل له كل شيء) وقد أجبت عليه: أن الطبيب في الساعة العاشرة مساءً من حقه أن يكون في لباس النوم وأن يتأخر لذلك نصف ساعة.. ومع هذا فأنا لست الطبيبة الوحيدة في المدينة وذهل الأمير لجوابي.. وقال لزوجته: (هل تسمعين كيف ترد علي الحكيم؟) ولكنها نصحته ألا يرد بشيء.. وافترقنا ونحن على أسوأ ما نكون.

وأحضر لي زوجته في اليوم التالي للكشف عليها بالأشعة.. وكان يبدو غير راضٍ.. لقد كان ساخطاً من نفسه لأمني أنا.. ولم يقدم شكواه إلى الإمام. وفي المرة الرابعة والأخيرة أرسلت لمترجمي عبده فقد استدعوني هذه المرة بعد الظهر في ساعة القيلولة – وجاءني عبده مسرعاً وقال: (ولكنك تعرفين يا حكيمة أنهم لا يريدون أمثالي في البيوت الكبيرة.. فلماذا تصرين على حضوري..؟) وكانت معارضته شكلية.. فهو يعلم جيداً أنني أحتاجه.. وأمام البيت الكبير وقفت شرذمة من العساكر وفتحوا الباب، ولكنهم منعوا عبده من الدخول.. فالأمير ليس في حاجة إليه ورفضت أنا الدخول.. ووقفنا معاً صامتين لانتحرك.. وأخذ العساكر يناقشون المسألة، فوافق بعضهم على دخول عبده ورفض آخرون.

ورجعوا يستشيرون الأمير وأطل الأمير من النافذة.. ولا بد أنه كان يرقبنا.. كان في ثياب القيلولة.. عاري الرأس يرتدي جلباباً فقط، أمرني بالصعود، فأجبت عليه.. وطلبت من عبده أن يترجم له ما أقول.. وبرع عبده في تحويل اجاباتي بصورة دبلوماسية، ولكنني كنت أطلب منه أن يترجم كلامي كلمة كلمة.. قلت له: (أني قد أشرفت على ولادة.. وأنا متعبة جداً، وقد نسيت كل مامعي من كلمات عربية.. وأنه إذا لم يصعد عبده، فلن أستطيع أن أعمل شيئاً..).

إنني لا أزال أتخيل وجه عبده في تلك اللحظات.. لقد كان يبدو على وجهه الازدراء الذي يكذب اللهجة المؤدبة التي ينقل بها كلماتي.. وفتحوا الباب على مصراعيه.. ودخلنا معاً.

وكان المريض ابن إحدى الخاديمات طفلاً في العاشرة يشعر بألم خفيف في المعدة.. وقد تجاهلت كلماتي العربية.. وكان عبده في نهاية الحجرة.. لقد كان المسكين صغيراً.. صغيراً جداً.. ضئيلاً.. لو استطاع أن يتبخر في الجو لفعل بكل تأكيد!

أما الأمير وأنا فقد جلسنا بجوار الطفل نتبادل الحديث المعتاد عن المريض ولكن هل تصدقون أنه لم يكن لدينا سوى رغبة عارمة في الضحك؟

لقد كان التناقض مضحكاً للغاية.. بين هذا الوضع.. والوضع الذي كان يمكن أن يكون! فلم يكن هذا بالنسبة للأمير إلا لعباً!

وقد انتهى الفصل.. وخسره الأمير.. وسأترك صنعاء بعد أيام.. ولكن الأمير لاعب ممتاز.. وهو ذكي.. وقد شد على يدي بروح رياضية وقال مداعباً مازحاً: (إذا عدت

إلى اليمن، يا حكيمة، فجيئي بابنتك.. وسأتزوجها..!)
في صنعاء يبدأ الطفل حياته المدرسية في سن السادسة.. ويتعلم القرآن والتاريخ
الاسلامي.. وقليلًا من الجغرافيا ومبادئ الحساب.. وللمدرسين سياط يلوحون بها في
الهواء.. وعقاب التلاميذ وضع القيود الحديدية في أقدامهم.
ويختم الطفل قراءة القرآن في سن الثامنة.. ويقدم إلى أقاربه في حفل جميل لوحه
الموشى بالشرائط وقد التقيت مرة بأمير صغير يسير وحيداً في عربة مزينة بالأزهار
وفي يده اللوح الاردوازي، والعساكر يسرون إلى جواره حاملين أسلحتهم على
أكتافهم.

وقد عرفت صفات اليمنيين الصغار وخواصهم بفضل القاضي عبدالرحمن مدير
المدرسة الذكي الذي أتاح لي أن أجري بعض الاختبارات في فصول مدرسته الثلاثة..
وكانت النتائج بوجه عام شبيهة بما يمكن الوصول إليه في إحدى مدارس باريس.. فقد
أقبل الأطفال على الاختبارات بحماسة عظيمة، وعندما انتهينا حيوني بإحدى أناشيدهم
الحارة.

وبنات العائلات الموسرة لا يذهبن إلى المدرسة بل يبقين في أوساط الحريم.. يلعبن
بقطع القماش، ويكسو وجوههن بسرعة فائقة تعبير جامد غير مكترث حزين، ويغلب
عليهن الحياء والخجل العنيف من سن الخامسة عشرة.. ولا يخرجن من البيت إلا عندما
يرافقن أمهاتهن في الزيارات حيث يبقين ساعات طويلة متربعات على الأرض لا يبدن
حراكاً.. تماماً كالكبيرات.. وهن في البيت يلبسن نفس الثياب التي ترتديها النساء فيما
عدا غطاء الرأس الذي يظل حتى الزواج نوعاً آخر يقولون له (القرقوش) ، ولا يخرجن
من سن العاشرة إلا محجبات.

أما بنات الطبقة الفقيرة والمتوسطة فهن أكثر حرية إذ يلعبن مع الأولاد في الشوارع
حتى سن السادسة.. ويعرفن جيداً كيف يأخذن مكانتهن.. وهن مثلهم ذكيات مرحات
وتنتهي الحرية حين يطلب منهن حمل الأطفال والمساعدة في التدبير المنزلي.

وأطفال الأسرة الواحدة متحدون متضامنون والكبار منهم يشرفون على الصغار وعلى
اخواتهم، وسلطتهم لاتنازع.. وكثيراً ماكنت أتبين، وأنا دهشة مستغربة، أن اخوة
متحدين هم في الواقع من أمهات مختلفات فالأصل أن المجتمع الذي يسود فيه نظام
الزوجة الواحدة.. إذا حدث ولم يكن الأطفال من أم واحدة فإن مثل هذه الحالات تثير
كثيراً من المشاكل.. فالطفل الذي ليس له إلا والد واحد تتولد في نفسه الغيرة ضد أخيه
من أحد أبويه الذي له أب وأم، ولكن المجتمع الذي يعترف بتعدد الزوجات ينعم فيه
الأخوة الذين من أب واحد وأمهات مختلفات بحب والديهم معاً.. وإذا كان ثمة متاعب
فبسبب الأمهات اللائي لا يكن في وفاق، فتحرض كل واحدة منهن بنيتها ضد أبناء
الأخرى، وقد يؤدي هذا إلى مأساة.

لقد رأيت ولداً في سن العاشرة طعن زوجة أبيه الشابة بالخنجر في ظهرها، وعرفت

صبياً في السادسة عشرة كان سلاحه شيئاً آخر، لقد أغوى زوجة أبيه الجديدة الشابة يوماً بعد يوم، وكان يقص علينا انتصاراته، ويبدو أن متعته الرئيسية ولذته هي الانتقام لأمه.

وهذه حالات شاذة.. أما في أغلب الأحوال فإن الأبناء على صلات طيبة مع زوجات آبائهم الأخريات.

وهذا التوازن راجع إلى أن الأم بالنسبة للطفل في صنعاء ليست لها الأهمية المعطاة للأب.. فالحب الأبوي هنا طاغ متأجج إلى درجة لا نتصورها.. أنه يسلب الأم جزءاً من أولويتها المعترف لها به في الغرب.. فالأب يأخذ معه في نزهاته التي تطول طغلاً لا يكاد يحسن المشي ولا يستغرب أحد هذا بل على النقيض من ذلك! ولعل الأب يكون أكثر اعتزازاً بابنه، ولكنه أيضاً يحب ابنته وإذا مرض الطفل فليست أمه هي التي تعني به بل هو الأب، فقد كانت تختفي الأم بمجرد وصولي ويقف الأب يعطيني أخص المعلومات عن ابنه وأدقها وإذا تألم الولد فإنه يهفو إلى أحضان أبيه لا أمه.

فالمراة ضرورية لولادة الطفل، أما بعد ذلك فإنها لاتعتبر دائماً أهلاً لتربيته وحضانه.. والعرب يعرفون قدر الحب الأبوي ويسعدون بالأبناء ولايتخلون عن هذا حتى بعد الموت.. ففي جنة الله مكان خاص بأولئك الذين يحبون الاطفال ويتوقون إليهم.. وهذا الحب الأبوي يبدو من خصائص العائلة المسلمة.. مثل تعدد الزوجات.. فهل الأمران مرتبطان؟ هل هذا راجع إلى الفراغ الذي يكتنف حياة الرجال؟ لا أظن ذلك، فعندنا هنا في باريس، نجد العامل من شمال أفريقيا الذي ليست له إلا زوجة واحدة والذي يعمل عشر ساعات يومياً في المصنع.. ويتناول علاوات عائلية.. أجل نجد هذا العامل أباً ممتازاً.. ويجد الانسان نفسه مضطراً إذن للاعتراف بأن هذه العاطفة الأبوية الفياضة عامل سلالي كأي شيء آخر.. وحب الطفولة عام، ورجال العرب أكثر من الغربيين سهولة ويسراً في ولعهم بأطفال ليسوا أبناءهم، فأبناء الزوجة التي توفي عنها زوجها يجدون عند زوجها الثاني الحب الذي يجعلهم كما لو كانوا أبناء حقيقيين له.. وكم يندم ويحزن أولئك الفقراء الذين لايقدرّون على الزواج.

كان لطباخي أحمد بنت في الشهر السابع من عمرها.. وخلال اقامتي كان عساكري هم الذين يتولون تنشئتها وكل ما هو ضروري لها.. يأتون بها في الصباح ويعيدونها إلى أمها في وقت متأخر من الليل.. يغذونها وينظفونها ويأخذونها للنزهة طوال ساعات النهار كما يستشيرونني فيما يتعلق بصحتها.. وقد طلبت مرة من الحارس أن يحضر لي الجواد في الساعة الثامنة مساء إلى بيت بعيد كنت سأقضي فيه بقية النهار، وقد جاءني وخديجة متعلقة به، ولما سألتها: لماذا تخرجها في هذا الوقت المتأخر؟ أجابني: لقد كانت تبكي.. وقد رفضت أن تتركني!!

وفي سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، وفي احتفال عائلي، يغير الولد الطاقية ويضع على رأسه العمامة.. ومن هذه السن يبدأ يصوم رمضان، ويدخل في سن

الزواج.. وأثناء اقامتي في صنعاء أصدر السيف الحسن قراراً يفرض الزواج الاجباري على كل من جاوز الخامسة عشرة، وذلك حتى تتفادى الشبيبة الوقوع في الدعارة والفجور وكان هذا القرار مثار تهكم مرير من المرضى في المستشفى الذين لا تسمح لهم رواتبهم الضئيلة بالزواج.

وتكاليف الزواج باهظة، فالزوج يقدم لزوجته المهر خالصاً لها ويتعهد بتقديم مبلغ معين إذا طلقها، وعليه أيضاً تكاليف العرس والولادة والوفيات لتسجل.. أما الزواج فإن قاضي المنطقة يحتفظ بالعقد لديه.. وتكلف المرأة من العائلات الفقيرة عشرين ريالاً إذا كانت في سن العشرين ولم تتزوج إلا مرة واحدة.. ويتعهد الزوج بدفع عشرين ريالاً أخرى في حالة الطلاق.. أما العذراء التي بلغت الرابعة عشرة فإن الزواج منها يكلف خمسين ريالاً عند الزواج وخمسين إذا وقع الطلاق.. وتصل التكاليف إلى ثلاثمائة ريال في العائلات الغنية.. أما إذا كان الزوج شخصية كبيرة فقد يصل مايقدمه إلى ثمانمائة ريال.

وفي هذا البلد الذي تنعدم فيه وسائل التسلية يكون للزواج أهميته الكبرى.. ويتم (الفرح) في الليل، فيتوجه العريس وأصدقاؤه في الساعة السادسة إلى المسجد لأداء الصلاة.. ويعود إلى البيت وقد حمل على كتفيه سيفاً ، ويلبس حلة جميلة يستعيرها في الغالب من صديق غني ، ويكون وجه العريس مكشوفاً إذا كان زواجه هو الأول.. أما إذا كان يتزوج للمرة الثانية فإنه يخفي عينه اليمنى بطرف الثوب ، وإذا كان الزواج هو الثالث أو ما بعد الثالث فإنه يخفي عينيه الاثنتين ويسير مع العريس أفراد أسرته يرسلون الطلقات النارية في الهواء.. وينشرون الأضواء ابعاداً للأرواح الشريرة ، ويتقدم الركب أكبر الأقارب سناً.. وكثيراً ما يقفون ليتيحوا الفرصة للراقصين ، وإذا وصلوا تناولوا طعام العشاء.. وانتظروا وصول العروس وهم يمضغون القات ويسمعون الأغاني.

في هذا الوقت تستعد العروس في بيتها فترتدي ثوباً طويلاً من القماش المذهب ، وأكبر قدر من المجوهرات ، وتغطي رأسها بأغصان مجدولة مغطاة بالقماش الأسود.. وتغرس المرأة التي تشرف على تجهيز العروس أزهاراً ومجوهرات في شكل شبيهة بالتاج ، والأميرات ونساء الأغنياء هن وحدهن يملكن ثوب الزفاف.. أما الأخريات فيكتفين باستعارته..

وفي اليوم الأول تخضب العروس بنقطة واحدة على الخدين ، وتغطي بستارة وتسير إلى زوجها ، وتقطع المسافة عبر المدينة في الساعة الحادية عشرة مساءً على عربة تجرها الجياد أن أمكن ، وكثيراً ما استعاروا عربتي لهذه المناسبة ويجلس إلى جوار الفتاة أقرب العصابات من الذكور ويرافقها جميع أقاربها بالأغاني والرقصات والمشاعل والألعاب النارية، أما النساء فلا يسرن في الموكب.. بل يلتحقن سريعاً بنساء عائلة الزوج.

وأمام بيتها الجديد تقف الزوجة ، وعلى عتبة الباب تكسر بيضة رمزاً لانجاب الأطفال ويظل الزوج في مكانه.. أما أصدقاؤه فيخرجون لاستقبالها وهي تصعد درجات السلم ببطء وسط الأغاني والأهازيج ..ويوصلونها إلى مقر النساء ويعود الرجال إلى مجلسهم..

وفي هذه الأفراح كنت أنا وحدي التي استطيع الانتقال بين الجنسين.. وتفيض سهرة النساء مرحاً وصخباً.. وتقوم بعض العجائز باداء أدوار مسلية.. وبعضهن محبوبات للغاية وتقدم لهن النساء هدايا صغيرة تقديراً ومكافأة .. وقد أظهرت أحدهن مرة موهبة مذهشة في الفكاهة والإضحاك.. فقد تنكرت في زي رجل واشتركت معها امرأة ثرثارة ، ومثلت أمامنا مشاهد كلها تنديد بالرجال ونقد لحياتهم.. منها مشهد عن رجل ذبح خروفاً وأراد أن يقدم أفضل قطع اللحم لمحبوته لولا أن زوجته كانت ترقبه عن قرب.. ومشهد آخر عن رجل اراد الذهاب إلى مكة لاداء الحج وهو في الحقيقة يريد أن يتمتع بأوقات سعيدة فاشتبكت معه زوجته وحاصرته ، ومشهد ثالث عن ذلك الذي أراد في مكة أن يعلم الآخرين الصلاة.. وقد مثلت هذه المشهد بواقعية مشينة جداً..

وتأتي اللحظة الهامة وهي تقديم العروس إلى العريس .. الشابة جالسة على الأرض في حجرة جانبية وهي كلها مغطاة بالستارة وليس معها إلا اثنتين أو ثلاثاً من قريباتها.. ويدخل العريس ويقرب منها ويرفع عنها الحجاب.. ويضع قدمه على قدمها ويده على جبينها وهي مغمضة العينين ويتلو بعض الآيات والأدعية بصوت خفيض.. وتفتح عينيها وتنظر إليه .. ولكنها لاتقدر بعد على الابتسام أو الكلام.. ويدوم هذا دقائق معدودة ، يعود بعدها الرجل إلى اصدقائه.. وتنتهي السهرة في ساعة متأخرة من الليل ، ويترك الزوجان لشأنهما ، وفي اليوم الثالث يستقبل الزوجان اصدقاءهما في آن واحد وتكون الزوجة في أجمل ملابسها ، ولكن نقطتين لانتقطة واحدة تلوان وجنيتها ، وتحدث وتبتسم ويأتي زوجها كثيراً لرؤيتها.

أما أبناء الأسر الغنية فيتزوجون مبكرين بنساء يكبرنهم في السن عادة ولسن أباكراً ويكون الطلاق سريعاً ، وهو زواج هادئ لأنه مجرد احتياط ووقاية وأبعاد عن ارتكاب حماقات في المدينة.. ولكن الزواج الأول للفتاة هو الفرصة المناسبة للأفراح والاحتفالات.

وقد لا تتعدى الزوجة سن الحادية عشرة أو الثانية عشرة ، وتعيش مع زوجها .. فهل زواج الصغيرة جريمة؟

لقد عرفت الكثيرات من صغيرات السن مزوجات ومخطوبات.. ولم أتبين لذلك ضرراً.. ويندر أن تحمل الفتاة خلال المرحلة الأولى لبلوغها.. وعسر الولادة ينتج عن سوء التغذية أكثر مما ينتج عن النمو الجسمي غير الكامل للأم الشابة.. وفي نظام الحريم تعد الفتيات الصغيرات أعداداً نفسياً ممتازاً.. ويعرف الأزواج كيف يحصلون على ما يريدونه من متع ولذات.. ولم أعرف اثناء اقامتي في اليمن إلا استثناءً وحيداً.. وهو

أن فتاة صغيرة كانت تشعر نحو زوجها بخوف وهلع.. وقد قالت لي: أنه لطيف وأنا أحبه كثيراً ، ولكن ما أن يقترب مني حتى ارتجف.. وطلبوا مني أن اعطيها شهادة طبية حتى تعود هذه الطفلة لبعض الوقت إلى عائلتها دون أن ترجع المهر.. وقد طلبت حضور الزوج وكان شاباً بسيطاً صارماً في سن الخامسة والعشرين.. وقد حزن وفجع لهذه الحال فعلاً ولكنه كان بدون شك جائعاً ومحتاجاً لما هو أكثر من هذه البنية ، ولن يقتنع بفاتحة الشهية أو مقدمات الطعام؟ وكانت الصغيرة يتيمة وقد تم هذا الزواج بدون بصيرة ، اتفقت مع امرأة جارة كانت كأمرها على أنه يجب إيجاد زوجة للرجل في مثل سنة انتظاراً لنزوح عروسة الصغيرة.

وبالمقابل.. هاتان صورتان لفتاتين متزوجتين الأولى زوجة صديقي مدير المدرسة الذي بلغ سن الأربعين .. مرضت الصغيرة.. وبينما كنت افحصها كان زوجها واقفاً على حافة الفراش وقد اغمض عينيه ورفع صوته يطلب رحمة الله وعونه حتى توفق جهودي في تخفيف آلام زوجته.. وبينما هو يدعو الله هكذا كانت هي تتأمله بخليط مؤثر من الوله والاحترام والثقة.. وقد ترددت عليها كثيراً.. ولم الحظ إلا انسجاماً كاملاً وتوافقاً حقيقياً.. ولكن هل هذا التوافق زائل؟ .. ربما.. وعلى كل فهذا لا يغير شيئاً من قيمة الحاضر.

أما الأخرى فهي فتاة في الثالثة عشرة مزوجة من شاب في السادسة عشرة ، وكان اجتماعهما تنفيذاً لرغبة ودية قديمة اتفق عليها أبواهما قبل أن يريا النور ، وقد دعيت ذات مساء لعيادة الزوج الذي أصيب بآلم خفيف .. ووصلت فوجدت عدداً من رجال الأسرة قد التفتوا حوله.. ورحت ابحت في جوانب الغرفة عن وسادة فاكتشفت زوجته الشابة في ثيابها المرسله الحلوة وقد اخفت نفسها في كوة النافذة عندما فوجئت بوصول الرجال.. وقد ابتسمت وأشارت لي إلا أقول شيئاً يكشف عن وجودها.. ويبدو أن صحة زوجها لم تكن تقلقها كثيراً.. لقد كانت تفيض فرحاً ودهاءً ورشاقة وتفتحاً جنسياً سعيداً..

يالتعاسة فتياتنا الغربيات اللاتي تمتنع ألوانهن في هذه السن على مقاعد الدرس.. واللاتي إذا عشن كنساء ففي الخفاء وفي العذاب والندم..

وزواج الفتاة الصغيرة ليس فيه خطر من الناحية الجسمية.. بل أنه جاذب فتان في غالب الأحوال.. إلا أن هناك امراً آخر في غاية الأهمية ،ذلك أن وضع الفتيات تحت رعاية الرجال وهن في سن مبكرة.. يحول بينهن وبين النمو العقلي المتكامل.. وقد اثبتت هذه الاختبارات التي قمت بها في أوساط النساء.. تردد ، رفض ، عدم مواظبة ، سوء تلاؤم مع الواقع ،كل هذا يدل على اختلالات عميقة في الشخصية..

ثم ما هي فرص السعادة أمام هذين الزوجين الشابين؟
الأب في الظاهر هو الذي يقرر في شئون الزوج .. ولكن في الحقيقة أن النساء هن اللاتي يقمن بعقد الزواج ،فالشاب يعلق أهمية كبرى على رأي أمه وأخواته لأنهن

يعرفن الزوجة المقترحة ،وفي العرس وعندما يرفع عن زوجته الحجاب تكون أول فرصة يرى فيها زوجته.. أما الفتاة فالزوج غير مجهول عندها ،فهي قد رآته قبل ذلك .. من خلف الباب ،أو من وراء شباك النافذة ، بل لعلها قد سمعت صوته وهو يقول: (الله) حين يصعد درجات السلم.. أما إذا كان قد تزوج قبل هذا ،فإنها ستعرف تفاصيل حياته الخاصة من ثروة النساء في مجالس الحريم.. وهكذا يتوقف الزواج على مدى حكمة نساء الأسرة ، ولكن هذا لا ينفي سعادة الزوج الذي يعد أعداداً حسناً والذي تقويه العاطفة المخلصة فيما بعد.. كما أن هذا لا ينفي أيضاً الحب من أول نظرة.. ولو أن هذا نادر.. ان الخطيبين محرومان من كل وسيلة للاختيار الحقيقي.. وهما محرومان من الحب..

وحوادث الطلاق كثيرة ولا سيما عندما تكون الزوجة لا أطفال لها، ولكن الزوجة لا تستطيع الحصول على الطلاق إلا إذا أثبتت خطأ في حق الزوج.. كعلاقة غير شرعية أو مبالغة في البخل والتقتير وهي عندما تريد الطلاق تترك بيت الزوجية وتعيش عند أهلها، وتكلف من يناقش الموضوع مع الزوج.. وكانت سمعة زوج نجبية الذي كان عاملاً كهربائياً في فرنسا طيبة كمدافع عن النساء.. وبفضله تتبعت كثيراً من القضايا الدقيقة.. والقاضي في الحالات الخطيرة لا يعارض التفريق بينهما.. ولكنه في كثير من الحالات يفرض على الزوج ترضية لزوجته.. فيقدم لها ثياباً ولكنها تبقى حانقة لا تخرج من اعتكافها إلا وهي ترتدي ثياباً جديدة من قمة الرأس إلى أخمص القدم.. ومن جهة أخرى يصبح الزواج غير قابل للانفصام عملياً إذا وجد الأطفال.. فالطلاق طبقاً للشريعة ممكن دائماً، ولكن الأب يحب ابناءه حباً لا يستطيع معه أن يفارقهم ولا أن يحرمهم من أمهم.. كما أن الناس جميعاً في مجالسهم سيلومونه لوماً عنيفاً.. ولم أعرف خلال إقامتي إلا حادثاً واحداً وقع الطلاق فيه على أم.. فقد كانت حماتها تكرها.. واحتفظ الزوج بالطفل..

وعندما تصبح المرأة أم.. يصبح الزواج قوياً متيناً، وتستطيع المرأة حينئذ في صراعها الزوجي أن تلجأ إلى التصرفات العادية المزعجة.. وهي هنا لا تضع في اهتمامها إلا أن تجد لها زوجاً أفضل.. وأحسن الزوجات لا تضع هذه الفرصة وإذا جاءت فليس هناك ما يردعهن.

وإذا توافرت الإمكانيات فإن واحداً من كل رجلين تتعدد زوجاته، إذ إن أرجح الأزواج عقلاً وحكمة، يشعرون وهم في سن الأربعين بحنين ورغبة إلى جسد بض جديد، وزوجاتهم يعرفن كل هذا ويتقبلنه كما لا تتقبله المرأة في أي بلد آخر.. ذلك لأن الإسلام يقره أولاً ولأن كرامة الزوجة لن تمس، فهذا الزواج تماماً كزواجها هي ليس نتيجة للحب.. إنها لا تخشى العواصف التي تغلب الحياة العائلية رأساً على عقب في البلاد التي يتعارف فيها الرجال بالنساء.. وهي أخيراً ستجد صديقة حبيبة تساعدتها وتأخذ عنها جزءاً من العمل المنزلي ومن ترصد الحماة واعتراضاتها ومتاعبها.. أما الزوجة

الجديدة فتحترم ضررتها الأولى، وشبابها يضمن لها أفضلية مناسبة، وإذا لم تتفق الزوجتان فإن الزوج يتخلص ممن لا أولاد لها.. فإذا كان لهما أولاد وكان الرجل موسراً فإنه يعد لكل واحدة سكناً خاصاً.. أما إذا كان الزوج فقيراً.. فإنه الجحيم بعينه.. وقد عرفت رجلاً معسراً وقع في هذا المأزق فكان في معظم الأوقات يعيش في بيت أخيه.

ويبدو أن النساء، بصفة عامة، لا يتنافرن.. والبلدان التي ترتفع نسبة الوفيات فيها بين الأطفال تضم دائماً نساء أكثر من الرجال ذلك لأن البنات الصغيرات أكثر مقاومة من الأطفال.. ولهذا فإن النساء هنا كثيرات.. ومن العسير على المرء أن يميز بين الزوجات والأخوات والخالات المطلقات وبنات العم غير المتزوجات.. وهن يقضين معاً أوقاتاً ممتعة، ففي الصباح يتلهفن على خروج الرجال من البيت، وعودتهم في المساء تأتي معها بنوع من الضغط والضيق.. ويندر أن يكون للرجل في وقت واحد عدة زوجات شابات إلا إذا كان أميراً أو موظفاً كبيراً في الأقاليم، والنساء في مثل هذه الحالات يجدن صعوبة في اظهار رقتهن ولطفهن فهن.. في الدور يقضين الليل مع الزوج.

وكنت أقابل بالسخط والحنق إذا سألتهن عما إذا كن مجتمعات قد قضين الليل مع زوجهن والإسلام لا يسمح للرجل بأكثر من أربع.. ولكن ينذر أن يصل الرجل إلى هذا الرقم.. وتتفاوت أعمار الزوجات في أغلب الحالات.. إذ أن البيت المثالي لرجل توافر له المال والعمر وحسن التدبير، يضم عجوزاً في مثل سنه وهذه هي صديقة عمره يناقشها ويحدثها، وزوجة أخرى قوية في العقد الرابع من العمر.. هذه تعنى بالبيت وشؤون البيت.. أما الثالثة فهي شابة للمتعة والصحة وهذه الأخيرة هي التي تمنحه العزة والفخر بإنجاب آخر ابنائه.

ومغامرات الرجال بعيداً عن زوجاتهم ممكنة، بل وكثيرة الوقوع، ففي صنعاء بيوت ستة للمواعيد الغرامية تسير على النظام الآتي: أرملة فاضلة تجمع حولها فتيات جميلات وهي تفعل هذا في الظاهر لتفرج عن نفسها في سنواتها الأخيرة.. وفي البيت المجاور شائب حكيم هو الوسيط الذي يأتي بمجموعة من أصدقائه المحترمين.. ويكون الاتصال بين البيتين.. وتسير القافلة.. وإذا عرفت هذا الشرطة قفلت المؤسسة أبوابها وانتقلت إلى حي آخر.

كيف يقع الجمع بين كل اثنين؟

يحتمل أن تقوم بهذه المهمة الأرملة الفاضلة والرجل العجوز.. ولكن الغالب أن تختار المرأة عاشقها.. فمن وراء الحجاب تختار الرجل الذي يسعدها.. ومن السهل أن تتردد على نسائه في بيته.. وبالمهارة والحظ تلتقي في طريقها بهذا المرشح السعيد في السلم.. وابتسامه يفتّر عنها ثغرها وهي ترفع الخمار عن وجهها تدير رأسه وتجعله ثملاً سكران تماماً كلباس البحر الفاضح المتهتك.. وقليلون جداً هم الذين يقاومون..

وما دامت قد جذبت اهتمامه فإن كل شيء سيسير سيراً حسناً وخاصة إذا حصلت - وهذا بمقابل طبعاً - على مساعدة خالة أو أخت للمجني عليه ويحدد موعد اللقاء بسرعة.

وتبدي نساء صنعاء جرأة وشجاعة في المغامرات العاطفية.. فقد سلمت عجوز يوماً لصديقي المهندس عود ثقاب وسيجارة وكعكة وقطعة من الحلوى وزهرة.. وهمست العجوز حاملة الهدية في أذنه قائلة (لقد بعثتها لك امرأة.. علك تفكر فيها) وأعطته عنوان المكان الذي يمكن فيه الحصول على ما تبقى.

ولكن صديقي خشية الوقوع في فخ.. اعتذر عن قبول الدعوة.. وفي مناسبة أخرى عالجت رجلاً خائر القوى متعباً وقد شرح فيما بعد للمهندس سر إرهاقه وانهيار صحته.. فقبل أيام، جذب إلى بيت صغير.. كانت تنتظره فيه ثلاث نساء.. يانعة وشابتان يبدو عليهن الثراء عطور طعام شهى.. ولا شيء ينقص الفرح.. وحتى اليوم الثاني لم تكن المرأة الناضجة قد أطفأت غلتها وأشبعت نهمها.. أما الفتاتان فقد انسحبتا وأرسلتا صديقتين تحلان محلهما.. وبعد ثلاثة أيام أطلق سراح صاحبنا (التعس) خائراً منهوك القوى وكان علي أن أعالجه.

وأكثر النساء انطلاقاً، الأرامل والمطلقات ومن يغيب عنهن أزواجهن زمناً طويلاً.. وهن كثيرات انهن لا يخشين شيئاً فإذا حملن فسيظل الطفل راقداً ويلتحق بآخر زوج.. والمجربة الخبيرة إذا وقع اختيارها على رجل فإنها تعرف كيف ترغبه وكيف تقوده إلى الزواج بها.. وعندهم مثل يقول.. إن الأهل يأتون بالزوج الأول.. أما الأزواج الآخرون فالمرأة هي التي تجذبهم.

وهذا كله لا يتاح للفتيات الصغيرات ولا للزوجات الخاضعات للأزواج.. فالصغيرة.. أقاربها مسؤولون عن سلوكها وهم يأخذون احتياطاتهم في الوقت المناسب.. فيستعملون دواء قوياً مجهضاً ينجم عنه تسمم خطير.

وقد عرفت فتيات صغيرات وهن حبالى.. ولكن لم ألحظ بعد ذلك أي تطور للحمل.. أما النساء اللاتي يعشن مع أزواجهن.. فنادرًا ما يفكر الزوج في اعلان الفضيحة كما حدث مرة في صالة بمدينة تعز.. والنساء يخشين غيرة أزواجهن المميتة.. إذ لو عرف الزوج أن لزوجته حبيباً أو عشيقاً فإنه لا يتردد عن قتلها بالسم أو الخنجر.. وهم هنا لا يحققون أسباب الوفاة.. ولا يقيدون الدفن بضرورة الحصول على تصريح من الحكومة.. ولهذا تظل المآسي دائماً مجهولة.

وما دامت الزوجات محرومات من الحرية والحب فأنهن يلجأن إلى تبادل التعاون وتبادل المعلومات والمشورة.. وكثيراً ما سألت: وما الذي يحدث لو اتخذت الزوجة لنفسها عشيقة بدلاً من عشيق.. وعرف الزوج..؟ والجواب هو أن الأمر هنا يكون أقل خطورة.

ومع مراعاة كل اعتبار.. فإن حالة المرأة في نظام الحريم ليست سيئة إلى الحد الذي

يخيل إلينا إذ يوفر لها الحجاب حرية التصرف بصورة ما كنت أتوقعها.. وتعدد الزوجات يحمي إلى حد كبير استقرار البيوت التي يوجد بها أطفال.. فلا وجود هنا للبيوت المنهارة، ذلك التعبير الذي يظهر والذي هو في تزايد مستمر في ملفاتنا العلاجية الخاصة بالأطفال المرضى أو المعسرين.. ولعل المرأة الغربية التي هجرها زوجها والتي تبحث عبثاً عن نفقتها من زوج هارب وليس عندها ما تعيش به، لعل مثل هذه المرأة تكون أقل تعاسة في مجتمع فيه تعدد زوجات.. لا سيما والأب هو الذي يتكفل دائماً بنفقة الأولاد وتنشئتهم.

وهناك أمر آخر أكثر خطورة وأهمية.. فحرمان المرأة من التعليم، وبعدها عن ممارسة أي دور في الحياة الاجتماعية.. وإرجاع مكانتها في الأسرة إلى الحيلة والدهاء.. كل هذا جعلها وليس لها إلى مشاغل تافهة صغيرة.. بل وعواطف سفلية وضيعة.. إن المرأة هنا تحسد المرأة الغربية على تمتعها بأشياء كثيرة منها الذهاب إلى المحلات التجارية ودور السينما.. ولكنها لا تطمع في حياة أكثر صراحة، وأكثر امتلاءً، وأكثر فائدة.

لقد خضبت النساء ذات يوم قدمي بأشكال صغيرة سوداء على الطريقة اليمنية.. وأقدام النساء هنا ناعمة كخد طفل وليد.. أما قدمي فقد كانتا لسوء الحظ خشنتين، كقدمي أي عاملة شريفة، وكانت دهشة واشمئزاز، ورحمة ورغم أنني شرحت لهن أنني أنا التي أحيا ولسن هن، وأنني التي أعيش في صميم الحياة، أما هن فعلى هامشها، فلم يأسفن على شيء، ولم تجعل لي حياتي النشيطة كطبيبة أية مكانة بين هؤلاء الحريم.. لقد كن يسألنني عن الأشياء الفرنسية السطحية، عن الموضة والأغاني.. وعن طريقة تقديم الطعام في الولائم الكبيرة، أما عن شؤون القلب فلم يكن يحسدننا على احتكارنا المشروع لزوج حبيب.. والرجال يستخدمونهن هنا كسلعة.. سلعة للذة والتسلية، أو آلات لإنتاج الأطفال، والشيء الذي يعامل كسلعة يصبح شيئاً وضيعاً.

ورغم أن الرجال قد لا يجهلون هذا فإن بقايا الجيل القديم يصرون عليه.. وفي البلاد الإسلامية حيث بدأت المرأة تتعلم.. أصبح الرجال والنساء اصدقاء، ولم يعد لعشق الجنس أثر يذكر.. ويختفي لذلك تعدد الزوجات تلقائياً.. وهذا دون شك هو ما يخشونه من التعليم هنا.

وقصة الفتاة شريفة التي ذكرتها سابقاً دليل على هذا.. وقد أردت قبل مغادرتي صنعاء أن أختبر تلميذات مدرسة البنات العشرين حيث لا يتعلمن سوى الحياكة والتطريز.. وقد منعني من هذا القاضي الأنسي.. وهو شيخ وقور في الثانية والسبعين من عمره، يقوم بجميع وظائف السيف إسماعيل وزير الصحة والسيف علي وزير المعارف والسيف القاسم وزير المواصلات والبرق والبريد، وقد اشتعلت غضباً هذه المرة وصرخت فيهم: (أما عن الاختبارات فقد حصلت عليها لقد أجريت اختباراتي على نسائكم.. في بيوتكم.. ومما يرثى له أن أبناءكم أذكاء.. أذكاء جداً).

ولا يزال في ذهني مجلس نائب الإمام الذي وقع فيه الحادث، لا أزال أتخيل أولئك الرجال الطاعنين في السن الذين يحتقرون كل شيء.. والذين قالوا لي: (هكذا نريد أن تكون نساءنا..).

ومن حسن الحظ أن السن تتقدم بالنساء، فترسم الشجاعة على وجوههن فلا يعدن يصلحن سلعة للمتعة.. ولا مصنعاً لإنتاج الأطفال.. إنهن أخيراً يصبحن كائنات بشرية جديرة باسم الإنسان فحب الطفولة وتسامح الرجال، واحترام الشيخوخة، كلها عواطف عميقة هنا.. ويستفيد الجنس اللطيف بعاطفتين منها، وقد تنتقم العجوز من زوجات بنيتها لكل ما قاسته وتحملته في صباها ولكن هذا لا يكون إلا نادراً.. والمرأة الطاعنة في السن تكتسب وزناً ومكانة لم تكن لها في الماضي.. وتستطيع إذا أرادت أن تجلس في المفرج مع الزائرين.. وهي لا تحمل الحجاب.. بل تجلس مرحة تسأل وتتحدث في الشؤون العامة.. وقد عرفت كثيرات أصبحن صديقات لأزواجهن وهذا التطور يلطف كثيراً من حزن الشيخوخة والآمها.

كان عبده منذ مدة طويلة يحدثني عن ذمار، مسقط رأسه الواقعة على مسيرة ثلاثة أيام جنوب صنعاء، وقد وصف لي بيوتها ومسجدها المشهور وضريح الأئمة السابقين والقبور الحميرية في ضواحيها وأطلال القرية المسيحية التي لم يبق أحد بزيارتها.. وقد بذل عبده كل ما في وسعه لإثارة اهتمامي ورغبتني وذلك لأن رحلتنا إلى ذمار ستتيح له الفرصة لزيارة عائلته.. ولهذا كله فقد تحدث بإعجاب عن كفاءتي ومهارتي كطبيبة مع عامل ذمار، الرجل الشيخ الذي كان يقيم في صنعاء بعض الوقت، وطلب العامل من الإمام أن يأذن لي بانتقالي إلى ذمار لمعالجة مرضاها.. وكانوا قد رفضوا أن يسمحوا للدكتور ريبوليه بالذهاب إلى ذمار.. ولم يمر بها أحد من الأجانب بعد المهندس الفرنسي جورلن الذي كلفه الإمام قبل ست سنوات القيام بأبحاث جيولوجية.. ولا يقيم فيها أي طبيب رغم أن سكانها يقربون من خمسة عشر ألفاً وأذن الإمام بعد عدة شهور بسفري إليها.. وذمار تقع على الطريق القديمة بين صنعاء وتعز وهي طريق تخترق جبلاً شاهقة بين إب ويريم ولا تمر بها إلا البغال.. وقد هجروا هذه الطريق منذ وجدت طريق أخرى تمر بالحديدة.. وتعيش ذمار ومدينة يريم المجاورة لها في عزلة تامة بعيدتين عن الشريان التجاري الرئيسي، وقد عرف سكانهما بعدم ترحيبهم بالأجانب.

خرجنا من صنعاء في يوم من أيام شهر سبتمبر في سيارة فورد.. وعندما تكون السيارة قديمة والطريق غير ممهدة فإن تقلب أحوال السفر في البلاد الجبلية لا يتأبين كثيراً.. وقد توقفنا قليلاً في قرية صغيرة تقع على سفح مرتفع عظيم.. ومنها أشاروا إلى قبور حميرية، وهي مغارات تبدو مداخلها من منتصف الهضبة وعدني أحمد أبن عامل ذمار الذي يقود السيارة أن نزورها عند العودة، أما الآن فإننا متأخرون وقد توقفنا ثلاث مرات متتالية كان آخرها بسبب نقص البنزين وقد أرسلنا شخصاً إلى ذمار

قطع المسافة سيراً على الأقدام.. وجاءنا بعد ساعة فارس يعدو بجواده والصفحة الغالية في يده.

وبعد منتصف الليل وصلنا دمار وتعلق بالسيارة عسكري يضيء لنا الطريق بمصباحي الكهربي.. أما البطارية فقد تشقت من أثر الهزات وكنا مهدين في كل لحظة بتوقف الإضاءة.

ولا يستطيع الأوروبي بعد رحلة قاسية في الظلام أن يمنع نفسه من الأحساس الغامض بالمرارة وهو يدخل دار الحكومة.. لقد شعرت أني في أرض لا زالت تعيش في عصر الحروب.. أن كل شيء فيها يعيد للأذهان القرون الوسطى المظلمة التي عرفت أوروباً.. فلا ينقص القلعة المحصنة بالأبواب الكثيرة إلا الخنادق المليئة بالمياه، والحراسة مشددة على الأبواب.. والطرق مسدودة بقطع ضخمة من جذوع الأشجار يرفعها العساكر عند مرورنا.

والطابق الأرضي مليء بالطعام المخزون والسلاح والذخيرة.. وفي الطابق الأول قاعة الحرس المضاعة بمصابيح الغاز المثبتة في الجدران.. ويختفي السقف فوقنا في الظلام.. ويتوقع الإنسان أن يرى ومضات الرماح والخوذ والعدد.. الحربية.. وقد كنت محاطة بالقمصان البيضاء الواسعة والعمائم والخناجر والبنادق والرجال الذين ينظرون إلى بعيونهم الكحيلة ووجوههم الغربية الداكنة.

وإذا استشر طبيب فرنسي في ظروف مشابهة هذا الفرع الرهيب وظن أنه قد تناول مخدراً في وجبته السابقة.. فإن أحداً ممن خبروا أوضاع اليمن يرد قائلاً: (كلا.. انها فقط اليمن.. قد وضعت يديها حول عنقك..) وإذا كان هناك شيء يمكن أن يعمل الإنسان في أحوال كهذه فهو الايشغل باله، وأن يسيطر على هواجسه وتصورات.. وأن ينتظر صابراً نور الصباح.

انتظرت الضوء هادئة في حجرتي في الطابق الثالث.. وهي حجرة طويلة علقت البنادق على جدرانها ووضعوا وسطها اكراماً لي كرسيّاً مريحاً وطاوله من الخيزران.

وقد تجولت في اليوم التالي بالمدينة.. ودمار مدينة مفتوحة لا اسوار لها. وموقعها أقل جمالاً من صنعاء، فالسهل أكثر اتساعاً، والجبال أكثر بعداً.. وأغلب منازلها من الطوب.. وهي منخفضة نوعاً ما.. ولكن بعض دورها لا سيما دور التجار الأغنياء، مرتفعة ومزخرفة تماماً كأجمل الدور في صنعاء، وأسواق نما منتعشة، ففيها المنتجات الزراعية المتنوعة، ومنتجات الصناعات الصغار كالصوف والجلود، وفي دمار سجاجيد كبيرة بيضاء وسوداء، وهي من أشهر أنواع السجاد.. ولا يجد المرء السلع الأوروبية في دكاكينها إلا نادراً، ولم تحتل الصفيحة مكان القلعة القديمة الفخارية.. وفي دمار كما في صنعاء آبار كثيرة وقد لاحظت في أسواق دمار طريقة ظريفة للإعلانات.. فبعض التجار يقيمون بجوار محلاتهم التجارية أكشاكاً حجرية يزودونها بالمياه العذبة، ويثبتون الأكواب المعدنية في سلسلة يربطونها في الدكان.. ويمر العطشان وقبل أن

يشرب لابد أن يبادلهم الحديث.. وقد يصبح بعد هذا زبوناً.
وفي ذمار عدد كبير من المساجد، إثنان منها قديمان وجميلان.. وأحدهما كان بناءً مربعاً ضخماً دفنوا فيه في القرون العشرة الأخيرة كثيراً من أمة الزيدية.. وكنت أود زيارة هذه القبور..

وقد أخذني أحمد إلى حظائر الخيل حيث يربون أحسن جياذ اليمن وكان يشغلها قديماً الجنود الأتراك.. وقد قاموا أمامي باستعراض رائع.. فكانت تصل الجياذ إثنين إثنين عدواً وبينهما جندي يمسك بيده الزمام، إنها جياذ ممتازة هيفاء ملساء وثمانية جداً ويظهر الحراس بأقدامهم الحافية، وسواعدهم العارية، وشعورهم التي تعبت بها الريح والجياذ أيضاً صورة للجمال الطبيعي المتكبر.. واستعد أحمد للثأر.. وأخطرتني وأنا في غاية الحماسة أن السيارة في حاجة إلى كشف عام ولن تكون تحت تصرفي، وأن علي أن أختار واحداً من هذه الجياذ لتتقلاني.

وقد رجوت أن يأتوني بجواد لين العريكة ولو لم يكن جميل الطلعة وقد ارتسمت على شفتي أحمد ابتسامة خبيثة وكأنه يقول: (المدام تريد أن تتشبه بالرجال.. حسناً.. سنرى..) وقد أجابني أحمد بأن جواداً لين العريكة.. لوجود له في ذمار، وأخذ اصداقوه من حوله يغرقون في الضحك والتهكم.. وقد خلعت القفازات وطلبت منه أن يختار الجواد بنفسه، ومرت أمامنا الجياذ من جديد، ولكنني هذه المرة كلما رأيت الجياذ نشيطة خفيفة تملكنتي المرارة والغم. اختار أحمد فرساً عمرها ثلاث سنوات في عينيها الذعر والخوف وكان مزاجها عصبياً.. وقد تذكرت جوادي (الحجاب) الهادئ بمزيج من الأسف وتوقع الشر.

لم يكتفوا بهذا بل خصصوا لي بجانب الحصان أكره عسكري قد عرفته.. إنه شاب فظ مستهتر لا يرحم ولم يعمل أي شيء لتخفيف الصعوبات التي واجهتها.. ومع هذين الرفيقين كانت إقامتي في ذمار مرهقة، ولكنني مدينة مع كل هذا لذلك الجواد بساعة من المجد، قليل من الأوربيين يستطيعون المباهاة بأنهم قد تمتعوا بمثلها.

فقد غادر العامل جامع ذمار بعد صلاة الجمعة يحيط به الأعيان والعساكر.. وحتى أشهد المنظر، اتخذت مكاني في بيت مجاور، وما إن غادر الموكب الجامع حتى امتطيت جوادي عائداً إلى بيتي، ولكنهم رأوني.. فتوقفت سيارة العامل وأشار لي بالاقتراب، ولعله كان راضياً أن أدخل في مدينته الطيبة هذا المنظر النادر.. والتحققت بالركب، وكانت تصرفات جوادي طيبة للغاية فهو متعود على الاستعراضات العسكرية.. لقد تذوقت ذلك الإحساس المخدر وأنا في قلب الجزيرة العربية ضمن حاشية الشرف لأحد النبلاء المسلمين..

ولكن جوادي الذي ظل هادئاً وديعاً في الاستعراض، لم يكن يحتمل زحام الناس الذين يتجمعون حولنا.. وما كانت صرخات العساكر لابعاد الجمهور تزيده إلا رعونة وجنوناً.. ولعل ذمار لم تشهد منذ عهد (نيبور) عشرين أجنبياً.. بل ولعل الزحام الذي

كان حولنا.. هو نفس الزحام الذي كان حول نيبور قبل مائتي سنة ولكن هل اسير على الأقدام؟ إن هذا مستحيل إذ لو فقد الإنسان هنا هيبته واعتباره فقد كل شيء.

كان المرضى يقدمون طلباتهم لزيارتي لهم إلى العامل، وكان هذا يحول إلى عبده ماوافق عليه منها، كان يوافق طبعاً على الطلبات التي يتقدم بها أعيان المدينة.. وقد ظلت في الأيام الأولى انتقل بين البيوت الكبيرة، وكان أكثر الناس طمعاً في رؤيتي تاجر غني جداً ينافس العامل في القوة والنفوذ، وكان بيته مريحاً بهيجاً كبيوت صنعاء ذلك لأنه قد تجول في داخل البلاد وتعرف بأوربيين قبلي.. ولكني دعيت أيضاً من عائلات مقفلة جداً وقد تركت إحدى هذه الزيارات ذكرى مؤثرة في نفسي.. كان ذلك عند رجل غني أيضاً ولكنه من ملاك الأراضي، ولم يكن قد غادر دمار اطلاقاً.. دعاني للكشف على نسائه.. حضرت وبدلاً من أن يقودوني إلى مقر النساء أخطروني ان رب المنزل ينتظرني.. وما ان دخلت المفرج الفخم حتى خلت نفسي في حلم: حجرة ضيقة يدخلها النور من نوافذ ضيقة.. مفروشة بالسجاد العجمي، ويتوسطها صحن نحاسي واسع رصت عليه المدائع (النارجيلات) والمباصق والمباخر.. وجلس على المراتب عشرة اشخاص في حلل زاهية من الساتان المقلم صارخة الألوان، وتربع رب المنزل في مجلس يعلو عن مجالسهم، ووراءه سجادة تغطي الجدار، وكان شاباً ذا ملامح سامية بحتة، له لحية سوداء ويلبس حلة فخمة، وفي حزامه خنجر طويل من الطراز القديم في جراب من الفضة المحفورة.

لم يرفع نظره إليّ عندما دخلت.. ولم تصدر منه أية حركة للترحيب وقد سايره الجالسون جميعاً في هذا التحفظ، ومع هذا فقد ظل المكان الضيق خالياً ومعداً لجلوسي.. وفي مواجهة رب المنزل تربع المغني وهو رجل مسن فاقد النظر وقد حياني.. وأنشدنا ثلاث قصائد بمصاحبة دف كبير تحيط به الجلال، وكانت الوجوه الجامدة التي لاتحس ولا تتأثر ترقبني خلسة.. وعندما استأذنتهم لم أكد اتبين حركات رؤوسهم الخفيفة التي حيوني بها.. لقد أحسست في تلك اللحظات فعلاً بالشرق المحكم الذي لا يخترق ففي سنة ١٩٥٤م يمكن القول إن عهد الف ليلة وليلة مازال حقيقة واقعة في تلك البقعة من العالم.

أما الفقراء فلم يكونوا يتوجهون من أجل مرضاهم إلى العامل، فذلك غير مجد بدون شك.. ولكنهم كانوا يستوقفونني في الطريق، وتزداد طلباتهم عندما يرونني استجيب لهم وأذهب معهم، وكان عبده مترجمي يسهل ذهابي اليهم بينما يشكو بمرارة إذا ما تأخرت عن بيت من البيوت الكبيرة، ولم استطع تلبية كل الطلبات، وكان لابد من تنظيم عيادة عامة، وقد تم هذا سريعاً.

طلب مني عبده أن أقوم بزيارة امرأة فقدت عقلها في اليوم الذي غرق فيه ابنها في بئر وقد قال لي: (اني أعرف يا حكيمة، انك لاتستطيعين ان تفعلي شيئاً ولكن زوجها تعس جداً.. فاذهبي) وكان البيت متواضعاً، وقد أدخلوني حجرة طويلة خالية من كل شيء،

وفي أحد أركانها تستلقي المجنونة مدثرة بالأغطية.. رفعت الغطاء، فوجدت وجهاً معذباً بالهم والرعب، ونظرات شاردة استقرت علي فيما بعد، وقد قال عبده: إنها تنظر إليك يا حكيمة.. إنها لاترغب في رؤية أحد منذ مدة طويلة) ولعل مظهري غير العادي، وبدلتي الكاكي، وعيني الزرقاوين.. لعل كل هذا قد أثارهما في أعماق غيبوبتها، كما كان الروب الطويل والقبعة الطويلة يفعلان عندما كان أطباؤنا قديما يستعملونها للتأثير في مرضاهم.

والمعروف الآن ان هزة معينة قد تساعد في شفاء بعض الأمراض العقلية.. ماذا استطيع أن أفعل من أجلها؟ لما كنت لا أملك شيئاً فليس أمامي الا أن أمثل دور (الفقير) أخذت رأسها بين ذراعي وتحدثت إليها طويلاً، وباهتمام، باللغة الفرنسية، ولما لم يكن أحد يفهم ما أقول.. فقد قلت لها كل شئ يفكر فيه الإنسان ولايقوله.. واجتمعت الأسرة ورأي في نهاية الحجرة واستمعت إلى كلماتي باهتمام صامت.. وليس غروراً ولاوهماً إذا قلت ان هذا الوجه المعذب قد اصبح أكثر هدوءاً.. وتركتهم وقد استعادت من جديد نظرة الإنسان الحي.

وفي اليوم التالي انتظرني عبده وقال لي بسرور عظيم: (ان المجنونة قد تحسنت حالتها.. لقد نهضت وخرجت من غرفتها.. وذهبت بمفردها إلى دورة المياه.. وكانت قبل هذا لاتستطيع حراكاً) وقد فرحت الاسرة لهذا ووجدت أنه لابد من الاستمرار حتى لاتعود المسكينة من جديد تحت الكابوس وكان متعذراً علي أن أعالج مرضاً عقلياً بالإضافة إلى عملي اليومي، وكان الحل الوحيد هو أن أجمع مرضاي بجوارها، وقد قبل هذا زوجها راضياً وكان رجلاً طاعناً في السن ذا وجه طيب كريم.

إذن فقد كان علي ان أقوم بعمل كل يوم بجوار هذه المجنونة، وقد بقيت في ركنها المعتاد وأنا على جوارها، والمرضى مزدحمون في نهاية الحجرة يتقدمون الواحد بعد الآخر، ويستلقون أمامي، وقد أردت بصفة خاصة ان أجعلها تتقبل وجود شخص آخر معها، وان تقبل علي حد أدنى من الحياة الاجتماعية، وكانت تنظر إلى ما أمامها باستغراب.. وتعود إليها أحياناً مخاوفها وفزعها فتخفي نفسها من جديد تحت جلد الخروف.. وكان علينا ان نخرجها من تحته، وان نتحدث إليها، وما إن تهدأ حتى أعود إلى فحص مرضاي.. وكانوا رجالاً ونساء وأطفالاً: عللاً خفيفة، وأمراضاً مستعصية.. كل هؤلاء يدخلون ويخرجون ويمرون أمام هذا المشهد التعس.. ويبدو هذا الجانب المسرحي طبيعياً في هذا البلد.. وفيما عدا المجنونة، كل ماكنت أفعله كان لايجدي شيئاً.. فالعلاجات باهظة الثمن بصورة مزعجة.. وقد أخبرني الممرض أنه لايكاد يقدر على شراء العلاج الا خمسة من كل عشرين مريضاً وهؤلاء الخمسة لن يستطيعوا شراء العلاج مرة ثانية، ولن يجدوا من يشرف عليهم. وبالتالي لن يشفى أحد مهم بدون شك..

ماذا يتبقى من جهودي كلها؟ لقد تقدم مني طفل بعد عملي ذات يوم وكان يبدو في

صحة جيدة.. فسألت دهشة: وماحكاية هذا الصغير؟ وبحثت عن أمه بين الحاضرين، ولكنهم جميعاً ابتسموا، وقالت لي امرأة بلطف: (إنه يريدان يقبلك يا حكيمة) ان قبلة من طفل تبعد عن الإنسان القنوط والكآبة.

أعجوبة هذا البلد ان السلام يأتي دائماً بعد الحسرة والشدة.. لقد خرجت يوماً من البيت بعد جلسة طويلة، وكنت متعبة وأشد إرهاقاً من أي يوم مضى، ورآني رجل عجوز يجلس على الأرض أمام بيته، وكانت نظراته براقّة وهادئة حتى لقد توقفت مبهورة أمام هذا الشعاع كما يقف الأرنب أمام ضوء السيارة في الليل، قال لي هذا العجوز: (تفضلني.. وشاركني طعامي..) وقد أجبت عليه بأسف (لا أستطيع فلا يزال أمامي عدد من البيوت.. ولا بد من زيارتها).

فقال: (إذن سيرى والله معك..)

لم يكن مافي فمه وصفة عميقة.. لقد شعرت على الفور أنني قد تخلصت من التعب كله.. وقد أمضيت بقية النهار يخالجنى الفرح والرضاء.

وكان يتخلل عملي اليومي مشاهد مسلية تمدني بالراحة الضرورية، أجملها ماكان يقع في دكان طبيب مدينة ذمار.. كنت أهتم دائماً أن تكون علاقتي طيبة مع زملائي المطبيين اليمنيين، ولم يكن ذلك عسيراً، فيكفيهم أن أطبق في البيوت الكبيرة التي يترددون عليها القواعد التي ساروا عليها من قبل.. فقد كنت أحتفظ بما لا ضرر منه من تصرفاتهم.. وأعطية الأهمية الكبرى.. وبتكتم أضيف إليه العلاج الفعال، بل لقد كنت أطلب من زميلي الطبيب في ذمار، حتى أرفع من شأنه في نظر عملائه، أن يعطي بعض الحقن، أو أن يشرف على بعض المعالجات، وإذا تحسنت صحة المريض فإن كل واحد منهم سيكون سعيداً.

وطبيب ذمار كنت أعرفه، وهو عجوز قصير القامة عطوف بسيط، وعندما ذهبت لزيارته طلب أن أشرح له عملياً كيف يعاين الطبيب الأوروبي مرضاه.. وقد التف الناس حولنا أمام دكانه، وتقدم متطوع واستلقى أمامي، وكشفت عليه من الراس إلى القدم.. وكنت وأنا أشرح ما أقوم به بصوت عال، أتجه بذهني إلى أساتذتي الكبار أطلب عفوهم.. وقد لاقى فحص الأعصاب اهتماماً كبيراً عند المتفرجين الذين لم يبد عليهم الضجر وهم يرونني (أدغدغ) جلد البطن لأجعل السرة ترتفع إلى اليمين أو إلى الشمال.. ولا أدري إذا كان هذا يتفق تماماً مع الأفكار المتعارف عليها في كرامة الطب.. ولكن الحاضرين كانوا منتبهين ومهتمين تماماً كتلاميذتي في أحد مستشفيات باريس قبل سنوات وأنا أقوم بتمرينهم..

ولم تكن صورهم على العموم أقل من تلك التي نشهدها عند سكان ريفنا المنعزل.. أما رغبتهم في التعلم فلعلها أعظم.

... ولكن الأيام تمر والعامل لا يسمح لي بساعات قليلة اتجول فيها. وفي نهاية

الأسبوع لم أكن قد رأيت شيئاً من الأعاجيب التي وعدوني بها.. وقد أصموا آذانهم عن كل طلباتي.. وذات مساء أخطرت عبده انه يتعذر علي رؤية أي مريض قبل أن أزور القرية المسيحية، ولم أخرج في الصباح من غرفتي.. وكانت ساعات عصيبة بالنسبة لعبده المترجم المسكين الذي كان دوره شبيهاً بدور وكيل أعمال إحدى نجوم السينما المتشدات.. لقد كان ينظر بأسف إلى مقياس ضغط الدم الذي جعل ذمار كلها تأتي إلي.. لو أضربت عن العمل فإن عبده سيحرم من «البقشيش» الكثير.. وكنت استعمل مع المتنقلين جيئة وذهاباً بيني وبين العامل تلك العبارة الشرقية التي لا تغلب «بكره إن شاء الله».

واليمنيون يتقبلون بلطف ان يلجأ الإنسان إلى وسائل القهر الضاحكة التي تعودوها.. وفي نهاية الصباح أخطروني ان الخيل جاهزة.

توجهنا بموكب إلى هران.. وهو جبل بركاني صغير أسود يقع على بضعة كيلو مترات من ذمار، وكان معي بعض أعيان المدينة الذين سألتهم عن هذه الأطلال، وكانوا جميعاً متفقين أن سكان هذه القرية القديمة مسيحيون، ذلك لأن جنوب الجزيرة قبل انتشار الإسلام كان فيه جماعات يهودية أو مسيحية، واتفق هؤلاء الأعيان على تاريخ الانهيار قبل ألف سنة تقريباً.. إلا أن واحداً لم يستطع القول فيما إذا كان الانهيار بسبب صراع عنيف.. أو أنه انقراض طبيعي..

وقبل جبل هران مررنا ببناء عجيب يقع إلى اليمين.. سور ضخم من الرمل المقوى الذي يفصل بين مكان شبيهه بالساحة، وبين جانب قائم من صقع الجبل.. وهذه الصخرة قوس دائري، يعلو عمودياً ثلاثين متراً.. ويتصل بنهايتها سور طوله حوالي مائتي متر.. وارتفاعه ثمانية أمتار، وسمكه أربعة أمتار.. وسكان ذمار يعتبرون هذا السور قديماً جداً ومعاصراً لهذه القرية القديمة، ويمكن الدخول بتسلق عسير لإحدى نهايتيه.. وقد كانت هنا بئر في الماضي، ولكنها امتلأت الآن بالحجارة.. ولا يشك أحد ان هذا المكان المسور ما كان إلا حفرة يوضع فيها المسجونون، والهروب منه عسير، سواء عن طريق الجبل أو السور، خاصة والحراس يقظون.. ولكن من هو هذا الذي بنى هذا السجن البربري.. ولمن بناه؟ البعض يقولون إن المسيحيين هم الذين بنوه ليحتجزوا فيه الرهائن.. والآخرين يقولون إنه بني من أجل المسيحيين الذين اعتقل فيه آخرهم.. بعد خراب قريتهم.. ولا وجود لأية إشارة أو علامة على الصخور، ولعل المخطوطات اليمينية القديمة – إذا درست – تكشف لنا شيئاً عن هذا.

وعلى مبعدة نجد التربة مشبعة بمعدن الحديد الأحمر القابل للتفتت.. وقد كانت العربية السعيدة معروفة في ذلك الزمان بإنتاج الحديد.. إلا أن هذا المنجم ليس مستثمراً منذ زمان طويل.. ومازالت بعض حفر الاستخراج ظاهرة للعيان.. عشرات الأمتار عمقاً.. ونحو ستة أمتار طولاً وثلاثة اتساعاً.

وكانت شقوق موضوعة بعضها فوق بعض تستخدم كسلم.. وفي القعر فتحات لعدة

ممرات.. وقد ردمتها الأيام.

تركنا جياندا في سفح الجبل، وتسلفنا ممراً بين كتل الصخور البركانية السوداء، وتحدث بعض الصخور أصواتاً رنانة كالأجراس، وهذا يحير العرب كثيراً، ويظنونها فارغة جوفاء أو مليئة بالمعادن.

وعلى مساحة مسطحة تحت، القرية القديمة، التي كان فيها كما يبدو حوالي مائتي بيت لم يبق إلا ركام من الأحجار الخشنة غير محددة المعالم. ولعل الأحجار الصالحة قد اتخذت لعمارات ذمار.. وبقيت بعض الجدران التي شادوها بالحجارة.. وقد أروني المكان القديم للقرية.. وهو مساحة خالية.. فيها بركة مياه من الاسمنت الخشن الذي لا يزال واضحاً للعيان.. لم يستطع أحد أن يدلني على موقع الكنيسة القديمة.. ولا أدري ما سبب هذه الذكرى المخلصة. وتستند القرية على أكمة صخرية فيها فتحة كانت تشكل المدخل.. وعلى قمة هذه الصخرة الشامخة يقوم بيت عامل القرية أو عمدتها، ويميل الجانب الآخر للهضبة مباشرة إلى السهل الذي كان البيت موصولاً به بممر تحت الأرض.. ان تسلق الهضبة مرهق وشاق ولكن رؤية وادي ذمار تعوض كل ارهاق.. ويكون الجو في اكتوبر صحواً تنتشر فيه السحب الخفيفة، وضربات الشمس القوية.. وبيت عمدة القرية أو رئيسها مربع جدرانه كثيفة ومزال جزءاً منها قائماً وفي حالة جيدة.. ولعل السبب هو صعوبة نقل أحجاره إلى ذمار.. وعلى بعد أمتار من البيت.. يوجد قبر رئيسي مسيحي آخر.. انه قبر فقير.. فهل شهد الراقد في هذا القبر من قمة هذه الصخرة الشامخة تلاشي جماعته كلهم وانقراضهم؟ أم أن الحظ أسعفه ومات قبل أن يموت آخرهم؟ إن أحداً لا يعرف شيئاً عن هذا.. ويبدو أن هذا القبر المعزول الذي يشرف على هذه القرية ويواجه بلداً معادياً.. يبدو أنه يقوم بالحراسة والترقب، حيث لا يخلفه أحد. كانت لديهم فكرة غامضة عن هذا. أما الرفاق فقد احترموا صمتي. وقال لي أحدهم بكل بساطة : « إن الله يسبغ رحمته على المؤمنين جميعاً ».

لم يبق إلا أن أعود إلى ذمار حيث ينتظر زيارتي خمسة وعشرون شخصاً.

وأكثر الناس ثراء وأخفهم مرضاً هم دائماً الذين ينفذ صبرهم.

أما في اليوم التالي فقد أعدت الجياد لزيارة ذمار القرن.. وهي أيضاً إحدى قرى الضواحي، وتقع على قمة هضبة، وقد قال لي العامل إن مغارات كثيرة قد حفرت في هذه الهضبة التي كانوا قديماً يخفون فيها الكنوز.. فقد كانوا يدفنون الذهب في شق عميق محفور في أرض المغارة.. وعلى الجوانب فتحات يقف فيها العساكر لحراسة الكنوز.. وليس هذا في الواقع إلا خيالاً محضاً.. فهذه الكهوف لم تكن إلا قبوراً حميرية شبيهة بتلك القبور التي عرفت في اقليم بيحان في الجنوب.. وكان الحميريون موجودين في هذا البلد بين القرن الأول والخامس الميلادي، بعد السبئيين، وقبل الغزو الحبشي.. وكان دينهم يقول بتعدد الآلهة وتقديس الموتى.

وكان في ذمار القرن قبران اثنان من هذا النوع، نحتا في قلب صخرة على حافة الجبل،

وهما ممران ضيقان عمقهما يصل إلى بضعة أمتار، وفي القعر تبدو فتحة السرداب.. حيث تدفن الجثة، وعلى طول الجدران انتشرت حفر مربعة أقام العامل فيها عساكره.. يحرسون الكنوز المزعومة.. ولعلمهم كانوا يودعون هنا القرايين والتماثيل الصغيرة التي يندرونها.. ذلك لأن أطرافها الأمامية منحوتة في شكل قنوات صغيرة.. وعندما يفتح قبر للمرة الأولى، يجدون فيه تماثيل رخامية.. تمثل الآلهة أو أصدقاء المتوفي.. وتحت القرية مباشرة، وعلى مسافة صغيرة من القبو.. أشار مرافقي إلى موقع كهف مستدير، ولكن موسم الأمطار الذي انتهى كان قد ملأه بالمياه.. ولم نر إلا القبة التي تبدو في أعلاها أحجار مغطاة بنقوش وخطوط كثيرة..

وكانت زيارتنا في اليوم التالي لقرية «المواهب»، ولن أعود ألف سنة في جوف التاريخ كما عدنا في هران. ولا ألفي سنة كما فعلنا في ذمار القرن.. ولكن «المواهب» سترجع بنا مائتين وخمسين سنة. ففي حوالي ١٧٠٠ كانت هذه القرية مدينة حقيقية.. فقد كانت مقراً للإمام المهدي محمد.. وقد زاره في هذا المكان فرنسي هو المسيودي مرفي وكان يقود مركباً تابعاً لشركة الهند مكلفاً بحمل شحنة من البن.. ولكن الأمور تطورت من سيئ إلى أسوأ.. وللمرة الأولى، اشتبكت اليمن وفرنسا في حرب.. وقد ألقى المركب الفرنسي القنابل على ميناء «المخا» وكان الكابتن أول أوروبي في العصر الحديث يزور داخل البلاد.. وكان كتابه «رحلة في العربية السعيدة» الذي نشره في سنة ١٧١٥ هو الذي ألهم نيبور بعد خمس وعشرين سنة.

وقد استقبل مسيودي مرفي استقبالا ملكياً في قصر الإمام.. ومنذ ذلك الزمان لم يصل إلى هنا أي فرنسي أو أي أوروبي حسب معلوماتي.. وكان معه طبيب المركب وهو نابغة الطب المسيو لا مبارديير وبطل الكثير من الحوادث المزعجة الساخرة الضاحية.. وقد دعاه الإمام المريض لمعالجته، وذات ليلة استيقظ قائد السفينة وطبيبها على أصوات خشنة تستدعيهما على الفور إلى قصر الإمام.. وقد قطع الطريق في مرارة وضيق والعساكر يحيطون بهما، والطبيب المسكين يستعيد في ذاكرته تفاصيل المعالجة، والنوع الممتاز للعلاجات التي قدمها، ودقة الجرعات التي وصفها.. وكان يسأل نفسه : ماذا تكون نهايته لو ساءت صحة الإمام.. ؟ ولكن الإمام وهو في أحسن حال كان يرغب في حديث بسيط معهما، واليمنيون وهم يسهرون الليل.. لا يقنعون أننا ننام كثيراً في الليل..

وفي سنة ١٩٥٢ استدعي بروفسو جراح بمستشفيات باريس لمعاينة الإمام أحمد. وأثناء فترة العلاج أيقظوا الطبيب ذات ليلة بناء على طلب مستعجل من الإمام.. وكانت سيارة جيب مليئة بالعساكر تنتظره في باب دار الضيافة.. لتأخذه إلى القصر.. وكان البروفسور قلقاً وهو يسير في الظلام في واد مشؤوم، تحيط به الغدارات والخناجر، وكان يتساءل عما طرأ من أمور معقدة خطيرة.. وأدخلوه غرفة الإمام الذي قال له : «دكتور.. لقد كنا في حاجة إليك.. هل تعلم كم كلف فرنسا خط ماجينو ؟».

يقول مثل عربي قديم «الحكمة يمانية».. وأئمة اليمن لا زالوا كما كانوا منذ المهدي محمد.. ولكن المجد الغابر لمدينة «المواهب» لم يبق منه شيء.. فلم تعد «المواهب» سوى قرية متواضعة تضم قرابة مائة بيت فوق سطح يشرف على السهل، وفيها أربعمئة انسان يعيشون على حقولهم وقطعان ماشيتهم، وتبدو عليهم الصحة الطيبة. وقد أكد لي عمدة القرية ان الأمراض نادرة..

وفيها مدرسة بها خمسون طفلاً ولا تعين الحكومة مدرّسهم بل يعيش كما يعيش أمثاله في قرى اليمن المختلفة على ما يقدمه سكان القرية.. وكان أحد الأطفال يعبر الشارع وحقيبته على ظهره وقد رأيت لوحة الأردوازي ومصحفه، وهمس عبده، وهو يهتم دائماً بإظهار مزاياي، قائلاً : « اقرأي يا حكيمة ولو كلمة واحدة.. » ولحسن الحظ تبينت الكلمة الكبيرة «الله...» وقد أشرق وجه عبده كأشباح شابة استمعت إلى طفلها يحكي قصة.. وانتهت الزيارة وكان الجميع مسرورين.

كانت النساء ينزلن إلى الحقول وعلى رؤوسهن طعام الرجال، وقد رفعت احداهن.. وكانت جميلة طويلة وكاشفة الوجه.. رفعت غطاء الإناء الفخاري وقدمته لي بسرور.. ولكن البهارات كانت قوية فيه.

وانتهى الماء في زمزمتنا، وقلقت خطأ.. فالملح هو الذي يثير العطش، والعرب يشربون قليلاً لأنهم لا يكادون يضعون إلا قليلاً من الملح في طعامهم.. وعلى النقيض من ذلك فالبهارات لا تهيج العطش.. فما ان هدأت حرارتها في فمي حتى أصبح بارداً عذباً.

بقي علي أن أزور الجامع الذي يضم ضريح المهدي محمد.. ويقال إن هذا المسجد قد بني في مكان كنيسة مسيحية قديمة.. وقد سمحوا لي بالدخول بعد أن خلعت نعلي. وواضح ان البناء الحالي قد استعملت فيه أنقاض بناء آخر ولكني لم أجد أثراً لأية كتابة أو نقوش.

إنني أرغب في زيارة أضرحة الأئمة. وقد اعتمدت في هذا على طالب من زمار كان يزورني كثيراً في صنعاء ويسمع الأسطوانات ويتصفح الكتب.. ولكن الطالب كان خائفاً فطلب الأذن بهذا وقد حولوا الطلب إلى الإمام.. وهذا يعني انهم قد رفضوا.. وذات يوم كنت أتأمل هذا المسجد بأسف من أعلى منزل مجاور ولا يفصلني عنه إلا ميدان صغير، وقد شعرت بالدوار من هذا التعقيد المرهق، وخرجت من المنزل دون أن أقول شيئاً.. تركت حراسي الخمسة عشر، وعبرت الميدان بخطوات طويلة وعند الباب خلعت نعلي أمام الجميع، ودخلت، وفي دهشة وذهول فهم حراسي وأدركوا ما أريد.

ساحة واسعة مهجورة.. بركة.. مسجد على الطراز القديم.. ولكن البناء الذي يضم قبور الأئمة كان مغلقاً بالمفتاح.. وكان اليوم هو الجمعة وكنت أعلم أنه يفتح في هذا اليوم.. وظهر عبده والآخرين وظلوا في مكان بعيد..

وابتسم عبده ابتسامة كالحة وقال : «لا تفعلي هذا يا حكيمة، ارجعي.. » قال هذا بنفس

اللهجة التي توجه إلى حيوان أليف خرج من قفصه ولا يدري ماذا يفعل.. واستوضحت.. فقالوا إنه مفتوح يوم الجمعة للصلاة فقط... ولم يبق أمامي إلا أن ألبس حذائي وأعود.. وهكذا لم تعكر رقدة هؤلاء الأئمة نظرة أي أجنبي حتى الآن.

وبعد هذا الانكسار الأخير بدأت أفكر في الرحيل.. ودعيتني يوماً زوجة العامل الكبرى لحضور اجتماع نسائي فيه رقص وغناء.. وقد أقامت هذا الحفل تكريماً لي.. وكنت أحب هذه المناسبات ولهذا فقد كنت أعمل جهدي لأكون حاضرة في الوقت المحدد.. ولكن خطتي تغيرت رأساً على عقب هذه المرة.. ففي بيت من تلك البيوت التي يجد فيها الفلاحون المسافرين حجرة خالية من كل أثاث كان ينتظرنني خمسة عشر شخصاً جاءوا من قرية نائية سيراً على الأقدام طوال ثلاثة أيام يحملون إلي مريضة عجوزاً تعاقب الرجال على حملها بالنعش وكانت في حالة خطيرة فقد انتفخت وتضخمت بسبب التهاب جلدي وكانت تفرز المصل. لقد انتهت حياتها.. ولكن فلأخفف عنها العذاب بضعة أيام.

كان من العسير أن أتركها.. فالثقة والأمل والإخلاص الذي تجلى في أبناء بلدتها كل هذا غلني وأجبرني على البقاء في جوارها.. فوداعاً يانشوة القات المخدرة.. وداعاً للأغاني الرتيبة والرقصات الحلوة العذبة.. أما أنا فسأبقى أرقب المتقرب والمشرط والمصل الذي ينزف من جسم مريضتي.

ووصلت دار الحكومة وكانت المغنيات قد غادرنها وانتهى الحفل.. إلا أن النساء كن جميعاً باقيات.. ومن جديد حاولت دون نجاح أوقظ في نساء الحريم الغنيات بعض الاهتمام بالبائسات اللواتي نراهن هنا وهناك.. وفضلاً عن هذا فالقريب الذي تجرأ ويقص عليهن في صالون أنيق ما شاهدته في الضواحي الفقيرة أثناء زهرته الصباحية.. فإنه يكون غير مهذب، ولكنهن على أي حال انتظرنني.. وأخذت زوجة العامل توجه لي أسئلة واضحة محددة ومسللة منطقياً :

كم عندك من أطفال يا حكيمة؟ وكم عمر طفلك الأخير ؟ هل زوجك في صحة جيدة؟ وأنت أيضاً ألا ترغبين في مزيد من الأطفال وكيف تتحاشين ذلك إذن؟ فقد كن ينتظرن مني إيضاحاً لكيفية تحديد النسل، لم أستغرب هذا.. ولكنها كانت المرة الأولى التي تقوم فيها امرأة ذكية بجمع هذا العدد من النساء حولي للدرس.. والدين الإسلامي في هذا الموضوع له موقف أكثر اتساعاً من الكنيسة الكاثوليكية الحالية.. قالوا لي هنا : إن الله خلق الإنسان قادراً على تطعيم الأشجار المثمرة، وعلى تنقية الجياد الماهرة، فلماذا يمنع من استخدام عقله في تكوين أسرة صالحة ؟ ولهذا السؤال في مجتمع تتعدد فيه الزوجات أهمية خاصة، فالمرأة المثقلة بالأطفال تسرع إليها الشيخوخة.. ويسرع زوجها إلى الاقتران بامرأة ثانية، وتحديد النسل هنا كما في أي مكان آخر يزيد من الفرص لحياة عائلية متوازية، ولكن ماهي النصائح التي أقدمها لهن؟

لا جدوى من ذكر الأدوات الانجلوسكسونية لأنها غير موجودة، وطريقة أوجينو لا يشك

أحد أنها ضمنت تعمير فرنسا بالسكان ثانية، ولما كان بيت الماء يقدم لليمنيات إمكانات المعالجة الكافية بالماء فقد شرحت لهن أذن العملية بالرسم. لكن السيدات مرة أخرى بدت عليهن خيبة الأمل، لأن هذه الممارسة مرهقة، مرهقة جداً بالنسبة للشرقية المتراخية.. ثم شرحن لي أن الرجل وقد اقتضى حاجته مرة.. يتمسك بإطالة لذته ونشوته برفق وعلى مهل ولن يسمح بكل تأكيد للسيدة أن تتركه هكذا بسرعة.. لقد كن يردن دواء مكوناً من قطرات.. قطرات تتناول من الفم.. ويفضل أن يتناولها الزوج.. إذا لماذا يكون العلاج للمرأة.. وهناك رجل واحد هو المسئول..؟ والعلم الحديث للأسف لم يقدم لنا حتى الآن شيئاً كهذا.. وبناء عليه فإن الوقت السعيد لتحديد النسل لن يكون قريباً في جنوب الجزيرة العربية.

وكثيراً ما يدعوني العامل العجوز لقضاء السهرة بجواره.. وكان يستدعي المترجم عبده الذي لا غنى عنه عندما يصل الحديث إلى المسائل العامة.. وكان المفرج حجرة صغيرة وفوق مصطبتين مفروشتين بالوسائد يجلس الأطفال.. بعضهم نائمون وبعضهم الآخر يلعبون، أما العامل فلا يترك مجلسه المفضل المنخفض بين النافذتين.. ويضع على وجهه «المزوق» نظارة يثبتها بشريط إلى الأذنين، ويظل يدير جهاز الراديو ساعات طويلة بينما تتولى إحدى بناته تدليك قدميه.. يتحدث عن حياته بطيبة خاطر، وعن آرائه السياسية ولكن المدهش أنه لا يتحدث مطلقاً عن الله.

لقد عرف أوروبا في أيامها الجميلة، ولكن طوكيو مع ذلك ظلت مدينته المفضلة.. ولم يغادر اليمن منذ الحرب العالمية الأولى إلا لفترات قصيرة في مصر، ولكنه يرقب العالم الخارجي من خلال جهاز الراديو.. ويتنقل دون تعب من القاهرة إلى براوفيل، إلى لندن، إلى موسكو.. أما الإذاعة السعودية فإنه لا يستمع إليها لأنها في نظره كلها صلوات.

وإذا كانت روح العامل العجوز هي فعلاً روح القرن العشرين.. فإن عواطفه على النقيض من ذلك لا زالت عواطف سيد إقطاعي لا يقبل أي نقاش في سلطته المطلقة.. لقد استدعى أمامه ذات مساء أحد عساكره متهماً بارتكاب خطأ لم أفهمه.. وكان يصرخ عليه بغضب عنيف وبوحشية جعلت العسكري المنحني مغلوباً عاجزاً عن الحركة وفي نفس الأمسية أخطرني بلهجة لا تنتظر رداً أن الناس جميعاً في ذمار راضون عني.. وأنه قد قرر الاحتفاظ بي.. وقد أبرق إلى الإمام يطلب موافقته.. هل كان إخطاره لي بهذا القرار في نفس الليلة التي غضب فيها على الجندي مجرد توافق؟

لكن بيتي الهادئ، وجوادي الشجاع، وصديقتي الأميرة وصديقي المهندس وصنعاء التي أحببتها كثيراً.. لقد كنت مذعورة، فكلمة واحدة من الإمام تفقدني كل هذا، إن الإقامة في ذمار كانت شديدة الوطأة حقيقة.. لقد أصبح الجواد صعباً شيئاً فشيئاً إذ شعر أن اليد التي تمسكه غير ماهرة.. فقد كدت في نفس الصباح أقع بصورة مضحكة حين دار السرج.. وللخروج من هذا الوضع العسير كان علي أن أطلب مساعدة

عسكري لعين أشار إلى الذين حولنا في سخرية قائلاً: «إنه ليس رجلاً.. على كل حال»، وكان علي أن أخفي قلقي حتى أستطيع مواجهة الأمر.. حاولت أخطار المهندس بأسرع ما يمكن.. فهل أبعث له رسالة بالبريد؟ لقد بعثت إليه رسالة ولكنها لم تصل إليه إلا بعد شهرين.. وأنا على أية حال لا أفكر في هذه الوسيلة.. ولا أستطيع أيضاً الاعتماد على مترجمي عبده فهو يود أن أبقى هنا في ذمار حتى يظل قريباً من أسرته، ولا بد لي أن أجد الطريقة بنفسي.. وكانت نافذة بيت الماء تشرف على ميدان المدينة ومنها رأيت سيارة تقف وينزل منها السائق.. لقد كان صلاح سائق السيارة التي أقلتني من تعز إلى صنعاء عند وصولي.. ناديته بفرح عظيم ولعله أدرك ما يجري.. حينما خرجت من دار الحكومة بعد الظهر، كان صلاح ينتظرني في الصف الأول من الناس المتجمعين وقد وضعت الرسالة في يده دون أن يلحظ أحد ذلك وفي نفس المساء كان في صنعاء.

وبعد يومين استدعاني العامل وقال لي إن صديقتي الأميرة قد طلبت حضوري في أسرع وقت ممكن لأنها مريضة وأن صاحب الجلالة قد كلفني بالعودة إلى صنعاء بناء على ذلك.. تلقيت هذا بارتياح مصحوب بالأسف.. ذلك لأن عامل يريم وعامل رداع كانا قد استدعياي حتى لا يكونا وحدهما اللذين لم أزرهما، أما عن أميرتي العزيزة فلم أكن قلقة ولما كانت عودتي إلى صنعاء مؤكدة فقد أردت أن أواصل رحلتي بعض الوقت.. وقد تمنيت أن يصرحوا لي بذلك ولكني وجدت نفسي في الفخ الذي نصبته.

وفي هدوء واطمئنان اقتنصت الأيام الأخيرة.. فقضيت ساعات طويلة بعد الظهر مع نساء العامل في الحمام، وقد ذهبنا معاً وأنا ألبس الملاية اليمنية فلم يكن من المعقول أن أسير بالبنطلون كما لو كنت حارساً لهؤلاء السيدات المحترمات، عبرت شوارع ذمار إلى حي اليهود القديم، وكان في هذا الحي قرابة ثلاث آلاف يهودي ولكن باب الحي الخشبي القوي لم يعد يقفل الآن، بل يتشاءب ويحرق في البيوت المهجورة التي تنهار أنقاضاً وأطلالاً.. وقد ذكرتني هذه الشوارع وأنا أرقبها من خلال الحجاب الأسود بمنظر الجحيم في فيلم «أورفي» لجان كوكتو.

أخيراً أقمت في اليوم السابق لرحيلي حفلاً وداعياً لأصدقائي، ولما كانت دار الحكومة غير مناسبة فقد وجد لنا عبده بيتاً رحباً ودعا المغنية الضريرة العجوز واشترى القات ووجه الدعوات.

وقد سمحت لنفسني هذه المرة وأنا المضيضة أن أدير برنامج الأغاني على ذوقي.. فطلبت أغاني القات وهي التي تقوم مقام أغاني الشراب، عندنا، وتجيد المغنية من هذا اللون أغاني ساحرة تقول إحداها: «فليبق القات يمنحنا صفاء القلب، ويبقينا في بيوتنا هادئين مع أصدقائنا وعائلاتنا».

وإذا تأمل الإنسان الميل القديم للارتحال الذي جثم على قلب العربي قديماً فإن هذه الأغنية العربية المتمدينة تعطي إحساساً أفضل أيضاً.

وأحدث عن رحلتنا عائدين إلى صنعاء لأكمل الصورة التي رسمتها لزوجة العامل التي عادت معي.. كانت رحلة زاخرة بالتقلب المعتاد والتغير، ولم نكن مطمئنين إلى السيارة.. فقد كان لا بد من عشرين مزارعاً من إحدى القرى المجاورة سخروهم لدفع السيارة حتى تمكنا من الصعود إلى ذروة الطريق التي تفصل بين صنعاء وذمار.. أما في الجانب الآخر فقد كانت تنزل بنا بدون صعوبة لتقف بنا في قرية صغيرة قررنا أن نقضي فيها الليل.

كان الوقت متأخراً وكان نور مصباح الغاز ضئيلاً في القاعة الكبرى للأسطبل الذي تبیت فيه القوافل.. وقد بدت في الظل تبعاً الجمال والبغال والأكياس والطرود ووجوه الفلاحين التي تبدو عليها الدهشة.. ورتبنا مخيمنا في أعلى المنزل في حجرتين خاليتين من كل أثاث.. لقد سحرتني هذه الوقفة غير المتوقعة.. ولم أخف حماستي عندما رأيت زملاءنا يحملون مقاعد السيارة لنام عليها، وقد حدث في هذه الأثناء شيء غير عادي.. سمعت يمنية تنفجر ضاحكة.. إنها زوجة العامل تسخر مني بكل بساطة.. ومن بين قهقهاتها سمعتها تقول: «ما دمنا.. هكذا.. في أحسن حال.. فسنبقى هكذا..» إن للنساء الحريم ضحكات ساحرة ولكنها مكتومة مخنوقة، إنهن يقهقهن كالبنت الصغيرات حين يلعبن «الاستغماية».. لقد كانت تلك المرأة تضحك من أعماقها ضحكة امرأة حرة.. لقد سرنى أن أتركها وهي الجادة الباردة على هذه الذكرى.

واستأنفنا الطريق في اليوم التالي وقد قمنا بكل ما يمكن عمله لإصلاح السيارة ومع ذلك توقفت نهائياً على بعد عشرين كيلومتراً من صنعاء.. قرر زملائي أن ينتظروا في مكانهم.. ولكن الصباح كان جميلاً فأغراني أنا وعبدته لكي نقطع المسافة الباقية سيراً على الأقدام.. لقد أحسنا في السكون والشمس ورطوبة الصباح بالسعادة.. السعادة البدائية البسيطة.. نفس السعادة التي عرفها بدون شك كثير من قبلنا في هذه البقعة من الطريق وهم يرون صنعاء تبدو شيئاً فشيئاً في إطارها الجميل من الجبال العالية الجرداء.

ولكن زمجرة ميكانيكية جاءت من ورائنا فأفسدت كل شيء.. أنها سيارة عامل يريم الذي غضب لأنني لم أذهب إليه فجاء بنفسه ومعه زوجته المريضة.. وحتى لا أكرهه قبلت المقعد الذي قدمه لي.. واليمينيون ينتقلون بدون حقائب في العادة ولكن المرأة إذا سافرت فإن معنى هذا هو التعزير.. إنها تأخذ معها كل الوسائد الموجودة بالبيت.. وهكذا كانت عودتي إلى صنعاء أقل شاعرية.. ولكنها كانت مع ذلك زاخرة بالصبغة المحلية فقد دخلت صنعاء جاثمة فوق شحنة من الطرود وساقى متدلّية خارج السيارة، وأنا احتضن نارجيلة طويلة.

مناخة مدينة صغيرة بها ثلاثة أو أربعة آلاف نفس، تقع في قلب مرتفعات جبل حراز وتسيطر على أعلى نقطة في الطريق المباشر بين صنعاء والحديدة، وهي طريق قديمة وعرة وغير معبدة أو صالحة لمرور السيارات وغير مسموح للأجانب باختراقها لأنها تمر بأقاليم يقطنها أتباع المذهب الإسماعيلي الذين لا يعترفون بالسلطة الدينية للإمام.. وإذا كانوا يطيعون الإمام فإنهم يستطيعون أن يحدثوا له بعض المتاعب بمهاجمة الأجانب المسافرين.

ويمكن تفسير أغلب الاعتداءات التي وقعت على الأوروبيين في اليمن بالخصومات الناشئة بين القبائل ورغبة بعض هذه القبائل في اتهام بعضها الآخر بارتكاب الجريمة، ولهذا السبب لم يسمح الإمام لبعثة هج سكوت Hyghscott العلمية سنة ١٩٣٧م باختراق جبل حراز، أما هانس هلفرتس فلم يذهب في سنة ١٩٣٦م إلى مناخة إلا تحت حراسة قوية، وقد سبب له عدم انقياده أن أمضى وقته في السجن، ومن أيام هذا المكتشف الألماني لم يسمح لأي أوروبي بالوصول إلى مناخة، أما الطريق الجديد المار بحمام علي فهو حجة طيبة للرفض.. ويتحدث المؤلفون القدماء عن مناخة كقرية لا أهمية لها ولهذا فمن المحتمل أن تكون المدينة قد نمت في عهود حديثة نسبياً، ولكن المؤلفين جمعياً يتفقون في الإعجاب بموقع مناخة الممتاز فوق فج يشرف من عل على واديين.

وقد تملكنتي رغبة جامحة في أن أعرفها يوماً..

وفي يناير ١٩٥٢م أبدت هذه الرغبة لصديقي القاضي راغب فقال لي:

«ياطبيبتي العزيزة، لا تطلبي تصريحاً.. فمناخة ليست في منطقة صنعاء حتى يكون الأمر متوقفاً على سيف الإسلام الحسن.. لابد من الاتصال بصاحب الجلالة.. ولكني أعلم أن السيد محمد الهجوة عامل مفحق مريض في الوقت الحاضر، ولو خطر على باله أنك تودين القيام بهذه الرحلة لاستدعاك لفحصه بكل تأكيد.. ومفحق لا تبعد عن مناخة إلا يوماً واحداً.. ولعل الله يمكنك من اتمام الرحلة، ولكن العامل ليس غنياً وهو لهذا يتردد في دفع تكاليف الرحلة فطمئنيه.. ولا تكتبي إليه في هذا.. فهذه أمور لا يحسن الكتابة فيها.. ابعتي له رسولاً.. وحرر لي القاضي راغب كلمة صغيرة وتوصية

برسولي.

ولم يمر وقت حتى وجدنا رئيس الورشة الذي كان قد اشتغل في فرنسا قبل ذلك وقد أدرك تماماً ما أريد.. نفحته بمكافأة طيبة.. فذهب إلى مفحق وعاد بعد أربعة أيام ليقول لي إن صحة السيد محمد الهجوة قد ساءت وأنه قد التمس من نائب الإمام التصريح لي بالسفر في الحال.

وقد رأيت أن أتصل بصديقي أحمد الهجوة المستشار الشاب لنائب الملك فهو أيضاً ابن أخ عامل مفحق.. وهكذا حصلت على إذن بالسفر في أيام قليلة ولكن إلى مفحق فقط لا إلى مناخة.. وقد استمعت خلصة إلى مدير المستشفى وهو يعطي تعليماته المشددة إلى المترجم عبده ألا يتركني أوصل إلى أبعد من مفحق.. ولكن عبده بعد عام من العمل معي كان واثقاً أن حظي حسن .. ويقوي هذا البقشيش الذي يتناسب مع عدد أيام الرحلة.

وعلمتني التجربة في اليمن أن الإنسان يستطيع أن يفعل ما يشاء شرط أن يكون في صحبته جندي مسلح.. إنه أحسن جواز مرور يمكن أن يخطر على بال إنسان فيكفي أن يحول الحارس إلى حليف.. كان عليّ إذن أن أصطحب عسكري الخاص وبنديته.. وكان العسكري المكلف بحراستي اسمه حفظ الله.. كان قبيحاً ذا وجه صغير لطفل نحيف ضحوك وساذج.. قتل رجلين قبل الآن وخرج من السجن.. أما القتل الأول فلا أدري عن قصته شيئاً.. وأما الثاني فهذه هي القصة: انحل حمل حمار في أحد الشوارع وتدرجت الريالات وانتشرت في الطريق، أراد حفظ الله أن يساعد في جمعها.. فهل سرق منها شيئاً؟ اتهموه بالسرقة على كل حال، فغضب وطعن من اتهمه بالخنجر وحكم عليه بالإعدام.. أو يدفع مبلغ ألف ومائتي ريال لعائلة الضحية وهذا المبلغ يساوي مرتب هذا العسكري الشهري مائة وخمسين مرة، كما لو طلبوا من شخص يكسب في فرنسا ثلاثين جنيهاً أن يشتري حياته بأربعة ملايين ونصف من الفرنكات.

ولم يكن من اليسير الحصول على هذا المبلغ، ولكن حفظ الله باع مزرعته الصغيرة واكتتب معه زملاؤه وتجردت أسرته عن كل ما تملك وسدد الدية بعد سنتين فأطلقوا سراحه.. وعلى الفور جاءوا به يحرسني.. وقد يكون من المدهش الاعتماد على هذا القاتل في عمل كهذا يحتاج إلى الثقة، ولكن الإنسان في الجزيرة العربية إذا سدد ما عليه أصبح بريء الذمة خالصاً من كل مسؤولية.. فالعقوبة هنا أكثر عمقاً وكمالاً منها في مجتمعنا، ومن حيث غلظته فإنه لا يسحب وراءه طول حياته نوعاً من الإدانة التي لاتنسى.

لقد كان إذن طليقاً ولكنه بائس لا يضع على شعره المجعد سوى منديل أزرق قائم، وهو حافي القدمين لا يلبس قميصاً بل فوطة صغيرة حول خصره وسلاحه.. على العموم يستحيل أن يتصور الإنسان جندياً أكثر بوساً وحرماناً من حفظ الله.

بعد التحاقه بحراستي أضاف شيئاً فشيئاً إلى أمتعته رداء أبيض يمدده على الأرض

للصلاة عليه وسكيناً جديداً، وسترة نسوية من القماش الأسود والأبيض ياقتها من القطيفة.. ولهذا كله فقد كان يكنى لي كثيراً من التقدير والاعتراف بالجميل، وكان يحمل حقيبتى أثناء المشاوير الطويلة وما إن تقع عليه عيني حتى يمسك بهذه الملابس الجديدة ويقول ونظراته إلى السماء: «الله..».

ولكني لم أكن أوحى إليه باحترام عميق، فلم يكن يدعوني حكيمة بل فايق.. وهذه الكلمة قريبة من اسمي.. وهو مع ذلك اسم لطيف وعلى العكس كنت أسليه كثيراً.. وكان يردد بإعجاب كل كلمة أقولها وهو يقهقه..

وهو باختصار شخص نشيط تسيطر عليه عواطفه ولكنه يوحى بالبراءة حتى لقد كنت أشعر بالاطمئنان معه.

وكل ما كان علي هو أن أقدم له أحذية وكان هذا وحده كرمًا عظيمًا. فالعساكر قد تعودوا أن يقطعوا المسافات الطويلة حفاة الأقدام، بل لقد استأجرت له بغلاً صغيراً يحمل أيضاً أدوية ومواد غذائية.. واكمل عدد الحراس عندما انضم إلينا محمود خادم عامل مفحق الذي يأتي إلى صنعاء كل أسبوعين لشراء القات وقضاء بعض الحاجيات.

وقد فضلت أن امتطي ظهر جوادي الحجاب فهو أفضل الجياد ترويضاً وأكملها عقلاً.. ولما كان الجزء الثاني من الرحلة جبلياً فقد كنت أفضل لو كان معنا مطية أخرى.

وضعت أمتعتي الشخصية وأدوات نومي في حقيبتين من حقائب الأجهزة اللاسلكية التي يملكها الجيش الأمريكي في الميدان.. ولا أدري كيف وقعتا في يد صديقي المهندس.. وقد ثبتنا الحقيبتين على جانبي السرج الذي وضعنا فوقه أيضاً بطانية.. ولكن أحداً لا يدري كيف نضع هذا الحمل على هذا الحيوان النبيل الذي لا يحمل هنا في العادة إلا الرجال.

ولعلي أبالغ إذا قلت إن موكبي وصل إلى درجة الأناقة الإنجليزية ولكنه على كل حال كان مناسباً للحال.. وقد رفضت بشدة المظلة السوداء التي أراد عبده أن يزودني بها.. وفي صباح يوم بارد من أيام يناير بدأ سيرنا.. وكانت جريدة صنعاء الأسبوعية قد نشرت الخبر فلم يتأخر الناس عن الوقوف أمام بيتي لرؤية هذا المشهد.. وكان الركب يتقدمه الجواد ويليه البغل ثم الحمار ويأتي في الأخير حفظ الله الذي لا يبدو أنه مرتاح إلى حذائه الجديد.. وقد رافقنا عبدالله على ظهر الحصان «ريحان» ونحن خارجون من صنعاء.. وكان من الطبيعي أن يصحبني في الرحلة بدلاً من حفظ الله لولا أنه تزوج قبل أيام قليلة.. وقد تركنا عبدالله عند سفح الجبل في قرية عصر..

وبعد ساعة ونصف كنا قد صعدنا الجبل وفي الدورة الأخيرة توقنا قليلاً نودع صنعاء المنثورة تحتنا في السهل، كان الوداع مؤثراً فلم نكن ندري ماتخبئه لنا الأيام في هذه الرحلة، ومن هذه البقعة الشاهقة تهبط الطريق قليلاً قليلاً، مناخة.. وعلى يميننا حوض عميق من الاسمنت يستقبل مياه الأمطار التي تسيل من الجبال، وعلى يسارنا صخرة

كبيرة مدورة قد فتح فيها باب شبيه بما رأينا في قبور الحميريين في دمار، ولم نستطع الوقوف طويلاً.. فالناس في الجزيرة العربية يقطعون مراحل طويلة دون أن ينزلوا من على ظهر الجواد أو المظية، لأن الوقوف يفقد الحيوانات سرعتها.. ونحن مضطرون إلا نضع أقدامنا إلا في متنه التي لاتزال على بعد ثلاثين كيلو متراً.. وهكذا اجتزنا سهولاً كثيرة وطويلة تفصل بينها مرتفعات صخرية، وكان جوادي في الطرق المستوية وعند الصعود يتحكم في الخطوات القصيرة للركب كله.. ولكنه يفقد مزاياه عند النزول.

كانت المنحدرات الصخرية في بعض الأماكن مغطاة بقليل من الخضرة تكفي لرعي القطعان، وقد رأيت في الجانب الآخر من الجبل جرفاً باباً من الاسمنت قالوا إنه مكان تلجأ إليه قطعان الأغنام أثناء العواصف، والرعود والأمطار.. أما الحقول فلا تزال غير مزروعة.. وعلى بعد جثمت قرى عديدة على الروابي.. وكنا نرى المسافرين من قمم هذه المرتفعات وهم يسيرون في الطرق صغاراً كالنمل، وكانوا على البغال أو الحمير.. أما الجمال فقليلة لأن الطريق أصبح جبلياً بعد مسافة قصيرة.

وكانت جماعتنا الصغيرة مثيرة.. فقد كان من نلتقي بهم يقفون فجأة ويسألون من هذه؟ وإلى أين أنتم ذاهبون؟ وكان محمود يرد عليهم «إلى مكة» وقد نجحت هذه العبارة فظل يردد طول الطريق.. أما الذين يسيرون في نفس اتجاهنا فقد كنا نقطع الطريق معاً في حديث حتى يفارقونا في إحدى الطرق الجانبية.

وصلنا متنه بعد الظهر، إنها قرية صغيرة ليس بها سوى عشرة بيوت من الحجر.. كان أقلها بؤساً السمسرة المبنية من الطين.. وقد أنزلونا في الغرفة المخصصة للشخصيات الهامة، وكانت حجرة ذات نوافذ خشبية أربع بدون زجاج وتعلو هذه النوافذ عقود نصف دائرية من المرمر الشفاف وفي وسطها حصيرة سوداء وعلى جوانبها انتشرت المساند.. أما الرائحة فخليط من أقوى وأنفذ ما يتصور إنسان.. وقد وضع عبده في حجرتي الحقايب التي يحملها الحصان والبغل وكنت أود أن أتناول طعامي معه كما كنت أفعل في صنعاء ولكنه أفهمني أنه من الأفضل في السفر أن يحيطني بنوع من الوقار والأدب.. وقد قام على خدمتي قبل أن يذهب لتناول طعامه.

ومضى وقت قصير في صمت ووحدية ولكني كلما كنت وحيدة جاءت إلي النساء الريفات الفقيرات في خجل، وقد أرهقهن العمل وقضى عليهن التعب بسرعة وفي سن مبكرة ولكني أمام كل هذا لا أستطيع أن أفعل شيئاً.

قمت بعد الظهر بنزهة صغيرة إلى موقع قديم للحرس التركي يسيطر على القرية وقد خلا من كل شيء.. وفيه منصة للمدفع.. التقيت عند عودتي بمغن شاب متجول اتفقت معه على أن يأتي في المساء.. وكان هذا «النشاد» أو المغني في سن الخامسة عشر وهو يتابع تمرينه مع منشد معروف يقيم بالقرية المجاورة.. وقد أتقن أغنيات ثلاثاً ينتقل بها في جولات صغيرة ويتكسب منها عيشه.. جاءنا بعد صلاة العشاء..

وكان الليل قد أرخى سدوله...ومصباح الغاز الصغير المعلق على الجدار يرسل ضوءاً خافتاً على الجالسين في الغرفة...وهم زملائي في الرحلة وصاحب البيت وأولاده وخدمه وأصدقائه..وقد تربعوا على جوانب الغرفة...أما النساء فقد تجمعن على السلم خلف الباب.جلس المغني أمامي وفي يده الدف الكبير...وشعره المجعد يخفي جزءاً من عينيه الخجولتين...وعلى صدره العاري قطعة من الفراء...وفي حزامه خنجر كبير..كان يغني بسذاجة...وأصبح صوته شيئاً فشيئاً أكثر حرارة وبساطة وقد بدأ بالأنشودة التي لا غنى عنها..

وكانت عن قدرة الله..وأتبعها بأغنية لا تقل عن الأولى أصالة وهي أغنية امرأة تتعذب لأن حبيبها بعيد عنها..أما الأنشودة الثالثة فكانت تحكي موت سيف الإسلام محمد الابن الأكبر للإمام محمد الذي غرق في البحر الأحمر قبل عدة سنوات وقد كان كما يبدو أميراً عاقلاً وذكياً..فقد وقع صديقه الصغير الذي كان يحبه أعظم الحب في الخطر أثناء السباحة ذات يوم، ولم يتقدم أحد لإنقاذه..ولكن الأمير لم يستطع أن يقاوم نداءات صديقه الشاب فألقى بنفسه في الماء...وكانت المخاطرة جسيمة جداً فلم ينقذ صديقه بل مات معه.. وكان المنشد يغني هذه القصة برقة وعذوبة وحزن وأسى..أما الأغنية الأخيرة فقد كانت عن اغتيال الإمام يحيى.

قضيت ليلة ممتعة داخل كيس مقفل من الشاش الخفيف...وهو واسع إلى الحد الذي يستطيع فيه الإنسان أن يفتح ذراعيه أو يرفعهما فوق رأسه..ولا ينسى النائم أن يأخذ معه داخل الكيس الساعة ومصباح اليد الكهربائي وكتاباً للأرق...والكيس هو الحماية الوحيدة من البق والبراغيث أما الناموسية فلا تكفي للوقاية منهما.

وسافرنا في اليوم التالي في ساعة مبكرة..ولعل جوادي التعس تنبأ بأن الأخطار التي تعرض لها البارحة ستتجدد..فكان يتجه بقوة نحو صنعاء بطريقة محزنة...وبجهد كبير استأنف سيره.

بعد خروجنا من متنه وصلنا إلى واد لم يكن جافاً تماماً على جانبيه انتشرت مزارع الحنطة والذرة..لم تكن هذه المزارع عظيمة الاتساع ولكنها مرتفعة وخضراء..ورأينا فوق النهر جسراً له عقود ثلاثة بناه الأتراك قبل ستين سنة..وهو واحد من الأعمال الفنية الفريدة في اليمن، وقد حدثوني بإعجاب عنه قبل الآن..إذ بقي رغم عدم انتظام الحياة ورغم انعدام الصيانة...وقد أخبروني أننا دخلنا «بني مطر»..ووصلنا بوعان..وهي قرية صغيرة لا يسكنها أحد ولكن سوق تقام فيها الإثنين من كل أسبوع يلتقي فيها مزارعو القرى المجاورة...وفي القرية جرن للمواشي وخمسون عشة للبائعين..وانتهى «الحجاب» من التهام حفنات من السليق الخضراء ثم سافرنا دون أن نستطيع الانتظار وقتاً أطول.

أصبح الصعود شاقاً بين بوعان وسوق الخميس فالطريق التي شيدها الأتراك قد انتهت هنا..وقد أشرف السيف الحسن على توسيع طريق وصفها نيبور قبل مائتي سنة بأنها

أكثر الطرق التي مر بها وعورة سواء في اليمن أو في أي مكان آخر..وقد أشرفنا على واد عميق نشق طريقنا على منحدر صخري..ومن القمة إلى السفح في المنحدر المواجه قرابة ألف متر مدرجات عديدة ضيقة تذكرني بالمناظر التي رأيته في اليمن عند وصولي..كلها مزروعة بإتقان وقد برزت الأشجار والمنازل..لقد أحصيت أمامنا على الجانبين خمس عشرة قرية صغيرة متقاربة.

تعبت ماشيتنا وخف سيرنا، ولحق بنا رجل يسير مسرعاً على قدميه ويحمل حقيبة ضخمة...إنه عامل البريد المكلف بدورة طويلة...فهو ينتظر البريد الأسبوعي في صنعاء ثم يأخذه إلى مناخة في أسرع وقت ويعود إلى صنعاء يحمل إليها البريد المرسل ليلحق بالبريد المسافر التالي...كانت ساقاه جميلتين رياضيتين.وكان يسير كل هذه المسافة حافي القدمين..تعلق بسرج جوادي وظل متدلياً،وهو يخبرني أن لي في حقيبته رسالة من باريس حولها تلطفاً مكتب البريد في صنعاء.

ووصلنا سوق الخميس في الظهيرة فوجدناها أيضاً قرية موحشة مهجورة فهي أكواخ صغيرة ومكتب لا سلكي ومكان ينتظر فيه مبعوثو الحكومة الذين جاءوا لمقابلتنا..جلسنا في قاعة طويلة يحتمل أنهم يخزنون فيها العلف عندما لا يستقبلون فيها كبار المسافرين، وفي صدر القاعة أعدوا الفرش والمساند بجوار النافذة، وما إن وضعنا عليها غطاء السرج حتى أصبح منظرها مقبولاً. تبادلت التحية مع عمدة القرية وتلقيت الظرف الكبير الذي يضم بريدي..ولم يحدث أن فتحت رسائلي في جو أكثر بهاء وعجباً.

دخل الزوار حسب العادة وجلسوا على الأرض يتأملون في صمت..وأخذ عبده وقد انتفخ بالأهمية يشرح أن هذه الرسائل وصلت من فرنسا ويمر بهذه الوريقات على محبي الاستطلاع الذين يفحصونها طويلاً..وبعد الغداء لم أنعم بالقيلولة بل قمت بالكشف على الكثير من الذين التفوا حولنا، وقد تعقد عملي لأنني كنت مضطرة أن أسلم العلاج بنفسني فقد أودعوا لدي كمية وحددوا لي ثمنها في صنعاء ولم يسمحوا للمرضى بالسفر معي فكان علي أن أمسك الحساب وقد كلفني هذا جهداً وعناء.

أرسل لنا عامل مفحق بغلتين لي وللامتعة حتى نواصل السفر في هذا الجزء من الطريق الذي يصعب على الجواد السير فيه..وقد أمرت حفظ الله أن يمسك بزمام الحجاب الذي لا يحمل شيئاً فقد لا أجد في مفحق ما أواصل به السفر إلى مناخة.

إن مفحق تقع في نهاية واد عميق يفصل سوق الخميس عن مناخة، وكان علينا أن نهبط كل ما كنا قد سعدناه في طريق ضيق وعر..

وفي اليمن كما في أي بلد آخر يوجد نوعان من البغال: بغال نافرة تهرب من إسطبلاتها..وبغال أليفة تعود من تلقاء نفسها إلى إسطبلاتها، وكانت بغالنا من النوع الثاني..فقد كانت تسير بنا بلطف وخفة واطمئنان ونحن في هدوء نتمتع بالمناظر الطبيعية. وكان سحر الغروب يلطف قسوة الصخور القائمة الفظة..وقد رأيت أول

مزرعة للبن..وهي شجيرات قصيرة تحميها من أشعة الشمس القوية شجرة كبيرة بأغصانها العالية..

بعد ساعتين كنا قد هبطنا ألف متر ووصلنا قعر الوادي وبدأ الطقس فاتراً جداً،وأصبحت طريقنا مستوية رملية، والخضرة أكثر كثافة، وقد مررنا بقطيع من الإبل ترتع مع صغارها..وكانت الأمهات والصغار تقفز في مرح ولطف إلا أن السعادة العائلية لم تجعلها صديقة ودودة، فابتعدت عن قافلتنا الصغيرة وهي تزمجر زمجرة مشؤومة.

ورأينا مفتح..قرية واقعة في سفح مرتفع شامخ يعلو قرابة مائتي متر وحيدة في الوادي..وفي قمة هذه الهضبة يقع مقر الحكومة الذي سننزل فيه...وكنتم قد عرفت السيد محمد الهجوة وهو رجل قوي في نحو الستين من عمره...ولكن الوقت قد تقدم بنا في الليل فاكتفينا ببعض عبارات الترحيب ووجبة خفيفة وذهبت أتمتع بنوم هنيء وعميق..وكان اليوم التالي هو«عيد النصر» وهو أيضاً يوم الأربعاء..يوم السوق الأسبوعية للقرية لهذا فقد نزل العامل إلى القرية..وأضيت ساعات مع عائلته ثم تبعته..وقد ذهبت مع ابن العامل إلى مزرعة البن التي يملكها أبوه..وفي نهاية الوادي رأينا نبعاً يتدفق في بركة وسط غاب صغيرة خضراء...هناك ترتفع خمسون شجيرة من شجيرات البن تعلوها أشجار تحميها وتظللها..ولا يتعدى ارتفاع شجرة البن ثلاثة أمتار وتخرج أغصانها من أسفل جزع كثير العقد وإذا كان محصولها قليلاً فإنها تقطع تماماً وتنبت أغصان جديدة في الجذور.وتزرع الأشجار في صفوف منتظمة، ويعني بالتربة وتحث وتسقى، وقنوات الري تتفرع من مستودع رئيسي..ويحفر تحت كل شجرة حوض صغير..يملاً من وقت لآخر وتظل الشجيرة خضراء دائماً وتحمل أزهاراً وثماراً في وقت واحد إلا أن ثمة موسمين رئيسيين لتفتح الأزهار، وقد تكون ثلاثة وتبعاً لذلك يتم جني الثمار مرتين على الأقل.

وكانت زيارتنا في آخر يناير، ولم يكن ثمة أزهار، ويظهر أن الأزهار بيضاء وردية جميلة، ولكن الأشجار كانت محملة بثمار تتفاوت في نضجها بعضها حمراء نضرة..وبعضها خضراء.. وهي في حجم حبة الكرز وشكلها..وإذا طال بها الوقت أصبحت سمراء وبداخلها نواة مزدوجة:حبتان جنباً إلى جنب.

وشجرة البن تثمر بعد أربع سنين وتستمر هكذا ثلاثين عاماً..وحسب عمر الشجرة يكون التنوع ويكون الموسم مشجعاً أو غير مشجع..ومتوسط إنتاج الشجرة في السنة تسعون كيلو من الحبوب الجافة غير المفصولة من قشرتها، ولا يقشرون البن هنا عادة بل يصدرون الثمار كلها إلى الحديدية حيث تغربل وتفرز الحبوب من القشرة.

انتهت زيارتنا والتحقنا بالعامل وقد تشرفت بتناول طعام الغداء معه..وكان هذا هو الوقت الذي أبحث معه فيه الأمور المهمة..طلبت منه بغلاً تحملنا إلى مناخة..وتردد كثيراً قبل تسلمه رسالة أحمد ابن أخيه..فقد تساءلت هل كانت هذه الرسالة تحوي

تعليمات لمنعي من مواصلة السفر إلى مناخة؟ وكان من السهل أن أقول إنني قد فقدتها ولكنني لا أستطيع أن أعمل هذا مع أحمد.. وأعطيت الرسالة للعامل ولم أفهم شيئاً من تعبيرات وجهه ولكنه أخبرني أنه سيرد عليّ في المساء.

وبعد صلاة العشاء وصل الموسيقيون الذين قد اتفقت معهم.. وكانت الأوركسترا صفائح بنزين مفرغة.. ويقود الموسيقيين شيخ في سن السبعين.. طويل ونحيف.. ومعه عازف مزمار، وحامل دف.. وأخذ الجنود يرقصون على أنغام هذه الأوركسترا في ضوء مصباح كبير استعرناه من العامل الذي كان ينظر إلينا من شرفات داره.. أما ابنه فقد كان معي في صفوف المتفرجين الأول.. وكان الجنود يرقصون رقصات القرى المختلفة.. ولكنني كنت عاجزة عن إدراك الفروق الطفيفة التي يبدو أنهم يلمسونها ويرقبونها بابتهاج. وتلبية لرجاء الجمهور رقص قائد الأوركسترا بنفسه، ورغم أنه يابس متوتر فلم يكن مع ذلك مضحكاً بل لقد أظهر ظرفاً ووقاراً.

وينتهي هذا بإشعال النيران في أسطح المنازل فيصبون الكاز على الرمال المنثورة في السطوح ويشعلونها.. وقد ارتفعت أنوار اللهب على الجبل في مواقع لم نر بيوتها في النهار.. ولم أكن أتصور أن الجبل مسكون بهذه الصورة.. وكانوا حولي يشيرون إلى القرى المختلفة ويذكرون لي أسماء ولكنني كنت لا أرفع نظري عن مناخة!

وعند العشاء أخبرني العامل أن بغلته مريضة، وأنها لن تكون مستعدة للسفر، وقد توقعت هذا.. إلا أن الحجاب قد أظهر كفاءة في صعود الجبال فلماذا لا نواصل السفر بمفردنا؟

وفي آخر السهرة وصل رسول من مناخة يحمل برقية من صديقي المهندس يخطرني ألا أطيل الرحلة حتى لا أفقد زيارة محتملة إلى مدينة مأرب.. وكان هذا خبراً ممتازاً.. وقد أظهرت للعامل ضرورة الرد على هذه البرقية بأسرع ما يمكن.. ولن يكون هذا إلا من مناخة، وما إن لفظت هذا الاسم حتى وجدت العامل لا يسمع شيئاً..

تركت الدار بعد العشاء وكان العسكري حفظ الله متربحاً يقوم بالحراسة وما إن ابتعدت حتى تبغني بإخلاص.. وكنت أفضل أن أتجول وحدي في هذه الليلة الجميلة.. وفي كل مرة نسير منفردين أسمع حفظ الله يتنهد تنهدات عميقة ويسبح الله بهمة مضاعفة.. وكنت أتأثر جداً لهذا الورع والتقى ولكنني عرفت مؤخراً أن هذا هو الأسلوب الخفي الذي يعبر به الرجل المسلم أحياناً عن إعجابه العظيم بسيدة معينة فقد يقول: «سبحان الله» ويضمّر في نفسه «الذي أخرج كائناً جميلاً مثلك».. وعلى كل حال فإن حفظ الله هذا يرتل القرآن بصوت حاد منغم.... ومناجاة العظمة الإلهية تكمل تماماً مشهد السماء.

وتنطفئ الأنوار.. ويلتف حولنا العساكر.. وقد يكون هذا المشهد مبهماً أو ذا معان كثيرة في أي مكان.. أما في جبال اليمن فليس له إلا معنى واحداً.. إنه منظر شاعري رزين.. ليس إلا..

وقد حاولوا أن يعلموني الأسماء العربية لنجوم السماء وهي أسماء جميلة تليق بالنجوم. وأجمل من الأسماء الكنيية التي ذكرتها لهم.

كم كان استيقاظنا مقلقاً في اليوم التالي.. نزل جوادي «الحجاب» بصعوبة وهو يحمل عبناً ثقيلاً، ورأينا مفحق تبتعد دون أن نعرف ماهي مرحلتنا القادمة، فالطريق الرئيسي بين صنعاء ومناخة لا يمر بمفحق بل يبعد عنها كيلومترين تقريباً، ولعلمهم في مفحق قد رتبوا حرساً في الطريق يمنعنا من السير إلى مناخة ويرغمنا العودة إلى صنعاء.. وقد سألت نفسي وأنا أواجه الاحتمالات المختلفة.. هل أستسلم لهم ببغاء؟ هل أجا إلى المال؟ هل ألقى بالعسكري المرافق في العراك، أم أعود للتفاهم مع العامل؟

ولكننا عند تقاطع الطرق لم نجد أحداً.. وقد تبادلت مع عبده حينئذ نظرة انتصار طويلة وأدركت أنه كان يفكر مثلي في نفس المأزق، وسرنا في اتجاه مناخة ومعنا عامل البريد الذي وصل البارحة وكان مرشدنا.. وسار بنا الطريق في وديان عديدة وكنا ننتقل من واد إلى آخر ونتسلق أخاديد صخرية وعرة حفرتها السيول. وكان هبوطنا أقل من صعودنا وبهذا كنا نرتفع قليلاً حتى وصلنا إلى منحدر طويل شاق هو طريقنا المباشر إلى مناخة.. وقد خيبت الخضرة ظني، فهي ليست استوائية ولا وافرة النمو كما صورتها الأوصاف، ولكننا في نهاية فصل الجفاف وستعقب هطول الأمطار الخصوبة وفرط النمو الذي تغنى به المكتشفون الأوائل.. وكانت حولنا أشجار عالية، بينها أشجار السنط والحوائج والدرم، ولا وجود للأعشاب، بل أدغال كثيفة وأنواع غريبة من النباتات الشبيهة بالمتسلقة تغمر كل ماحولنا.

وتؤكل أوراق هذه الأشجار.. ولا تترك الغنز والقروء على الجذوع إلا الثمار التي تتدلى حبات صغيرة حمراء على الأغصان التي قد جردت من كل شيء...

وقد التقينا ببعض قطعان القروء التي ترسل صراخاً حاداً وهي تفر هاربة إلى الصخور العالية المرتفعة.. ورأينا ببغاء. كما أكد لي عبده أنه من الممكن أن نلقى النمر ولكنه يطلق هذا على الفهد الصغير.. هذا ما استنتجته على أساس الجلود التي عرضوها علي في صنعاء، ومررنا بمضيق محصور بين جبلين شاهقين قالوا إن جيشاً تركياً قد أباده اليمينيون هنا، وهو مكان مفجع يكرهه ساعي البريد، فقد سمع فيه عند مروره البارحة زمجرة مرعبة ولم يتحاش الجن والعفاريت إلا بترتيل التعويذات في الوقت المناسب! تناولنا طعامنا بالقرب من البئر الوحيدة في الطريق، وقد استعزنا دلواً من خيمة صغيرة لأحد الرعاة.. ولم يقبل حفظ الله أن يذوق علبة السردين التي فتحتها، فالصياد لا يليق به أن يأكل من طعام قانص مثله.. وتأججت رغبته في اصطياد قرد، ولكن أمله خاب عندما رفضت أن أقدم له الريال الذي يشتري به رصاصة يحلها محل رصاصة الحكومة.

بعد منتصف النهار، وصلنا إلى أسفل المنحدر العظيم لمناخة.. وعلى علو شاهق، على ارتفاع ثلاثة آلاف ومائتي متر تماماً استطعنا أن نميز البيوت البيضاء المتجمعة في

تجويف بين جبلين.. ويحتاج منا قطع هذه المسافة الباقية ساعتين كاملتين.. وقد رأى جوادي « الحجاب » هذا واشمأزت نفسه من القيام بدور البغل الذي عهدنا به إليه فانتهاز لحظة عدم انتباه حارسه ويقظته وهرب.. وبحثوا عنه وأنا أتناول قدحاً من القهوة القشر في كوخ الراعي الذي اتخذناه استراحة لنا في المرحلة الأخيرة من الطريق.

كنا كلما اتضحت المدينة أمام أعيننا، حل القلق محل الحماسة فلا ندري أي استقبال ينتظرنا، واتسعت الطريق واستوت واستطعت أن أمتطي الحجاب وأنا داخل المدينة.. والتقينا بالفلاحين العائدين إلى بيوتهم بعد احتفالات عيد النصر.. وكانوا يتوقفون ويتبعون خطانا، ولا أدري ما الذي أدهشهم.. هل رؤيتهم لحصان في مناخة، أم رؤيتهم لامرأة فوق جواد.. وقد أرشدونا إلى أحسن بيت ينزل فيه المسافرين.. وكانت الغرفة العليا التي نزلت فيها مريحة جداً.. وموثثة بالسجاد الأصيل وبالوسائد النظيفة.. وذهب عبده على الفور إلى العامل وعاد يدعوني إلى مقابلته.

اخترقت المدينة الصغيرة دون أن أرى منها شيئاً.. وكانت العيون الفضولية تحيط بي تماماً كما حدث في صنعاء عند وصولي إليها لأول مرة.. وقد آلمني ان أفقد شعبيتي، وبدا لي مقر الحكومة مشؤوماً.. مدخل ضيق ملتو يليه سلم مظلم، وكان العامل طويلاً طاعناً في السن قاسياً، قليل الشعر جاحظ العينين، ومظهره لا يشجع على الاسترسال في الحديث.. لم يرد على تحيتي بل فتح باباً ودفعني ولم أكد التفت حتى رأيته يجر عبده معه إلى الحجرة المقابلة ويقفل علي باب الحريم..

في الحريم! لقد شعرت وأنا طيبة، بالإهانة البالغة.. ان هذا ممقوت.. غير مقبول أبداً. لابد أن هانس هلفرتس كان قبل خمسة عشر عاماً يقفز في زنزانته في السجن فراراً من أضخم براغيث وجدها في حياته..

ولكنني في الحريم عانيت ألف قرصة موجعة لكرامتي.. لقد أسرعت إلى جوازي سيدة عجوز لطيفة هي ربة الدار، ولكن لغتي العربية تلاشت.. وقد قصرت جهودها في الحديث على بعض عبارات الترحيب القصيرة وبعد نصف ساعة فتح الباب وأدخل عبده وكان مرتبكاً ومبتهجاً وقد جرنني إلى الخارج وأخذ يهدىء روعي.

كان عبده بحذقه المعتاد قد اختار أفضل الحلول وهو ان يلقي بنفسه بين أقدام العامل ويعترف له أننا وصلنا بدون إذن.. وقد قال العامل انه يفضل الصراحة.. وانه لذلك سيستقبلني بما يليق.. وانه يود ان ينزلني في داره لولا أنه يعتقد أنني سأكون في الخارج أكثر ارتياحاً لرؤية المرضى.. وقال إنه سيدفع تكاليف البيت الذي سأنزل في حجرة من حجراته.. بل وانه سيدعو أعيان المدينة في المساء ويقترح عليهم إكراماً لي أن يحتفلوا مرة ثانية بعيد النصر.

كان هذا جميلاً جداً، وكان انتصاراً يدير الرؤوس، فعدنا إلى الفندق هذه المرة ونحن ننظر إلى المدينة وإلى سكانها بثقة ورضا.. ان مناخة مدينة جديدة بشهرتها فهي

مدينة مفتوحة لا أسوار لها، تجثم على حرف صخري ضيق يصل بين جبلين، ويكون ممراً عظيم الارتفاع بين واديين، وفي وسط المدينة شارع ضيق تحيط به البيوت الصغيرة وجنوب المدينة يرتكن على جبل وعر يتجاوز ارتفاعه ثلاثة آلاف وخمسمائة متر، وتغطي الثلوج قمته في بعض الأحيان، ومن القمة يستطيع الإنسان أن يرى البحر الأحمر . والمدينة تنبسط كثيراً في الجهة الجنوبية فنرى البيوت الشاهقة ذات الطوابق العديدة المزخرفة الشبيهة ببيوت صنعاء الكبيرة الجميلة، وترتفع هذه البيوت على مدرجات عديدة وبينها فواصل منتظمة جداً حتى ليخيل للإنسان أنه أمام سلالم كبيرة، ومناخة مدينة غنية في هذا الوقت لأن فيها التجار الذين يجمعون البن من مزارعه في الجبل ويبيعونه في الحديدية. وهذا هو سبب الرخاء الذي يرجع عهده إلى القرنين الأخيرين نتيجة لنمو تجارة البن.

أصبح الجمهور حولنا أكثر وداً وصداقة ولكنه متطفل، وقد تعب مرافقي من حمايتي من الزحام فأخرج حفظ الله خنجره ولوح به تحت أنفي وقال : «فايق. هل تريدان أن أحملك؟» وهو مسرور حين يمسك مقبض الخنجر ويلمع في عينيه لهب ينبغي أن ينطفئ سريعاً.. وقد تظاهرت بالرعب فأغمد خنجره واستعاد مظهره اللائق برجل كبير أراد ضحكاً ودعابة أن يخوف طفلاً.

وبمناسبة عيد النصر أرسلت من مناخة عدة برقيات تهنئة إلى صاحب الجلالة وإلى نائب الإمام في صنعاء وإلى وزير الصحة رئيسي وإلى مدير المستشفى وإلى القاضي راغب. هل كان هذا تبجحاً واستخفافاً؟ كلا إنه تدبير حكيم، فعندما يكون الإنسان مذنباً ويتعذر عليه إخفاء هذا الذنب فأفضل الحلول هو أن يتصرف كما لو كان يعتقد نفسه بريئاً وهذا يقلل من الخطأ ويسهل العفو.

كان استيقاظي في صباح اليوم التالي استيقاظ الظافر المنتصر، بقدر ما كان بالأمس مثقلاً بالقلق.. ويشرف الفندق الذي نزلت به على الوادي الواقع في الجهة الغربية.. نحو عبال. ومن غرفتي كنت أرى منظرًا رائعاً على الجبل، وتأتي مع شروق الشمس جماعات من الفلاحين يمرون الواحد بعد الآخر ويرقصون تحت نافذتي محاولين أن أظهر.. وكانت الرقصات بسيطة يقوم بها عشرة أو خمسة عشر رجلاً يحملون على أكتافهم العصي أو البنادق أو المظلات الواقية من المطر. واستقبلت بعض الزوار ثم توجهت إلى مكان الحفل ومعى عبده.

كان الحفل في الميدان أمام المدرسة. حضر جمهور كبير واتخذ العامل مجلسه في أعلى السلم وسط لفيف من الأعيان وأمامه صفان من العساكر يرقصون في ساحة الحفل.. ولم أكن أتوقع هذه الفخخة وهذه العظمة.. وقد شعرت ان الحوادث تسبقني، وأنا في العادة عالمية التفكير ولكني في تلك اللحظة تملكنتني عاطفة وطنية متأججة.. فأمام هؤلاء الناس الذين لا يعرفون الا الشيء القليل عن أوروبا وعن فرنسا كنت فخورة جداً أن أمثل أجمل مافي بلدي وأفضل مافي حضارتي من جوانب. ذلك هو الجانب الذي

يقوم على العمل والمساعدة دون الحصول على أي كسب سوى المكافآت العادلة المبذولة..

وفي أعلى السلم استقبلني العامل بحفاوة بالغة وكانت الألوان المتنوعة لحلل الحاشية وأرديتهم وعمايمهم لوحة رائعة مع حلة العامل الخضراء.. وتبادلنا التحيات وكانت مفاجأة سارة حين عرفت أنه قد أقام في باريس بضعة أسابيع قبل ثلاثين سنة.. ولعل هذا هو سر ترحيبه بي.. وبينما كان عبده يبدي فصاحته وبلاغته متحدثاً باسمي لاحظت بجانب العامل عدة أشخاص عرفتهم في صنعاء قبل الآن وقد شعرت لهذا بالارتياح. تقدمت الفصول الثلاثة للمدرسة، ومع الطلاب أساتذتهم الذين قرأوا علينا مافي أوراقهم من خطب، وقد بدأوا بالتحيات بترتيب كهنوتي معتاد..

الله أولاً ، ولصاحب الجلالة ثانياً، ثم للعامل ولكنهم حيوا الحكمة الفرنسية أخيراً.. وكان أسلوب الخطاب أدبياً إلى درجة لم أتمكن معها من الفهم. ثم بدأ الأطفال يرقصون في الميدان نفس الرقصات التي يؤديها الرجال.. وكان بينهم طفل يشبه ابني إلى درجة مذهلة، فلأولادي سمات شرقية ملحوظة جداً ويطلقون عليهم في فصولهم بالمدرسة «صينيين» وكنت قد بعثت إليهم في باريس بملابس يمنية كاملة، وأحمل معي دائماً صورهم بهذه الملابس.. عرضتها على العامل فكان التشابه مذهلاً ويصعب على أحد أن يفرق بين صورة ابني وهذا الطفل اليمني لولا ان الصورة أخذت لأبنائي على درجات بيت في ضاحية من ضواحي باريس.. لقد كان نجاح هذه الصورة مؤثراً وصاعقاً، ولم يمنع العساكر الناس الذين تجمعوا حولنا.. وقد تناولت الأيدي الصورة بين عبارات الدهشة والعاطفة. ابتسامات عند الجميع طيبة بسيطة صريحة وليس هناك ظل للنقد لأنني هجرت أبنائي مؤقتاً فقد كانت حياتي هنا حياة رجل، والعرب يعرفون ان الحب الأبوي الخالص يمكن أن يتلاءم مع الفراق القصير.

دعاني العامل بعد هذا للغداء لكن الحاج علي حبيش تمسك بالمشاركة في شرف استقبالي، فسحبني إلى بيته في زيارة قصيرة.. وعلي حبيش هو أغنى تجار اليمن في مناخة وهو واحد من أغنياء اليمن.. مرح محب للاستطلاع، نشيط وذكي. ويكفي أن تراه لتدرك مدى نجاحه في الأعمال. كنت أعرفه جيداً، فقد أحضر كثيراً من المرضى إلى صنعاء.. وهو يقيم في دار رائعة تقع في الجهة الشرقية للوداي.. وما إن اجتزنا العقد حتى دخلنا في سلالم وردحات وقاعات شبيهة بمثيلاتها في أفخم دور صنعاء. وكان المفرج العلوي كله مؤثلاً بالسجاد القديم ذي الألوان الحلوة اللطيفة وبالوسائد الجميلة، وفي وسط الحجرة صينية نحاسية مغطاة بالطنافس المعتادة ولكن كل شيء مختار أحسن اختيار.

كانت لؤلؤة الدار الصغيرة أنيسة أخت زوجة رب الدار وهي في سن الثانية عشرة.. وكان يدللها أكثر من زوجته، ومن العجيب ان الملابس والمجوهرات التي زينت بها لم تجعلها تفقد سحر الطفولة وجاذبيتها. وبينما كانت تقدم لي المرطبات غاب علي حبيش

ليرتدي قميصاً مشجراً بالذهب، وكم أنا نادمة لفقدان الصورة. وقد أحضر بعد هذا كنزهِ وهو صندوق صغير من الخشب مطعم وملبس بالنحاس ومرصع بالمسامير. وكان يضم نقوداً نادرة وقديمة وقد قدم لي هدية.. واحدة منها.

أما بيت العامل فعلى النقيض من هذا، يبدو فقيراً وموحشاً. إنه مقر حكومة في القرون الوسطى، ليست فيه نوافذ زجاجية كبيرة، وحجراته مظلمة وخالية من الأثاث تقريباً، استقبلني العامل على انفراد أولاً. وهو ينتمي إلى أسرة قديمة جداً يجد فيها أئمة اليمن أكثر خدمهم إخلاصاً. فقد كان أخو العامل وزيراً للإمام يحيى واغتيل معه. وأحد أبناء أخيه هو الآن وزير عند الإمام أحمد، وأقاربه كلهم يحتلون مراكز هامة. ويتباهى آل العمري بالاستقامة المطلقة، وهذا يفسر البساطة في حياتهم. ومن تقاليدهم العائلية أيضاً الزواج من امرأة واحدة مهما كانت الخيرات والنعم التي يعطيها الله للعائلة.. وهذه صفة تستوجب الاحترام لندرتها هنا..

والعامل العمري من المدرسة القديمة ولهذا فما انتهى الحديث عن ذكرياته في فرنسا حتى تركني مع النساء للغداء.. وكانت الوجبة متواضعة كما كان الوسط متقشفاً.. وكانت ربة البيت هي التي تقوم بخدمتنا.. اقتنصت زوجة علي حبيش الغنية التي كانت مدعوة أيضاً الفرصة حين أدارت ربة الدار ظهرها، وهمست في أذني قائلة : «مسكينة».. ان الأصدقاء هم الأصدقاء في كل مكان ولكن جلسة القات التي تلت وجبة الغداء أنستنا هذا التقشف وهذه البساطة في الطعام.. فقد كان القات من الصنف الممتاز.. قطف قبل ساعة لا أكثر، بأوراق طرية وطازجة، وكانت زوجة العامل توزع أغصان القات بكرم وسخاء على من حولها. ومن كل جانب تلقيت باقات صغيرة من الأوراق الممتازة النظيفة.

وفيم يكون الحديث إذا لم يكن عن الأطفال، وعن تعاسة النساء؟ وقد أرادت سيدة الدار أن ترى صور أبنائي.. ووجهت لي بحزن هذا السؤال: «وفي فرنسا يا حكيمة، هل يولد الأطفال ويموتون.. ويولد غيرهم ويموتون أيضاً.. وهكذا دائماً؟».

لقد كان لهذه السيدة سبعة عشر طفلاً. كلهم ماتوا قبل أن أن يصلوا سن الخامسة، ودون استدعاء طبيب واحد للعناية بهم.. ومع ذلك فلم يتزوج العامل غيرها.. وهذا يفسر الملل الهادئ في حياة هذين الزوجين الوقورين الذي نجم عن المصائب الكبيرة. وقد استعنت بالنسبة المنوية عندنا في فرنسا فوجدتها منخفضة جداً جداً عنها في بلاد اليمن التي يرتفع فيها إلى أرقام مذهلة مخيفة فتصل وفيات الأطفال إلى أربعين في المائة في السنة الأولى وإلى خمسين في المائة قبل سن العاشرة.. وتتأوه النساء في استسلام ويرددن: «كله من الله». هل أقول لهن : إن هذا يتوقف على النظام الصحي، على الأطباء وعلى العلاجات ؟ ما فائدة هذا، مادامت الأدوية معدومة والأطباء لا وجود لهم وليس هناك من يعلمهن الطرق الصحية؟ وقد يكون جوابهن على أن هذا كله أيضاً من الله.. لا بد إذن من شيء آخر للخروج من هذه الحال.

تركت دار الحكومة وكانت الشمس قد مالت للغروب. أمسكت قبعتي في يدي، ولكن أحد الجنود - وقد فوجئ بهذا المنظر - أشار إليّ أمراً أن أعطي شعري. وفي الفندق، في الغرفة التي ينزل فيها رفاقي كان الجالسون في غاية الانسجام، ومن خدودهم المنفوخة، ومن كثافة الغصون المستعملة الملقاة على الأرض وجدت ان القات هناك أيضاً كان موجوداً، وكان ذلك الإفراط راجعاً إلى سخاء حارسي حفظ الله فقد نظمت البلدية بمناسبة العيد مسابقة في إطلاق النار بعد الظهر، ولم يستطع صاحبي حفظ الله أن يقاوم رغبته وهو الماهر الحاذق فباع حذاءه الجديد بريال واشترى رصاصة ورجح الجائزة الأولى وهي خمسة ريالات و دعا الصاحب جميعاً.. وكان القات خارقاً للعادة.. وقد أخذت بدوري «كيفاً» احتجب بعده إلى ربع ساعة من الوحدة والانسجام، والكيف كلمة لا يمكن ترجمتها إلى لغاتنا الغربية، وهي حالة نادرة يكون الإنسان فيها متجلباً سعيداً في آن واحد.. ربع ساعة لا أكثر فالمرضى ينتظرونني وقد دامت مقابلي لهم إلى الساعة العاشرة مساءً.

والحقيقة تفرض عليّ أن أقول إنني لم أر في مناخة فيما عدا جمال موقعها شيئاً غير عادي فلا أديرة ولا وجود للرجل الكلب.. ولا أي ظل للخصيان، وأنّي أترك شرف الحديث عن هذه الأشياء للرحالة الوهمي المتشامخ الذي ذكرته صحيفة فرنسية مسائية في مقال نشرته في يناير سنة ١٩٥١م ولعله يتمتع بعيون خارقة فقد أرى أيضاً كما ذكر في مقاله هذا أسوار مأرب العالمية التي وصفها أرنود في سنة ١٨٤٠م والتي هي الآن أنقاض وحطام كما تشهد الصور التي التقطتها لها.

لم أر في مناخة إلا مرضى.. مرضى فقط كما في كل مكان من اليمن رجالاً ونساء وأطفالاً، والنساء يرتدين ثياباً كنيبة، وهن ريفيات عاديّات لم أر بينهن حورية خفيفة ساحرة كتلك التي رأيتها في حمام صنعاء أو كالفاتة الشريفة التي رصعت أنفها بالذهب، أما الرجال فممتازون، إن وجوههم حلوة كرجال صنعاء وقامتهم أطول كثيراً .. متر وخمسة وسبعون سنتيمتراً أو ثمانون سنتيمتراً، ويرتدي العساكر والرجال القادمون أحياناً بدلاً من القميص ثوباً صغيراً طويلاً الأكمام يصل إلى فوق الحزام ويقفل حتى الرقبة بأزرار هي في الغالب منزوعة أو مفكوكة والقماش من الساتان الأسود أو المقلّم بألوان فاتحة صفراء أو خضراء أو حمراء.

ولهذه الملابس المحكمة الضيقة اللامعة التي تفتح فوق الخنجر على صدور ملساء بارزة العضلات رائحة زكية فواحة.

هذا القوام الممتاز لرجال مناخة يرجع بلاشك إلى الحالة الصحية، الطيبة التي أكدها بأسى وألم الطبيب اليمني في المدينة، فلا وجود في مناخة للملاريا « حمى المستنقعات» ولا للدسنطاريا، بل ولا للسّل الدرنى فمن بين خمسين مريضاً فحصتهم لم أجد أحداً مصاباً بمرض خطير، إن الأمراض الجرثومية قليلة جداً، ولكن الأمراض المتصلة بأداء الأعضاء لوظائفها كثيرة كما في كل مكان تكون فيه الحياة صحية

وبسيطة ولكنها مملّة.

وفي اليوم الثاني تلقيت جواب الأمراء على برقيات التهنة بالعيد..

واعتبرت هذا الجواب الشخصي السريع بمثابة العفو، وقد يفضل الإنسان عدم الاهتمام بالإساءة حتى لا يبدو في موقف الشخص الذي أسىء إليه، وقد سر عامل مفحق وعامل مناخة بهذه البرقيات فقد كانت تزكية، وغفراناً لهما أيضاً لاستقبالهما الودي لي، أما عبده فقد كان أقل اطمئناناً، ففي اليمن كما في كل مكان لا يجهل من يحملون وزر خطايا غيرهم دورهم الهام في المجتمع.. وكان عبده يهتم كثيراً بالمحافظة على برقيات الأمراء ليحتمي بها، وقد أسر إليّ أنه رغم كل شيء يخشى أن يودع في السجن مكبلاً بالحديد، وقد أكدت له أنني في هذه الحالة لن أخرج من بيتي حتى يطلق سراحه..

وقد غادرنا مناخة إلى صنعاء على ظهور البغال التي استأجرها لنا الحاج علي حبش، وأنعش عبده عودتنا بالحديث عن مغامراته، ففي خلال أربعين سنة قضاها في البحرية كان قد ذهب إلى كل مكان تقريباً.. وأثناء فترات الاستقرار التي تفصل رحلاته المتقطعة اشتغل عاملاً في الولايات المتحدة وفي مناجم فرنسا، وتاجراً للخضروات في هايتي ولكنه كان دائماً يحتفظ باسمه كوقاد ممتاز في قوائم وكالة البواخر حيث كان أبوه مسجلاً بها قبله، وعندما كان يمل الحياة المستقرة كان يجد سريعاً الفرصة لسفر جديد. وكان عبده هذا محدثاً لبقاً يتمتع بكل مواهب الراوي العربي، وكانت نظرفته إلى الأشياء عادلة وشاعرية وزاخرة بالفكاهة في وقت واحد.. كالحياة نفسها.. وحينما كان يصف لي شيكاغو كان أمامنا في الطريق راع يعزف على مزماره الأنغام التي يتصورها الإنسان على شفاه الرعيان في كل زمان.. وقص عليّ غرق سفينة مستشفى ضربت بالقنابل بين كورسيكا وإيطاليا ونحن على عتبة باب أحد الفلاحين نرشف أقداحاً من اللبن المراب البارد الذي تفوح منه رائحة البهارات والتوابل الحلوة.. وهكذا يبدو عالمنا المتحضر في عيني بحار عربي عجوز يتمتع بالحيلة والدهاء، هنا في أغوار القرون الوسطى.. إن هذا لا يحدث كثيراً..

قبل مولد المسيح بقرن من الزمان تكلم المؤرخ اليوناني ديودور الصقلي Diodore de Sicile لأول مرة عن مملكة سبأ التي كانت تشغل جنوب الجزيرة العربية قبل ممالك الحميريين، وكانت تجارة البخور سبباً من أسباب ثرائها الفاحش، وكانت عاصمتها مزدانة بالمعابد ذات الأعمدة المربعة، وكانت تيجان هذه الأعمدة من الذهب والفضة، وحكمت سبأ ملكات منهن بلقيس التي جاءت قبل ألف سنة من الميلاد لزيارة الملك سليمان، وكانت السدود الضخمة المنظمة للسيول تؤمن الخصوبة للبلاد، وقد أصبح كل هذا فيما بعد أطلالاً وانقاضاً، ويظن أن بقايا العاصمة القديمة موجود في مأرب المدينة الصغيرة الواقعة في أطراف الربع الخالي أو الصحراء الكبرى في جنوب جزيرة العرب، وفي مأرب قبائل بدوية مستقلة وشرسة ومصممة على الاستئثار بما في أرضها من كنز، وعلى أن تمنع وصول أي إنسان إليه، ومع ذلك فقد نجح أرنود

الفرنسي في الوصول، كان أول من وصف معبد بلقيس والسدود القديمة، وعاود بعده الاكتشاف بعض المغامرين إلا أن زيارة الأطلال ظلت ممنوعة حتى حصل وندل فيليبس الأمريكي في سنة ١٩٥١م على تصريح من الإمام للقيام بعمليات الحفر والتنقيب خلال سنة.

ولم يكن لدى وندل فيليبس رأس المال الكافي للقيام بهذا العمل الهام ولهذا فبعد أن وضع في مأرب الدكتور جام Jamme الأخصائي في كتابات جنوب الجزيرة العربية عاد إلى الولايات المتحدة الأمريكية ليقوم بسلسلة محاضرات بقصد الحصول على المال اللازم لتمويل البعثة.. وقد عاد إلى اليمن في شباط « فبراير » ١٩٥٢م ولكن الحال لم تعد مشجعة له لأسباب مختلفة فقد رفض الإمام أن يجدد معه العقد الذي كان مشرفاً على الانتهاء وتركت البعثة وراءها أدواتها ومهماتهما واضطرت للرحيل، وفي مارس ١٩٥٢م استعدت بعثة يمنية حكومية لجرد ما بقي في مأرب، وقد التمتست التصريح لي بعضوية هذه البعثة فأجاب الإمام طلبي قبل قيام الطائرة بساعتين..

لا توجد طريق صالحة للسيارات بين صنعاء ومأرب، بل تستمر الرحلة على ظهور الجمال أو البغال أسبوعاً، أما الطائرة فلا تتجاوز ثلاثة أرباع الساعة، ويمتد تحتنا إقليم مقفر يختلف كل الاختلاف عن الجبال الخصبة في الجنوب أو في الغرب، وكلنا توغلنا في قلب الجزيرة العربية أصبحت التضاريس منبسطة تشكل سهلاً أثر في التآكل والانقراض، ولكنها تنتعش أحياناً في صورة براكين حديثة وتبدو فوهات البراكين واضحة من الجو .. تاج من الصخور السوداء، وسطها مفروش بالرمل الناصع شبيهة بالبراكين الخاملة في أوروبا.

وفي الدقائق الأخيرة.. كانت الصحراء تمتد إلى الأفق مساحة واسعة صفراء بعد المنحدرات الصخرية القائمة، ومدينة مأرب تقع بعيداً عن الرمال وترجع أهميتها في الوقت الحاضر إلى سوقها التي يتوافد إليها البدو، وإلى القوافل التي تتجه منها إلى صنعاء حاملة الملح المستخرج من المناجم المجاورة، وتعود بمختلف الحاجيات الاستهلاكية.

هبطت بنا الطائرة بمخاطرة في مدرج لا تتوافر فيه المقاسات اللازمة، ونزلنا وسط جلبية قوية، وكان معي اثنان من الأوروبيين أحدهما الطبيب الإيطالي البروفسور جيرولامي وعالم الآثار الفرنسي المسيو بارثو الذي أعطاني فيما بعد معلومات ثمينة، ولكن أحداً لم يلتفت إلى جماعتنا الصغيرة بجانب شخصية الأمير الحسن الذي يرأس لجنة التحقيق، فقد أسرع إليه رؤساء الإقليم يحيونه وكان حرسه يبعد الجمهور من حولنا وكان الرجال يلبسون ثياباً مصبوغة بالنيلة الزرقاء القاتمة أو الفاتحة وقد امتصت بشرتهم مع مرور الأيام هذه الصبغة واستحقوا أن يُطلق عليهم لقب البدو الزرق، وجاءت البغال والخيال والجمال تنقلنا إلى المدينة التي تبعد حوالي عشرة كيلومترات.

لابد أن أذكر حادثاً عرضياً هنا.. فقد نصحوني في صنعاء مراعاة للأمير الحسن المتعصب ألا أرتمي البنطلون المناسب لركوب الخيل، بل أن ألبس الفستان الذي يتفق مع الحشمة والوقار، وكان فستاني ضيقاً للأسف، فلما حضرت هذه الخيل والبغال وضعتني في مأزق حرج.. فهل تدخل الأوروبية الأولى إلى مأرب سيراً على الأقدام وتفقد ماء وجهها؟ أم تدخل على الجواد؟ مرت فترة وأنا حائرة مترددة وقد أخذ زملائي الذين لا يمتطون الخيل حميراً وبغالاً.. وركب اليمينيون الجمال، ولكن واحداً في الحرس كان يعرف عادتي في صنعاء.. أحضر لي جواداً أود لو أمتطيه في وقت غير هذا.. ولم أجد أبداً من أن أركب وأعدو مسرعة في الطليعة.

ومأرب تقع على رابية صغيرة وتسيطر تماماً على السهل.. وكان علينا أن ننزل في دار الحكومة.. خارج المدينة قليلاً، ويرجع تاريخها إلى العهد التركي، إن أسوارها من الصخور الكبيرة البيضاء المزينة بخطوط صارمة سوداء ولكنها جميلة.. وفي الزوايا أبراج للحراسة أما الباب فتحميه قلعة تدل على أن أولئك الذين يحتلونها لم يكونوا مطمئنين إلى السكان المجاورين..

ووقف صفان من العساكر لاستقبالنا، وعلى الطريق جماع من الجنود يلتفون حول مدفع يرسل الطلقات تحية لوصول نائب الملك على ظهر بعير أبيض محاطاً بالعساكر الذين ينشدون الزامل.

وتبعنا الأمير إلى دار الحكومة، وفي الساحة بناية يتقدمها سلم خارجي أصغرها وأعلاها وأكثرها هواء ونوراً.

جاءنا جندي مثقل بالخناجر يقدم لنا أقذاح القهوة في همة ولطف ووقف ثلاثة جنود أمام حجرة الطعام يقومون بدور السفرجية، حمل أحدهم الصابون، وحمل الآخر المنشفة وأخذ الثالث يصب الماء فوق صفيحة من النحاس، وجلست البعثة كلها فوق حصيرة من القش وتناولنا وجبة ممتعة، وكان البروفسور جيرولامي وحده وهو الذي لم يتعود تناول الطعام بيده..

ولكنه والفرخة في يده أوضح لنا بأناقة وإتقان أنه من السهل أن يعود الإنسان إلى حالته الطبيعية.. وتقرر بعد الغداء أن نزور الأماكن التي وضع فيها وندل فيليبس نتيجة حفرياته.

عنبر كنيب يضم عشرة أكياس محزومة بالخيوط، وأهم القطع تمثال أخضر من البرونز طوله متر لرجل واقف، غطاء الرأس مدور، وعيونه كبيرة مفتوحة وأنف ضخمة فوق فم صغير ضيق، ولحية ليست طويلة، وجه دقيق الملامح محكم الصنع يعيد للأذهان الفن اليوناني المهجور، ذراعاه مثنيتان ويبدو أنه يضغط على شيء في قبضتيه، وعلى ظهره جلد حيوان تقاطعت في الإمام يداه وهو يسير مقدماً الساق اليسرى.. الجسم من الرصاص، والقدمان ثابتتان على الأرض طبقاً لقواعد النحت القديمة، وعرفنا من النقوش اسمه: أنه معد يكر.. وقدم المدعو امدهار Amdahar هذا

التمثال البرونزي إلى إله القمر.

وبين القطع الأخرى المختلفة القيم رأس كان يبدو جميلاً جداً وقد سمحوا لي بإخراجه إلى النور وتصويره، وكان في غاية الدقة ويفخر به أي متحف كما يفخر بأجمل قطعة من فن الإغريق.

هذه القطع كلها اكتشفت في معبد بلقيس وهي تدعو إلى التنبؤ بما يمكن أن تؤدي إليه حفريات أكمل وأتم، إنها من البرونز الأخضر الخفيف الدقيق.. داخلها فارغ ومقوى بنوع من الأسمنت، والمعينة العميقة هي وحدها التي يمكن أن تلقي ضوءاً ساطعاً على هذه القطع.. أين صنعت؟ أو من أين جاءت؟

وامتلأت حجرة أخرى بالقطع المنحوتة من الرخام الشفاف وهي بكل تأكيد مصنوعة هنا.. وبجانب هذه الألواح المغطاة بالكتابات الحميرية توجد أعمدة أو مسلات ذات أطوال مختلفة وقد نحت في أعلاها رأس رجل أو حيوان.. والوجه في الغالب أمرد ولكن بعضها بلحية وواحد منها فقط بشنب.. وأسلوبها شبيه إلى درجة كبيرة بما وجد في بلاد ما بين النهرين «العراق» ومن بين هذه الوجوه ذات الجمال الصارم غير المعبر يبرز وجه ناعم أملس الخدين يفتر ثغره عن ابتسامة، ولم يكن في مأرب أحد من النحاتين يستطيع أن يبرز في عمله الملامح الذاتية للإنسان.

ولعل مسألة جنوب الجزيرة العربية هذه المهداة إلى آلهة مجهولة تكرم يوماً ما كأقدام ابتسامة في العالم.

كان الوقت متأخراً والجنود يؤدون صلاتهم.. وجاء الليل وكانت السماء في مكاننا هذا على ارتفاع ألف متر، أجمل وكانت النجوم أكثر تألقاً منها في بلادنا، وقد قررنا مسيو بارتو وأنا أن نقضي ليلتنا على السطح، وظل مسيو بارتو وقتاً طويلاً يقص علي كيف أخرج للنور التماثيل الإغريقية البوذية التي هي الآن في متحف جيمني في باريس.

وفي الفجر كان زملاؤنا المسلمون يمرون على السطح ليتوضأوا ويؤدوا صلاتهم الأولى، وكان الصباح في هذه الصحراء هادئاً غريباً لا أثر فيه لغناء العصافير.. وكانت أشعة الشمس المشرقة المنحنية تسقط حول دار الحكومة على قمم الأعمدة، ثم خرجنا لزيارة معبد بلقيس.

أصلح الطيارون أثناء الليل إحدى السيارات التي تركها وندل فيليبس، ولكني كنت قد ارتديت البنطلون استعداداً لركوب الخيل، جلس الأمير الحسن ومستشاره بجوار السائق وحشرنا نحن أنفسنا على ظهر السيارة، وقد وضعوا في إحدى زواياها السجاجيد والنارجيلة الكبيرة، وهذه أشياء لا غنى عنها حتى يحتفظ الإنسان بصبره عن تعطل السيارة، وبينما كانت السيارة تتمايل بنا تعلق بها ثلة من الجنود وقفزوا فوق العطاء المعدني للمحرك وهم يرفعون أصواتاً مرعبة تحية لأمرهم، وكانت الطريق مرهقة لأن أحداً لا يعني بها.. وتمايلت السيارة ووقع ما لا يمكن تفاديه.. سقط جندي تحت العجلات ولم تستطع السيارة الوقوف فظل ممدداً على الأرض وإلى جانبه بعض رفاقه..

فليحفظه الله!.

تقدمت السيارة ببطء شديد وكثيراً ما كانت تغوص في الرمال، وحولها فرسان أربعة يتلاعبون فوق جياد صغيرة أصيلة ممتازة.. ويقع المعبد على اثني عشر كيلومتراً من المدينة ولكن الأطلال لا تظهر من بعيد لأن الأعمدة العالية لا تتجاوز الكثبان الرملية التي تغطي البنيان القديم وتطمره إلا قليلاً، وقد رفعت الرمال عن ثلث قعر التجويف فقط، وفي المدخل رواق مهيب به ثمانية أعمدة رؤوسها من الذهب والفضة ولكنها قد فقدت بريقها ولمعانها.. إلا في خيالنا وتصوراتنا.. وقد رسم بالفحم فوق أحدها إنسان ساذج ضخم وهذا طبعاً ليس سبباً.. فهل يكون وندل فيليبس هو الذي انتهك حرمة هذه الآثار وندس قداستها؟ كلا بدون شك.

ومن كل جوانب البهو ينزل الإنسان إلى قاعة طولها ثلاثون متراً وعرضها عشرون متراً، وأرضها مفروشة بالبلاط وفيها مجموعة من الأحواض والقنوات، يبدو أنها مخصصة للطهارة قبل أداء الطقوس.. وفي الوسط صفان يتألفان من أربعين عموداً يقوم عليها المعبد ولم يبق منها إلا اثنا عشر عموداً.. وقد تشقق كثير منها عندما رفعت الرمال من حولها لاسيما وأن من العسير العثور هنا على الأخشاب التي تصلح ركائز..

وفي واجهة الرواق باب تتقدمه درجات توصل إلى البهو البيضاوي المهيب الذي لا يعرف لم كان مخصصاً.. وهذه واحدة من خصائص معابد جنوب الجزيرة العربية وقد أزيلت الرمال عن جزء من خارجه، أما داخله فلاتزال الرمال تملؤه إلى القمة، وقد قدرنا حجمه من الخارج، وهو تقريباً مائة وعشرون متراً طولاً، وستون متراً عرضاً وارتفاع الجدار ستة أو خمسة أمتار، ولا يزال قوياً صامداً وهو مبني من صخور رصت بعضها فوق بعض بمهارة فائقة، وعلى ثلثي ارتفاعه يلتف حوله إفريز من الكتابات الحميرية المحفورة العميقة، وتعلو على مقربة من البهو أعمدة أربعة على حفرة كانت فارغة عندما فتحوها وقد تكون ضريحاً لم يستعمل وقد يكون ما فيها قد نهب...

في هذه البقعة، خرج ثعبان من بين الصخور واضطربنا جميعاً.. إن الإمام يستطيع أن يحول العصا إلى ثعبان.. ولكن أخاه الحسن لا يستطيع تحويل هذا الثعبان إلى عصا للأسف.. لقد أمسك الحسن بهذه الأفعى السامة بحركة سريعة وقطع أحد الجنود قطعة من رداءه وصنع منها كيساً حمل فيه الأفعى حية إلى صنعاء.

وعلى بعد يسير تقف أعمدة بلقيس المربعة الخمسة التي لم ترفع الرمال بعد عن قواعدها، وللوصول إليها لابد من تسلق كثبان رملية عالية، ولكنني لم أجد أثراً لتلك الجبال من العظام التي أشار إليها المكتشفون الأول على أنها بقايا محتملة للقرايين التي كانت تقدم إلى آلهة السبئيين.

ويجب الخضوع للشواهد، فرغم أن أقوال البدو المتداولة قد ملأت هذا المعبد بالأساطير فإن اسم بلقيس لم يوجد في أي مكان فيه.. إن هذا المعبد مقدم إلى إله القمر

«المقاه» الذي هو هنا مذكر وخير، أما الشمس فمؤنثة وذات تأثير سيء.. وهذه هي النظرة في كل البلدان التي تسير فيها القوافل ليلاً لا تحت وهج الشمس، فهل يخطر على البال أن عاصمة مملكة سبأ في مكان آخر من اليمن.. في حضرموت أو مسقط؟ لا يمكن الرد على هذا السؤال إلا بعد تقدم الحفريات في مأرب.. فالنقوش التي تزين الرواق البيضاوي تدل على أن رؤساء الإقليم شيدوه في سنة ٨٠٠ قبل الميلاد، أي بعد ملكة سبأ بمائتي سنة، ولكنهم شيدوه ليكون سوراً وسياجاً حول معبد أوغل في القديم.. ولكن الرمال لم ترفع بعد عنه.. فهل يكتشف هذا السر هناك أو في أية بقعة أخرى؟ ولابد إذن من العثور أمام البهو على الممر المعبد بالبلاط والمؤدي إلى المعبد، ولابد من البحث في جانبي الطريق عن بنايات المدينة الرئيسية الغارقة تحت أمتار ثلاثة من الرمال.. ولكن من يقوم بهذا العمل.. ومتى؟

يبدو أن الإقليم لم يخضع بعد تماماً لسلطة الحكومة اليمنية، فقد كان السيف الحسن مرة يسير بعيداً عن جماعتنا وكنت أسير خلفه، ومعه حراسة الستة الذين لا يفارقونه أبداً، وسمعنا فجأة ضجة شديدة، وإذا بجماعة من البدو يسرون إلينا مسرعين.. وفي الحال أحاط الحراس بالأمير وأنزلوا بنادقهم من أكتافهم وأمسكوا بها استعداداً للدفاع.. وكانت نظرات الأمير قلقة فاحصة.. حتى وصلوا وقبلوا يديه وقدموا له مراجعة أو التماساً.. ولا يخلو هذا الفرع من سبب معقول.. تركنا معبد القمر عندما تقدم بنا النهار وتوجهنا لزيارة السدود القديمة الضخمة التي كانت تخزن مياه بحيرتين اصطناعيتين وتكون سبباً لخصوبة سهل واسع، وقد تصدع السد مرتين، الأولى في سنة ١٢٠ وأصلح، ثم في سنة ٥٠٠ ميلادية.. ولكن هل كان التصدع حدثاً تاريخياً هاماً فقد أعقبه الخراب والهجرة.. ولكن هل كان التصدع سبباً أم نتيجة في هذه الدائرة الملعونة من الجفاف إلى إقفار البلد من سكانه؟ لعل كارثة طبيعية كهزة أرضية أو طوفان هي التي دمرت هذا العمل الضخم، ولعل إقفار البلد من السكان راجع إلى حرب أو وباء حرم السد بعدها من الصيانة فانهار أخيراً.. مهما كان الأمر فبينما كنا نتأمل ونفكر في قوانين التاريخ كانت الحرارة في جوف السيارة شديدة لا تحتمل وقد ازدحمنا داخلها وتهالكنا بعضنا فوق بعض وفوق رؤوسنا يتأرجح الكيس الصغير الذي ترقد فيه الأفعى، ويمتد أحد السدين اللذين زرناهما على مساحة قدرها كيلومتر مربع ونصف بين رابيتين صخريتين يكونان ضفتي الوادي الجاف، كان السد ركناً من الصخور والطين المرصوص يصل ارتفاعه إلى ثلاثين متراً.. ولكن السيول قد أخذت كل شيء.. ولم يتبق غير بناءين ضخمين قويين يستندان إلى الجبل كل واحد في طرف من طرفي السد وكانا يستعملان لحجز المياه وتصريفها حتى ينتظم الري.

كان البناء القائم على الضفة اليسرى كما رسمه أرنود تماماً قبل مائة سنة تحت تهديد بنادق البدو. وينحدر منه رصيف لكسر الأمواج يصل إلى البركة القديمة، وتسير المياه في قناة إلى فتحتين يفصل بينهما عمود.. هاتان الفتحتان تقفلان بألواح خشبية سميكة

مركبة بعضها فوق بعض تبعاً لمستوى المياه..وتثبت هذه الألواح في ثقوب مستطيلة مزدوجة منحوتة في البناء ولا تزال ظاهرة للعيان.

أما الضفة اليمنى فليس بها سوى مصب للماء على نفس الطراز إلا أن فيه نقوشاً جميلة تزين البناء وتحدد تاريخه وهو تاريخ معبد بلقيس، ولا تزال الكتل الصخرية الضخمة التي أحسنوا تقطيعها مركبة بعضها فوق بعض باتقان ومهارة إلى يومنا هذا، كما لا يزال الأسمنت الذي يغطي نقوش أرصفة كسر الأمواج سليماً. ولا يملك الإنسان إلا الإعجاب بهذا العمل الذي يرجع تاريخه إلى ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة، والذي لا يزال مميزاً للهندسة الحديثة.

وعلى جوانب السد أبنية صخرية عجيبة ارتفاعها خمسة أمتار تقريباً وليس لها فتحات، ويذكر الناس هنا أنها خاصة بتوزيع المياه في قنوات السهل، ولكن أحداً لا يدري كيف يتم هذا.

بعد الظهر استدعيتني أسرة قاضي مارب إلى بيتها المجاور لدار الحكومة وكان بيتاً عالياً مبنياً بالطوب ومزيناً بنقوش بيضاء، وكان سلمه مظلماً جداً..وقد انتظرتني النساء على السطح، وكانت الشابات منهن ذوات جمال رائع وفساتينهن من القماش الأحمر أو الأصفر أو الأخضر وتبدو الأذرع من أكمامهن القصيرة الواسعة وهذا دلال لا تسمح بمثله نساء صنعاء، ولكن بنية صغيرة هي وحدها التي رضيت لسوء الحظ أن ألتقط صورتها..وكانت هديتي منهن أحجاراً ملونة مدورة مثقوبة لعلها كانت عقداً في عنق سبئية حسناء.

وتركت عائلة القاضي والتقيت بالبروفيسور جيرولامي وذهبنا معاً إلى أسوار ظلت سليمة حتى رحلة أرنود ثم انهارت وتهدمت. أما المدينة الحالية فلا تحتل إلا جزءاً مرتفعاً هو بلا شك الحصن أو القلعة القديمة وتبرز في كل جانب صخور حسنة التقطيع تغطيها النقوش المحفورة..فالمدينة إذن قد شيدت فوق الأطلال والخرائب،وهي مؤلفة من حوالي مائة بيت وتظهر في سطوحها العليا رسوم بيضاء.

وفي سفح المدينة يقع وادي دانا...وهو البحيرة الصغيرة الوحيدة في هذا الفصل الجاف، وكانت نزهتنا الأخيرة على شواطئها حيث بحثنا عن مواقع الماء التي تنقل البلهارسيا وكان معنا بعض الأطفال ذوي الوجود المشرقة الذين ألقوا بأنفسهم في الماء تسلية لنا ولكنهم لا يعرفون السباحة..وعلى ضفاف البحيرة كانوا يقطفون أوراق الأعشاب الصغيرة ويمضغونها مسرورين..إنهم محرومون من الفيتامينات فيما عدا ما يحصلون عليه من اللبن ومن الزبيب الذي يأتيهم من صنعاء فحاجتهم إذن ماسة إلى خضروات ولتشافتهم عليها ما يبرره.

حان وقت السفر، وانتظرت مع الأستاذ جيرولامي وقتاً طويلاً بجوار الطائرة وصول مسيو بارتو والأمير الحسن الذي أخرته بعض الوفود. وفي هذا السهل الملتهب لم نجد الظل إلا تحت أجنحة الطائرة، وعلى بعد مائتي متر ينعكس ستار من الأشجار الخضراء

في ماء البركة الهادئ.. ولكن ذلك لم يكن إلا سراباً.. وكان حولنا خمسون من البدو الزرق قد جلسوا يتفرسون فينا بشراة، وجرت بيننا مناقشات حادة واستطاع الأستاذ أن يفحص أسنانهم جميعاً بدون صعوبة. وأكد من جديد انعدام تسوس الأسنان في بعض الأجناس. ومرت ساعتان وثلاث ونحن في انتظارهم، ولم أعد أستطيع الوقوف فتمددت على الأرض ، أما زميلي فقد تجلد وظل واقفاً يضحك وأخذ البدو من حولنا يوجهون إلى البروفيسور إشارات معبرة.. معبرة جداً.. معناها في اللغة المشتركة بين الأمم: «إنها مستعدة.. تقدم»! فليسامحني أولئك الذين يظنون أن بدو الصحراء الغامضين الزرق أطهاراً.. وقد أتاح لي أحدهم أن أستعيد مكانتي كطبيبة عندما قال إنه يشعر بألم في رأسه.

هؤلاء الناس الطيبون الذين عشنا معهم أياماً عديدة.. هل مسؤولون عن وقوع البعثة الأمريكية في خطر؟

من الواضح أنهم قد عرفونا مقدماً كأطباء.. ولكن بما أن الأمر يتعلق بالدفاع عن موقف اليمن فإني أذكر هنا بعض ما يقال في عدن، وهو أن وندل فيليبس عاد بعد غياب عشرة أشهر، وأبرق إلى الإمام من نيويورك «سأصل ومعي هدايا».. وأبرق أيضاً من القاهرة «سأصل ومعي هدايا...» ومرة ثالثة أبرق من عدن إلى الإمام قائلاً: «سأصل بالهدايا»..

وقد رفض الإمام هدايا وندل فيليبس، ورفض أن يجدد معه العقد، وصحيح أيضاً أن الإمام كان محاطاً ببعض علماء الآثار المصريين..

وقد قال القاضي العمري وزير الإمام على مائدة فرنسية إيطالية ذات يوم: «إن العرب يستطيعون دائماً التفاهم مع شعوب البحر الأبيض المتوسط، ونحن نعلم أنكم تستطيعون أن تسعدوا في بلادنا كما نسعد نحن في بلادكم.. أما هؤلاء الأنجلوسكسونيون فإن هنالك شيئاً ما يفرق بيننا وبينهم...» وهذه أمثلة معروفة تؤكد كلها هذه القاعدة النفسية.

فعلى وندل فيليبس الذي لم يعد شخصاً مرغوباً فيه لدى الإمام ألا ينتظر من البدو أية مراعاة أو مجاملة. ولكن هل خاطرت بعثة حقيقية مخاطرة كبيرة؟

حقاً إن إنزال خمسة عشر عالماً وعشرة أنابيب كوكاكولا تحت الضغط وخمس عربات نقل وثلاث ثلاجات ضخمة من أجل أسبوع واحد أمر مزعج!

وقد جعل وندل فيليبس عنوان مغامراته Parfums de romance et epices du

danger وتأتي هذه العبارة في الوقت المناسب لتضع باحترام خاتمة ونهاية لكل شيء.

وأثناء انتظارنا للأمير، كنت أعاني إحساساً شديداً الوطأة.. فقد كنت عاهدت نفسي أنني إذا وصلت يوماً سأرب فإني سأخلف عن العودة بالطائرة، وأرجع إلى صنعاء براً، وكان معي ما يكفيني لاستتجار مرشد وبعير. وإذا كنت بعد صراع داخلي مرير قد عدلت عن هذه المحاولة المغرية فما ذلك إلا احتراماً واعترافاً بجميل إمام اليمن، هذا الرجل الذي يفهم الأخلاق والدين فهماً بعيداً جداً عن فهمنا لهما.. كان فطناً وعادلاً عندما قبل أن

تسافر امرأة مع لفيف كله من الرجال..ولهذا كله فلن أسمح لنفسي بممارسة أي مظهر من مظاهر الاستقلال..وفضلاً عن ذلك فإني سأتمتع برؤية الإقليم من الجو.. ولا وجود للرمال حول المدينة..والتربة مكونة من الرواسب الرملية الجافة القاسية التي تجرفها المياه، وظهرت خطوط منتظمة لايمكن أن تكون من عمل الطبيعة ولا يمكن تمييزها على الأرض، ويجد الإنسان هذه الظاهرة في سهول الفرات أيضاً..وتتوارى المدينة شيئاً فشيئاً وتطغى الرمال على أعمدة المعبد شيئاً فشيئاً وتنتظر أن يأتي رجال مدفوعون بحب الاستطلاع يزيلون من جديد هذه الكثبان الرملية تنقيباً عن الأرض القديمة. وقد فكرت في أرنود، وحيداً متكرراً جريحاً وأعمى وقد أضطر إلى الفرار سريعاً يلاقي ما يلاقيه من مشقة وهو في طريق عودته إلى الحديدة.

ولكن أرنود لم يكن الأول..فقد دهش عند وصوله إلى مأرب حينما علم أن أوروبياً آخر قد سبقه إلى هنا...فقبل أرنود باثني عشر عاماً أي في سنة ١٨٣٠م أقام «رجل شاحب طويل وأشقر» في المدينة عدة أسابيع..كان يتكلم العربية بطلاقة ويعرف القرآن معرفة جيدة..وقد عرف كيف يكسب الاحترام، وطاف بالإقليم يصور الخرائط وينقل النقوش..وقبل سفره أخبر رئيس الإقليم بمكان حفروه فوجدوا قطعاً ذهبية باعوها بثمن مرتفع. وكانت نهاية هذا الرجل الذي منح القوة الخارقة لاستخراج الكنوز محزنة مؤلمة، فقد قتل وسرق ما معه وفقدت حقائبه..ولكن وجوده ليس أسطورة أو خرافة فقد عثر على أثر مرات عديدة في اليمن وفي حضرموت...ولكن الشرق في القرن التاسع عشر لم يكن يتطلب من المسافرين هذه البطاقة التي لا ترحم والتي لا غنى عنها في الجمارك ومكاتب الصرف والتفتيش الطبي. ولم يبق لنا من هذا الرجل إلا سطور قليلة كتبها عنه أرنود في تقريره في «الجريدة الآسيوية» ولم يعرف اسمه ولا بلده. ووصلت صنعاء وأسهرت إلى لقاء الأميرة أقص عليها رحلتي..كانت تنتظرني وكانت سعيدة لحماستي وقد ناولتني رسالة تبينت فيها ختم الإمام الأحمر..كانت قد طلبت من الإمام زوجها أن يمدد خدمتي في اليمن سنة أخرى وقد أجاب رغبته.

ويسعدني أن يجتمع معبد القمر المؤثر وصورة صديقتي اللطيفة في ذكرى واحدة..

خاتمة

والآن انتهى.. كنت آمل أن أصل إلى تعز على ظهر بغلة مخترقة جبل سمارة.. وكنت قد حصلت على التصريحات اللازمة، ولكن إجازتي قد انتهت منذ مدة، وعائلتي تستدعيني، وقد وصل طبيب إيطالي يحل محلي، وبعث الإمام بالطائرة تنقلني إلى تعز. لقائي لأسرتي شيء، ومغادرتي لليمن شيء آخر.. إن مغادرة اليمن أمر مؤلم.. وفي حالات كهذه وبناء على قاعدة دقيقة منذ زمان طويل تظلم الدنيا في عيني، ولكن ذكريات معينة تأبى مع ذلك إلا أن تشق طريقها وتظهر.

لقد قدمت لي الأميرة وأنا أودعها في صنعاء عقداً من الورد، وأعود في المساء إلى بيتي وأنا أحمل هذا العقد كهم ثقيل، إنه دائماً هنا في درجي، وكلما جف، فاحت رائحته

شذى وطيباً مثل كل ذكرى جميلة.. وعندما أكتب إلى سيدي محمد بدر الدين أضع ورقة هشة مصغرة في الظرف.. ويتلاشى العقد شيئاً فشيئاً، وعندما ينتهي أرجو الله أن يمكنني من الذهاب إلى اليمن أبحث عن عقد وردي آخر.

كنت أرجو أن أسافر إلى عدن براً، ولكن سلطنة لحج في اضطراب ولهذا فلن أرى الجبال اليمنية الجميلة مرة أخرى.. فقد رأى الإمام أن يقدم لنا طائرته «بلقيس»، وكان ضباب المحيط الهندي يصعد كما في كل صباح إلى القمم النائية العالية فوقنا، وتختفي اليمن عما قليل تحت السحب البيضاء الكثيفة ويسير خلفنا صليب ذهبي صغير هو ظل بلقيس يحاول أن يتخطى السحب ولكن دون جدوى.

يطمع الإنسان في كل قصة أن يبدي بعض الملاحظات المألوفة التي هي حقيقة ومتناقضة في آن واحد، ولما كانت روايتي هذه واحدة من تلك الأقاصيص فإني أخضع راضية للقاعدة العامة.

لقد فكرت وأنا أكتب هذا في أبنائي، وفي أولئك الذين هم في سن تسمح لهم باختيار الطريق التي ينتهجونها في حياتهم.. إنني لا أعلق أهمية كبرى على النصائح، فالإنسان لا يستطيع أن يقدر أهمية ميل أو حب إلا بالنسبة لنفسه هو، وهو وحده الذي يقرر، وليعلموا مع ذلك أن التائي في الاختيار وفي تقرير أمر كهذا، هو أسوأ الاحتمالات إذا كان الباعث الخفي لهذا التائي هو انعدام الثقة بالنفس.

ولكن أياً كانت الطريق التي يسلكها المرء فالوقت دائماً ليس متأخراً ويندر ألا تمر الفرصة نفسها أو الحظ ذاته مرات عديدة في حياة المرء، وبقاء الإنسان قادراً على التعرف على الحظ وعلى اقتناص الفرصة لا يتوقف إلا عليه، وإذا جاءت الفرصة فيجب اقتناصها والإمساك بها شرط أن تسمح بذلك التعهدات والارتباطات السابقة، وما يجنيه الإنسان في هذه الحال لا يمكن معرفته إلا فيما بعد، لقد آمنت في اليمن في وقت من الأوقات باحتمال وجود الله، وقد أحببت بلداً إقطاعياً يعيش في القرون الوسطى وأنا ملحدة وماركسية دائماً وبكل تأكيد.. ولعل ذلك كان أفضل..

وبعد هذا كله؟ عدت أمسك البطاقات الطبية.. وأصنف ألوان الطعام اليومي، وأركب الأوتوبيس كل صباح.. نعم.. نعم.. ولم لا؟

ولكن الإنسان إذا عاد من الشرق بعد أن أقام به، وأقصد أقام به فعلاً واختلط بسكانه فإنه هو الإنسان الأول أبداً، إن الشرقيين يعرفون الانتظار، إنهم يعرفون أكثر منا كيف يقبلون أن يمر الوقت دون أن يأتي معه بما ينقصهم وماهم بحاجة إليه، ذلك لأن لهم من عزة النفس إحساساً وإدراكاً أصلب من إحساسنا وإدراكنا، إن الذي يضطرب عبثاً وبدون جدوى أضحوكة في نظرهم.. وما يميزنا عنهم هو تقديرنا لفرص النجاح الضرورية للعمل، فإذا كانت فرص النجاح ضعيفة فإنهم يعولون ويتخاذلون وتبدو حكمتهم لنا خمولاً وكسلًا، أما نحن فنحاول مع ذلك، وتبدو لهم همتنا معيبة، ولاشك أن هذا هو السبب في أن اليمني لا يقدم على الانتحار، أما الغربي الذي تنعدم أمامه فرص

النجاح فإن الموت الاختياري هو الوسيلة الوحيدة للرد على القدر المعاكس، أما اليمنيون فإنهم وهم أحياء يستطيعون أن يحتفظوا بهدوئهم وأن يجعلوا الموت موتاً داخلياً.

قال لي عامل ذمار: «إن اليمن مثل البطيخة.. القشرة الخارجية صلبة ولكن الداخل طيب حسن..» وليعرف الإنسان قيمة اليمن ينبغي ألا يطوف بها مسافراً شراً للصور النادرة الثمينة فقط، يطلب كل شيء ولا يقدم شيئاً، إن هذا لايحبه اليمنيون، ففيهم أنفة وإباء، يجب أن تذهب إليهم ببساطة.

بمهنة طيبة في يدك، ورغبة صادقة في أن تنفعهم وهنا لن تجد قشرة صلبة تقاوم وستأتي الثقة وبعد الثقة يأتي كل شيء، وحينئذ فقد تعرفهم وتتعلق بهم وتتساءل عما يكسبه بلدهم الذي ظل بعيداً عن الحضارة الحديثة وما يفقده إذا دخل حلبة الرقص بدوره مع الداخلين، وهذه أسئلة يرد عليها كل شخص بمقتضى مزاجه الشخصي.. وعلى كل حال فالتقدم لامفر منه، وحتى علماء أصول السلالات البشرية الذين يجدون في اليمن ميداناً صالحاً لمعرفة ما طمسه التقدم.. يجب أيضاً أن يتمنوا ذلك.

ولكن أي تقدم ومن أي طريق؟ هذه هي المشكلة الوحيدة، كان مغني الإمام ذلك الشاب الذي وهب صوتاً رائعاً، يردد أغنية حلوة جميلة أخذت تسجيلها معي، وهي قصيدة يمنية قديمة لحنها موسيقي معاصر وهذا موضوعها: «شاب يعدد طبيبات الحياة: الزهور الجبال السماء المرصعة بالنجوم.. ويقول إنه قد وقف نفسه ونذر لها هذه الطبيبات الجميلة ويتوسل ألا يأتي شيء يعكر عليه هذه الوقفة الطبيعية».

وعندما كنت استمع إلى هذه الأغنية كان يبدو لي أنني استمع إلى الأمنية العميقة لشعب اليمن العريق في القدم، المبكر في الحداثة: ميناء حديث، أعمال ري عظيمة، طرق معبدة في كل بقعة، مناجم تستغل.. هذا كله طيب وجميل.. شرط أن يكون شعب اليمن هو نفسه الذي يجني ثمار عمله الجديد.. فليحافظ الأمراء في اليمن على الحياة الهادئة البسيطة وليمسكوا عن الذهاب إلى الخارج وعن التمتع والتلذذ كما يفعل الأمراء عادة.. ولتبقى ثروات اليمن الدفينة في جوف الأرض لا يغتني بها إقطاعيون، يمنيون كانوا أو غير يمنيين... ولاشك في ضرورة المعونة الخارجية لتطور أي بلد ناشئ، ولكن هذه المعونة ينبغي أن تستهدف المصلحة العليا للبلدين.. والتاريخ الحديث يظهر هذا.. إن عالمنا الحديث يقدم للبلدان الجديدة طرقاً مختلفة للنهضة والتقدم.. منها ما سارت عليها الجمهوريات الجديدة في آسيا، وما سارت عليها البلدان التي ضلت طريقها فوقعت فريسة للجشعين والطامعين والرأسماليين الاستعماريين.

فإذا كانت الطريق الصحيحة السليمة ليست اليوم مفتوحة أمام اليمن فلتبقى كما هي انتظاراً لظروف تاريخية أحسن، وهذا أفضل ألف مرة، لتبقى ما هي لا تعرف من حضارتنا ومن خرائنا الفنيين إلا المزايا والفوائد، وحتى تظل مستودعاً للرجال الذين لم يتلوثوا، الذين يفيضون إيماناً وذكاء وهذه ثروة نادرة وأندر من المناجم البكر التي

لم يستغلها أحد بعد، وسيأتي اليوم الذي تستطيع اليمن أن تسير فيه وأن تنطلق بحرية. وقد يقول قائل.. وفي فترة الانتظار هذه.. حالات الولادة، حالات الدرن الرئوي كل هؤلاء المرضى الذين لا علاج لهم.. إن هذا كله شنيع، والاستعمار الأجنبي يمكن أن يقدم الحل لكل هذا.. نعم.. إنه واضح أن هذا شنيع.. ولكن هذا ليس هو المهم.. إنني لا أعتقد إن صيدلية حسنة التنظيم يمكن أن تكون مبرراً كافياً لأي لون من ألوان العبودية، كما لا أعتقد أن المحافظة على السوائم مسوغ كاف لاستعبادها، إن الموت لا مفر منه، والتوجع قليلاً أو كثيراً قبل الموت لا مفر منه أيضاً، وإنما المهم هو أن يقضي الإنسان حياته هذه كريماً عزيزاً، والصحة ليست إلا عاملاً واحداً من عوامل الحياة الفياضة المدركة الطبية حقيقة.

وإني، وأنا أودع أصدقائي اليمنيين، لا أفكر في أوجاعهم وآلامهم ولكني أفكر في صفاتهم، في قلوبهم وأذهانهم، في رغبتهم الصادقة العفوية في الإصلاح، تلك الرغبة التي ظلت قوية فيهم لأنهم أحرار، لا يعلقون التقدم الحديث على وجود أجنبي يتحكم في بلادهم.

إنني أفكر في أطفال مدارس صنعاء وهم ينشدون لي شاكرين «لأنني علمتهم شيئاً جديداً» أفكر في شريفة التي أرادت أن تتعلم القراءة، أفكر في ذلك الرجل العجوز الذي استند إلى شجرة تحت نافذتي وظل يسمع السيمفونية حتى نهايتها، أفكر في عبدالله الذي لم يكن قد رأى في حياته عملاً فنياً واحداً، والذي أخذ يرسم بحماسة رسماً كروكياً زائراً بالحياة والفكاهة، أفكر في ذلك الكهربائي الذي طلب من المهندس أن يصلح له جهاز راديو وكاد يبكي قهراً وهو يقول: «هل نحن حيوانات، إنني أحاول إصلاح هذا الراديو منذ يومين.. وها أنت ذا قد أصلحته في دقائق، أفكر في بنائي المفوضية المصرية في صنعاء وهم يعتذرون رسمياً لأنهم لم يكونوا يصدقون أن الماء الساخن يصعد.. أفكر أخيراً في الممرضين الذين تملؤهم الرغبة في المعرفة وفي توفير الراحة للآخرين.. وأصل من هذا إلى القصة التي احتفظت بها للنهاية.

كان ذلك في المستشفى ذات صباح، وكنت أفحص امرأة جاءت من قرية بعيدة، وقد خرجت من ولادة عسيرة ببتير خطير لا يشفيه إلا سلسلة من العمليات، فهي إذن معرضة للموت في الشهور التالية، وإتباعاً لقاعدة دقيقة سألتها عن عمرها، رغم إنني كنت أعلم مقدماً أن الرد هو مجرد إشارة بأنها تجهل ذلك.. ولكن حدث في ذلك اليوم شيء غير عادي.. جلست المرأة ونظرت إلي بخجل وحزن وغضب وقالت: «لا أعرف كم عمري.. إننا نعيش في القرية كما تعيش البقر.. إننا لانعرف حتى أعمارنا»، خجل وحزن وغضب.. كل هذا كان يبدو في نظراتها.. وقد جعلتها السليقة العميقة تقول نحن.. ولم تقل أنا.. وما دام في هذه الدنيا نظرة كنظرتها، ولأسباب كهذه الأسباب يمكن أن يأمل الإنسان كل شيء، إن معرفة الإنسان لسنه هي معرفة أولية.. ولكنها في الحقيقة الإشارة الأولى لحياة أكثر إنسانية.

هذا النور الداخلي لـ«أعرف نفسك» أذهلني لحظة.. ثم كان علي أن أواصل عملي..
ولم تعد المرأة المضطجعة أمامي سوى كتلة معذبة من اللحم..
لم يكن في وسعي أن أعمل من أجلها شيئاً.. لاشيء على الإطلاق.. غير أن أستبقي لها
يوماً مكان الشرف في كتابي هذا.